

نقد الجمال العربي

إشكالات حضارية للذات العربية

الدكتور
صالح الفهري

الرسومات
أحمد جعيسه

الإخراج الفني
يوسف بهادر

التدقيق اللغوي
هيثم صلاح



مؤسسة الرؤية للصحافة والنشر
مسقط - سلطنة عمان

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

قبسات فكرية

« إن النقد هو أفضل أداة بناء ابتدعها العقل الإنساني ».

الفيلسوف الألماني كانط

«المجتمعات العربية بحاجة إلى عملية نقد شفافة كخطوة أولى باتجاه التغيير. وقبل ذلك تتساءل ما إذا كانت هذه المجتمعات قادرة على إجراء تشخيص يحدد مواطن الخلل والضعف الحائلة دون انخراطها في عمليات التغيير التي يشهدها العالم».

منى خويص في كتابها «الأبواب المغلقة»

دراسة حول أزمة التغيير في العالم العربي»

«إننا عندما نقدم على رصد مظاهر الحياة السلبية في حياتنا الثقافية، فإن هذا لا يعبر عن رغبة ماسوشية تسعى إلى قهر الذات أو جلدتها؛ لأن البداية الحقيقية لكل حادثة تكمن في تفكيك أسس ومناهج تفكيرنا، والكشف عن العوائق الإيستيمولوجية التي تحجب عنا عيوبنا المنهجية والنظرية، ومن ثم دراسة وتحليل مخيالنا المشحون بالمقدس وبتراث من التعاليم والتوجيهات » .

د . علي أسعد وطفة

« الناقد رائد التثقيف وصانع التقاليد الثقافية »

الناقد الإنجليزي فراي

« كل ما يُعاب على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سمّوه إسلامًا ».

الإمام محمد عبده

تَقْرِيطُ الْكِتَابِ

”عوّدتنا الكاتب الدكتور صالح الفهدي على التقاط مجموعة من الممارسات في رسمها لنا عبر كلماته. واقعاً، قد لا يلتفت إليه الكثير، ولكنه بريشة الأديب الماهر والناقد الاجتماعي المدقق؛ يصف هذه الحالة أو تلك بعين الأمين المخلص الغيور، ينقدها، يحللها، يبين أضرارها على الفرد والمجتمع، مؤدياً رسالة الكاتب والأديب.. كل ذلك يرسمه بأسلوب أدبي رفيع يُذكرنا بأساليب كتاب النهضة في أرض الكنانة“.

د. محمود بن مبارك السليمي

أديب ومحقق

”كتابات من النوع الذي يحدث لديك شعوراً بالدهشة، ويجعلك تسأل نفسك مُستغرباً: ألم أفكر بهذا الموضوع من قبل؟! ألم أكن أرغب في طرحها مع محيطي؟! أو تقول: لقد سبقني الدكتور صالح في طرح هذه الفكرة أو المشكلة.. أو تقول: نعم، صحيح، مجتمعنا يعاني من هذه المشكلة.. والحقيقة هي أن الدكتور صالح الفهدي -بصفته كاتباً مهموماً بقضايا مجتمعه وأُمته- يطرح تلك القضايا بأسلوب السهل الممتنع؛ ذلك الأسلوب الجميل الرَّاغِب في الإصلاح الطامح بالارتقاء والباعث على الأمل، لا الأسلوب الجارح الغارق في التشاؤم؛ فلسان حال الدكتور صالح يقول: ”أمتي فيها خير، والأمل موجود“. ووظيفة المثقف المحب لوطنه وأُمته: تشخيص همومها ومشكلاتها، وطرح الحلول، وبعث الأمل والتفاؤل. أرجو أن يحدث هذا الكتاب الأثر الاجتماعي الذي رجاه كاتبه. وأن يستمر الكاتب في تلمس قضايا وهموم المجتمعات العربية“.

عيد بن محمد الثقفي

سفير المملكة العربي السعودية لدى السلطنة

”البساطة في الطّرح، واستخدام أمثلة ومواقف حياتية تمثّر على البعض منا مرور الكرام، هو ما يُميّز كتابات د. صالح الفهدي بشكل عام، و”نقد الحال الراهن“ بشكل خاص؛ لذلك لا يجد القارئ صعوبةً في فهم الرسالة والفكرة، بل إنّ أسلوبه الشائق في السرد يجعل كلّ ما تقرأه من كتاباته قريباً من قلبك“.

د. عبدالله الصارمي

وكيل وزارة التعليم العالي

”أفخرُ وأفخرُ بأمثالكم وفكركم المبدع، وقلمكم الذي أبدع في طرح الموضوعات ذات الأهمية والفائدة الكبيرة للمجتمع. مُقدِّراً سعيكم الدؤوب لإيصال رسالة تحمل كلّ معاني القيم الطيبة والإيجابية للمجتمع، والتي تُسعدني كثيراً قراءتها والاحتفاظ بها“.

المكرم / محمد بن عبدالله الريامي

رئيس اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان

”نقد الحال الراهن، كلمة صادقة نابغة من الحب الوطني والإخلاص الناصع النقي لتراب هذا الوطن الغالي وقيادته الحكيمة. علينا جميعاً في كلّ المواقع أن نتحمّل مسؤوليتنا الوطنية بتجرد ذاتي.. والنظر إلى المستقبل بكلّ طموح وتفاؤل، وأن نعمل يدّاً بيد من أجل عُمان؛ فعُمان أمانة في أعماقنا.. شكراً لك أخي د. صالح الفهدي على كتابك القيم الذي يُعدّ نبأاً من القيم لطريق المستقبل“.

د. سعيد الربيعي

أمين عام مجلس التعليم العالي

”عزيزي القارئ، وأنت تقرأ هذا الكتاب الذي يحتوي على مجموعة من المقالات التي كتبها الدكتور صالح الفهدي، فإنك تطلع على مقالات كتبت بفكر راقٍ من واقع ما يدور في المجتمعات، بأسلوب حضاري سهل القراءة والفهم.. أتمنى أن تنال إعجابك، تمنياتي له بالنجاح والتوفيق“.

جميل علي سلطان اللواتي

رجل أعمال

”في زمن اشتدت فيه العواصف من الجهات الست، وعزَّ الوصول إلى ميناء الأمن والسلام، وارتفع صُراخ الأقلام الحائرة أو من باع ضميره لسلطة أو مال، يأتي كتاب الدكتور صالح الفهدي ليشكل منارة جريئة واضحة الأنوار. كتاب يستحق القراءة أكثر من مرة؛ للحصول على كل كنوزه المخبوءة بين حنايا السطور“.

نورالدين الهاشمي

أديب سوري

”د. صالح الفهدي من القلائل الذين لا ينامون؛ فهو دائم الرصد والتحليل لحركة المجتمع وسلوكيات، إنه يُفكر ويتألم ويهتم، وفي الأخير ينطلق بحلول واقتراحات مليئة بالإيجابية والأمل. إنَّ ”نقد الحال الراهن“ ما هو إلا انعكاس نقى لشوائب المجتمع التي لا يستطيع أن يعكسها بهذه النقاوة ويتناولها إلا شخص معجون بتربة الوطن الطاهرة، وبحبِّ إنسانيته مثل الدكتور صالح الفهدي. أدعو الله أن يُعينه ويُسدِّد خطاه ويوفقه“.

علي بن مال الله حبيب

رجل أعمال

”نقد الحال الراهن ليس فلسفة نظرية، ولا شعارات يُراد بها الظهور والكلام المكرور، وإنما هو تشخيص وعلاجات ناجعة لأُمراض مُستعصية استفحلت بالمجتمعات الشرقية الإسلامية، وصارت تنخرُ في أجسادها ومقوّماتها القيمة حتى كادت أن تغرب شمس القيم فيها، أو تتوارى، ويحقُّ عليّ أن أعترف من خلال قراءتي المتذوقة وفهمي البسيط المعتدل لبساطة لغة ”نقد الحال الراهن“ لصاحبه القيمي د. صالح الفهدي؛ وذلك لعمق معانيه وبُعد رسالاته للإنسانية عامة ولأصحاب الهوية الإسلامية خاصة، وأيضاً من خلال معاشتنا للواقع نفسه على الأرض، الذي أبدع في تصويره الكاتب؛ قائماً لدور الرسول الكاتب، صاحب القلم المختار للرسالة، مُلتزماً بواجبه ودوره؛ لِيُسهم بفاعلية وجدية وإيجابية في الالتفات إلى مشكلات الحال الراهن، وترجمة الحلول الفاعلة المقترحة ترجمة عملية.

علي الحضرمي

معلم لغة عربية

”نقد الحال الراهن منظومة تحليلية لحجم تعامل المجتمع مع القيم، عميقة المضامين، تلفت الانتباه إلى الاتجاه الذي تحدّده بوصلة السلوك الحسن والنمط الأفضل للعيش.. ولا عَجَب أن يتصدّى الدكتور صالح الفهدي لإعداد مثل هذا العمل القيم الذي أحسبه الأول من نوعه، وقد سكب في قوالب من اللغة لا تتطلّب مجهوداً للفهم، تحدّد معالم الهوية الأخلاقية

بمتهى السهولة، وترسم علامات استفهام على أشكال من السلوك في إطار "ما لا ينبغي" لأجل "ما ينبغي".

يسدُّ هذا العمل فراغا في الكتابات التي ترصد المجتمع سلوكيا، وتنقد الواقع ببراعة لأجل تعامل مُتناغم مع الهوية، والذي أرجو أن لا تفوت فرصة قراءته بإمعان كل مهتم بتطوير الحياة إلى حيث الأفضل والأحسن والأكمل.

محمد بن رضا اللواتي

كاتب وباحث في الفلسفة

المُقَدِّمَةُ

النظرة إلى الحال الراهن الذي نعيشه بكل تجلياته ومشاهده تستوجب النقد من أجل التصحيح، وهي مهمةٌ تدرجُ ضمن أولويات الكاتب، ولقد عنَّ لي أن أُلقي الضوء في هذا المؤلف على ظواهر متفشية في المجتمعات العربية، وهي ظواهر تتنامى نتيجة البعد عن اللبِّ الأصل للمنهج الإسلامي القويم.

هذا المنهج السماوي الجليل الذي يهدف في مقاصده إلى رفع قيمة الأخلاق، وعلو شأنها فوق الماديات، لكن ما إن يجعل المسلم إيمانه بالله مجرد شعائر مجردة من الشعور الروحاني بمعانيها وقيمتها، فإنه ينفصل عن الغايات المثلى، ويصيرُ الدِّين مجرد عادة لا عبادة عنده، ومع ذلك فهو يتباهى بكونه مسلماً، لكنّه لا يلتزم بأبسط قواعده!

إن المشكلة تكمن في الأساس الذي إن لم يُنَ بالصورة الصحيحة يسلب البناءَ صفة «السلامة»، ومعلوم أن البناء السليم للمقدّمات، يأتي بمخرجات سليمة، والعكس صحيح. وما يحدث في المجتمعات الإسلامية اليوم من ارتباكٍ وبلبلٍ وفوضى وعنف وتقاتل واختلاف محتدم وتبادل اتهامات وتشتت بسبب عدم اليقين الإيماني الداخلي، وعدم اتزان النفس، وعدم وضوح الرؤية والهدف، أو انسجام الأفكار. كل ذلك نتيجة عدم الاهتمام بصقل المولود الذي يولد على الفطرة تصويماً صحيحاً نحو المبادئ القويمة التي جعلها الدِّين أركاناً للتنشئة، وهي أساس تكون الشخصية الإنسانية السليمة.

تأتي في مقدّمة ذلك منظومة القيم الإنسانية الراقية التي تحتوي على أنفُسِ القيم الأخلاقية المقوّمة لفكرِ الإنسان وسلوكه، وطرق تعاطيه مع الأفكار والناس، والأشياء في الحياة. فإن لحق هذه المنظومة أي اضطراب، واختلال فإن الشخصية الإنسانية والمجتمعات بكاملها لن يستقيم لها حالٌ دون أن تمعن النظر في واقعها، وذلك بتشخيص الأمراض التي تخلخل بنيتها، وتسعى إلى تفكيك عوامل الوعي فيها.

إن الحال الذي غدت فيه الأمة أشبه بالضبابية وعدم الوضوح في كثيرٍ من جوانبه، أكان ذلك على صعيد التنمية أم التربية أم التعليم أم التخطيط أم القضايا الاجتماعية أو السياسية؛ تسمعُ نقداً هنا، وتوصياتٍ هناك، ولكنك لا ترى منهجاً عملياً، واضح الخطوات لمعالجة الخلل..! الأمة قد تتقن الكلام، وتعلم ما هي الحلول، ولكنها تفتقدُ إلى الإرادة الحقيقية للإقدام على وضع حلول جذرية. ففقدان المبادرة في البلدان الإسلامية تسبّب في كثيرٍ من التأخير، والتشويش، والإرباك في المنظومة الاجتماعية والاقتصادية فهي تشهدُ التغيرات المتسارعة ولكنها لا تفعلُ شيئاً إزاءها، كما فعل العربُ في الأندلس وهم يشهدون المدّ المسيحي الذي ييسطُ نفوذه بصورةٍ متسارعةٍ وهم مع ذلك مسكونون بالوهم في ثباتهم وعدم زحزحتهم وعدم تصورهم المآل الذي صاروا إليه!!

هذا ما يحدثُ الآن وتيار العولمة يواصلُ تأثيراته بالسينما والتلفزيون والإنترنت والماكدونالدز والأغاني الغربية وألعاب الكرتون والموضات...

وغيرها. وفي المقابل، تتفكك داخلياً بُنى المجتمعات الإسلامية التي أفقدت نفسها القواعد التي يجب أن تقوم عليها نهضتها الحقيقية، وأول ذلك كتاب الله سبحانه وتعالى المرافق بفهم صحيح لمقاصد الشريعة، وحكمة العقيدة.

الإشكالية الكبرى أن طرق التأسيس في المجتمعات الإسلامية هشة، تقوم على القول أكثر من الفعل، وأن الأفق المستقبلي، والتوافق مع روح الحداثة والعصر لا يكادُ يبين. هذا إلى جانب تغييب القيادات المستنيرة - في مجالات أساسية - القادرة على إحداث التغيير الإيجابي في الأمة. وإذا كنا نسأل عن أسباب تفشي الظواهر الفكرية والسلوكية السلبية في مجتمعاتنا فإن الإجابة عن هذا تحيلنا إلى الطرق المبدئية في منهجية التربية والتعليم.

أثناء كتابتي لهذه المقدمة، وردني اتصال من شخصٍ يخبرني فيه عن ابنٍ عاقٍ لوالديه، متمردٍ عليهما، مصاحبٍ لقرناء السوء، ويسألني: كيف يمكن العمل لإعادته إلى جادة الصواب؟ قلتُ له: يجبُ التوجّه إلى والديه قبل التوجّه إليه أولاً، وأردفتُ قائلاً: المشكلةُ عندنا هي التوجّه للفروع وليس للجذور؛ فالمشكلةُ الأكبر أن الوالدين - في الأغلب - هما سبب انحراف الأبناء - أكان ذلك في بعدهما عن الأبناء عاطفياً ونفسياً وفكرياً وغيرها، أم جهلهما بأسس التربية الصحيحة واعتمادهما أسلوب الإخضاع والإذعان للأبناء كيفما كانت نتائجه - هذا يذكرنا بقصة الأب الذي اشتكى عقوق ولده لسيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك عقوق ولدي، فقال: ائني به، فجاء الولد إلى عمر، فقال

عمر: لم تعق أباك؟ فقال الولد: يا أمير المؤمنين، ما هو حقي على والدي؟
فقال عمر: حقك عليه أن يحسن اختيار أمك، وأن يحسن اختيار اسمك
وأن يعلمك القرآن. فقال الولد: والله ما فعل أبي شيئاً من ذلك، لقد عَقَنِي
قبل أن أعقّه، لم يسمني اسماً جميلاً، بل سماني جُعلاً (خنفساء)، ولم يختَر
لي أمّاً تحسن تربيتي، ولم يعلمني ولم ينهني عن جلساء السوء، فسأل عمر
الوالد فاعترف، فقال له: انطلق، لقد عَقَقْتُ ولدك قبل أن يعقك..! فانظر
إلى الحكمة السديدة التي اهتدى إليها أمير المؤمنين - رضي الله عنه - في
السؤال عن الأسس قبل أن يتحدث في المشكلة وكيفية معالجتها، وإكراه
الابن على طاعة والديه.

الشاهد أننا إذا كنّا نطمحُ إلى تغييرٍ إيجابي في الواقع، فإن علينا أن نشخّص
المشكلات ثم نردّها إلى الأسس القيمية كي نصلح هذه الأسس إصلاحاً
قوياً، لا بالقول والخُطْبِ والمحاضرات والندوات... وغيرها، بل بالبرامج
العملية، والمؤسسات الاجتماعية المسخرة لإحداث التغيير الثقافي في
المجتمع، وتصويبه إلى الجادة المستقيمة.

يقول د. عبدالكريم بكار في مقاله «فقه الأسباب»: «إن الله - سبحانه
وتعالى - قد مَتَّع الإنسان بالإرادة الحرة، وأتاح له إمكانية النظر إلى كل
مفردات الوجود بصورة مستقلة، لكن الواقع يشهد أن الإنسان سيظل
أسيراً - في أمور كثيرة - للبيئة التي يعيش فيها، وأسيراً لرغباته وشهواته،
وأسيراً لحاجاته التي لا تعرف التوقف عند حدٍّ. ومن هنا، فإن مساعدته على

التخلص من مشكلاته تتطلب شيئاً أكثر من وعظه وإطلاعه على ما يجري. إنه يتطلب في الحقيقة نوعاً من الفهم الجيد للأسباب والظروف والمعطيات التي تجعل انغماس الإنسان في المشكلات أمراً سهلاً، أو لا بد منه».

وما الظواهر أو العيوب التي ترد في هذا الكتاب إلاّ تشخيص للواقع، وهي مهمة المثقف الذي عليه كشف الواقع واقتراح الحلول الناجعة لإصلاحه. مع التنويه بأن الظواهر لا يقصدُ منها التعميم، لكنها حالات عامّة تتنامى في مجتمعاتنا الإسلامية؛ ولهذا يتوجب التوقف عندها وكشف النقاب عنها.

المؤلف

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
• الإزدواجية	١٩
• الفوضى	٢٥
• التمويه	٣٣
• الشطارة	٤١
• الاختلاف	٤٩
• العنف	٦٧
• الإنفتاح	٧٥
• الشخصية	٨٣
• الخطاب	٨٩
• التنفير	١٠٧
• الإتكالية	١١٩
• التملك	١٣٣
• الدعة	١٤١
• السلبية	١٤٧
• التدبر	١٥٥
• الجمود	١٦٣
• السطحية	١٧٣
• الحدية	١٨١

الموضوع	رقم الصفحة
• الترقية	١٩٣
• الخوف	٢٠١
• الشكلائية	٢٠٧
• الحرية	٢١٩
• ثنائية الحق والواجب	٢٣١
• ردة الفعل	٢٣٧
• الماضوية	٢٤٣
• الواقعية	٢٥٩
• صناعة الكلام الكبير	٢٦٧
• اختلال الأولويات	٢٧٥
• المعيارية	٢٨٥
• الانضباطية	٢٩٩
• النقد	٣٠٥
• التلميع	٣١٣
• التبرير	٣٢١
• القفز	٣٢٩
• التعصب	٣٣٩
• الخاتمة	٣٥١

الازدواجية



قال لي: عشتُ في ألمانيا أكثر سنين حياتي وهناك فهمتُ الإسلام...! هذا الكلامُ نسمعه كثيراً، أن من يدخلُ الإسلامَ من الأجانب يلتزمُ به أكثرَ من مسلمين ولدوا على الإسلام...!

قال لي آخر: إن عربياً يعيشُ في سويسرا هو أصدقُ لساناً، وأكثرُ ثقةً عندي من مواطنيه الذين يعيشون في موطنه الأصلي...! قال لي ثالث وهو صاحبُ محل: إن ٩٠ بالمئة من المسلمين إن قالوا لي سرجع لاحقاً لا يرجعون...! فلمْ ذلك؟! لماذا هذه الازدواجية بين الانتماء للإسلام وبين تضييع أبسط مفاهيمه التي تكوّن النسق الإنساني الأخلاقي والنفسي وتبني العلاقات الاجتماعية المترنة، وتنظّم شؤون الإنسان في الحياة وفق قيم نفيسة؟!!

وتأمل إن قال لك إنسانٌ مسلم: سأفعل ذلك غداً، فإنه في أغلب الحالات لا يفعلها...! وإنه يضمنُ في نفسه وهو يقول: «إن شاء الله» عدم القيام بالفعل وليس التوفيق من الله في أكثره، حتى إنه أثر بهذه الثقافة التسويفية التي تقوّم على العجز والتواكل في الآخرين الذي يعملون في موطنه...! كتب لي نائب رئيس إحدى الجامعات أن الأوروبيين الموجودين في الجامعة تأثروا بـ«ثقافة بُكره» فأصبح شأنهم شأن الذين يسوّفون في العمل ويؤخرونه بكلمة «بكر»..!

إن جئنا لنسبر الأغوار، ونتقصّى الأسباب لوجدنا أن خلافاً في التأسيس -تربيةً وتعليماً- هو السبب؛ فالابن ولد على الإسلام فانتسب له دون أن يُعصّد بأساس صلب من المفاهيم الأساسية للدين الخفيف، فأصبح عرضةً للأهواء، وهدفاً للإغواء...! فالأساسُ لدينا كمسلمين هو كتاب

الله مصدرُ التربية والتعليم. على سبيل المثال يقول صاحب كتاب «مجموع البيان»^١: «من المعروف أن أول ما يبدأ به العمانيون تعليمهم يكون بدايةً بنظام الكتاتيب، حيث يتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ الدين، ويقرؤون في هذه المرحلة القرآن ويحفظون منه وذلك على يد معلم القرآن».

لقد انتشرت الازدواجية، والكيل بمكيالين؛ فمن يصيحُ بفساد قد تجده يمارسه بطريقة أخرى، ومن يتذمر من معاملة شخص لا يعاملُ الناسَ باحترام، ومن يدعو إلى فضيلة لا يكون قدوةً فيها. يقول الشيخ حسن فرحان المالكي: «الازدواجية عامة في المسلمين؛ على جميع المستويات - الفكرية والسياسية - فمن ينكر منكرًا هنا تجده يشرعنه هناك!»، سألتني موظفة بأحد القطاعات بقولها: إن مديري يوصيني بعدم الصدق دائماً، بل بالكذب حيناً وبالصدق حيناً آخر، فهل يجوز ذلك؟ قلتُ لها: إن الصدق ليس سلعةً إنما مبدأ، وهذا يعتمدُ عليك إن كنت تؤمنين به كمبدأ أساس لشخصيتك فحينها لا يجوز تفعيله تارةً، وتعطيله تارةً أخرى.

الازدواجية داءٌ ممقوت يقول فيه الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾^٢ وما أكثر من يتأرجحون بين كلام الليل وكلام النهار! وليست الازدواجية ناجمة عن خوفٍ دائم أو تملقٍ واهم، إنما هي عدمُ اتزانٍ نفسي، وعدم تقدير ذاتي للنفس ووضعها موضعها الذي يليقُ بها، فلا بأس أن تتأرجح بين الصلاة وراء عليٍّ، والأكل في صحن معاوية...! ولا بأس أن يلقي القصائد في الطغاة والجبابرة ثم يقضي الليل في شتمهم ولعنهم، ولا بأس

١ الشيخ مبارك بن سعيد الشكيلي الغافري، وزارة التراث والثقافة، ط ١، ٢٠١٣م.

٢ سورة الصف.

أن يتملّق مسؤولاً ويتزلف ثم يسلخ جلدّه وشرفه وعرضه في زاويةٍ أُخرى، ولا بأس أن يصدّحَ بنود القانون، ومواد النظام ويخالفها من جوانب أُخرى، ولا بأس أن ينتقدَ وزيراً ثم يفعل ما هو أقبح حين يصبحُ في المنصب ذاته!

المشكلة الأساسية أن لا مبادئ رصينة بُنيت عليها الشخصية المصابة بالازدواجية وهذا النموذج منتشرٌ بصورةٍ واسعة، ولهذا أُصيّبت الأمة بالأزمات والمحن لأنّ لغة الاجتماعات والقيم والعرائض والبيانات شيء والأفعال فيما يلي شيء آخر...! وحين سنتذكرُ القيم، فإنني أستحضرُ كلاماً أعجبني للسيد محمد الحسيني وردَ في كتابه «فقه المستقبل» يقولُ فيه: «القيم هي التي تسمو بالإنسان فوق الواقع، وتجعله متطلعاً، واعياً، مدركاً لمهام مستقبله؛ فالقيم تخرج الإنسان من أفقه الشخصي المحدود، بل تخرجه من نصفية نظره المحلية والموضعية وشبهها إلى إطلاقية نظره الإنسانية، لتشمل العالم الذي يعيش فيه». ويضيف: «إن السياسة واقع، ولكنها عندما تتمزج بالأخلاق تصبح أفقاً واسعاً لا ينحصر في المصالح الضيقة، والأنانيات ولا بردود الأفعال الآنية، كما هي اليوم بعض السياسات الدولية التي تتعلق بالواقع فقط دون الأخذ بالقيم».

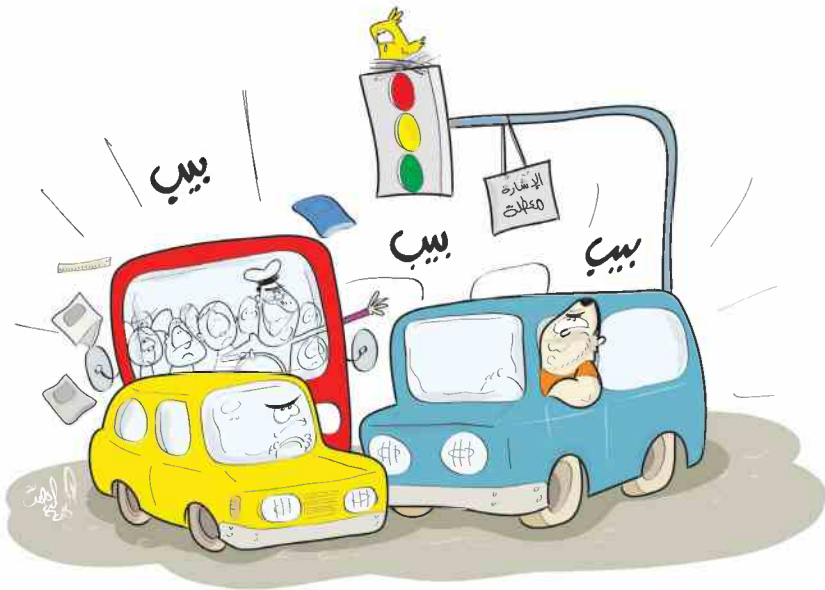
قس على هذا الكلام الكثير من المعاملات الاجتماعية والإدارية، والنواحي الفكرية والاقتصادية... وغيرها لتصل إلى اكتشاف أنه لا يمكنُ بناء شخصية إنسانية سوّية دون قيم سامية مطلقة، لها غاياتها العليا ومراميها الفضلى، فكيف بك وأنت تبني شخصيةً مسلمةً أنزل الله لها منهجها القويم المنضود القيم، المتكامل العناصر؟!!

إن المتأمل لفترتي الدعوة المحمدية الشريفه في مكة والمدينة، ليجد أنهما تميزتا بأمرين مهمين: الفترة الأولى فترة عقيدة، والفترة الثانية فترة تشريعية، فإن أسقطنا ذلك على نظام حياتنا وجدنا وجوب التكريس للعقيدة أولاً قبل تطبيق التشريع، فلا يمكنك إلزام أجنبية تود اعتناق الإسلام بارتداء الحجاب قبل أن يسكن الإيمان قلبها. ولا يمكنك تطبيق القانون على مواطنين قبل أن تترسخ فيهم قيم المواطنة بنيل حقوقهم الأساسية. ولا يمكنك إلزام فتى بالصلاة دون أن يعرف ماهية الصلاة!! ولا يمكنك أن تدعو إنساناً للدين دون أن يعرف من هو خالق الكون.

لا يمكن أن تُبنى شخصية المسلم على مجرد معلومات سطحية عن أسس وقيم دينه؛ فالشخصية الإنسانية تحتاج إلى ترسيخ قيمي وفق برامج ممنهجة لا يكون هدفها ممارسة الإخضاع والإذعان، وإنما الإقناع والبرهان. الشخصية المسلمة تحتاج إلى تقويم منذ الصغر على أدبيات تقويم اعوجاج النفس والفكر بمكارم الخلال، وهذه هي رسالة الإسلام التي جاءت على لسان نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».



الفوضى



قال لي معلّم عربيّ منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً بعد أدائه مناسك الحجّ وهو يشعرُ بامتعاضٍ وتذمّر: والله لو أنك رأيت أحوال المسلمين في الحجّ لفقدت أملك في أن تقوم قائمةً للمسلمين في يوم من الأيام!

كان يقصدُ الفوضى التي تعريضهم، وعدم التنظيم الذي يسودهم، والضوضاء التي تصاحبهم، والهرج الذي يلزمهم، وها هي الصور ذاتها تتغيّر لكن شكلها العام ظلّ ثابتاً..! ولا يفهم من هذا مكان العبادة فحسب، بل القصدُ كافة شؤون الحياة في مناح كثيرة، ومواطن متعدّدة.

وها أنا أستحضرُ العبارة دون استذكارٍ مجهّد ودون بالغ مشقّة وأنا أرى حال بعض المسلمين الذين لا يدركون المغازي الروحانية للعبادة، وقد يكونون معذورين في ذلك إذا ما أرجعنا الأمر إلى أصول التنشئة من تربية وتعليم وتهذيب وتفقيه في الدين، لكن أمر الفوضى ليس محصوراً في أماكن العبادة فحسب، بل في الكثير من شؤون الحياة؛ الفوضى الماديّة والمعنوية!

والفوضى التي تعمّ لها أوجهٌ مختلفةٌ أخطرها الفوضى التي تسود القلب كما يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي: «من الخطأ الكبير أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك». فليست الفوضى الخارجية إلا انعكاس لفوضى الداخل من عدم انضباط في المشاعر والانفعالات، وضبابية في الرؤية، وعدم وضوح الأهداف، واللا يقين في المبادئ والقيم والتوجهات.

إن الدّينَ اهتمَّ بدرجة الصّوت عند الكلام فقال سبحانه مهذباً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ»
الحجرات : ٢، فالصوت إن ارتفع أصبح مؤذياً، نشازاً لا يحسن
الاستماع إليه، كما أن من تحضر الإنسان خفض الصوت عند الكلام
إلا طلباً للحق. أما الأصوات النشاز فهي التي لا يطيب لها حديث إلا
بالصراخ، ولا ضحك إلا بالقهقهات، ولا حوار إلا بالصخب، ولا جدال
إلا بالجلبة، ولا معاملة إلا بالضجيج.

والإسلام اهتم بالنظام الاجتماعي المبني على الدقة في شؤون الحياة،
والتهذيب في القول والفعل واللباس والمظهر، أما أن تسمع من المسلم
هرجاءً، وترى له مرجاً فقد أساء الظهور المشرف، لأن المظهر الحسن لا
بد أن يقتن بجوهر حسن، لا أن ترى التدافع للصلاة، والتزاحم على
العبادة مظهراً من مظاهر الدين، والففز فوق الرقاب، ودهس الأجساد،
علامة من علامات طلب الأجر والثواب..! تقول إحدى المعتمرات: «ما
إن فتح الطريق إلى قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام حتى تسابقت
الحشود، فأصبحت كالموج المتلاطم، وكذت أن أختنق فتلوث الشهادة
من هول ما شهدت من كربة..!» قد لا يتقصّد الناس الإيذاء، لأن الموقف
يفرض عليهم إحداث بلبلة وفوضى، ولكن الاستشعار بروحانية العبادات
لا يتحقق في مثل هذه المواقف المربكة التي يفكر فيها المرء بإنقاذ نفسه..!
يجاهد في شدتها كي يتنفّس، داعياً الله أن يُخرجه حياً من تلك الجموع
المتدافعة..! وهكذا هو التدافع نحو الحجر الأسود للمسح وتقيله..!
الأجواء الروحانية تحتاج إلى وعي عميق بحكمة التشريع، وسداد العقيدة
قبل أن تؤدي العبادات فتصبح خاوية من المفاهيم الروحانية العميقة، حينها

لا يخالُجُ المرءُ أي شعورٍ بالاستغراب من جرّاءِ فوضويته، بل يراها واجبة حتى وإن كان يدفع بجسده طفلاً ضعيفاً، أو يكتسح شيخاً هزلياً!

والإسلامُ اهتمَّ بحسنِ الهيئة، وأناقة المظهر، فقال صلى الله عليه وسلم : «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ، قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ ، وَغَمَطُ النَّاسِ» حديثٌ صحيح. لكن تجد من المسلمين من لا يولون اهتماماً بحسنِ المظهر، وأناقة الهنءام، وهذه من مقتضياتِ الظهورِ الحسنِ للمسلم، بل وعلامة الاقتداء به، يقول محمد راتب النابلسي: «الله عز وجل يحب الجمال في الأقوال والأفعال، واللباس والهيئة، ويبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة» ويضيف: «والله نحن ببلاد شهد الله بشرق آسيا النظافة هناك شيء لا يصدق، الأناقة، لا تجد سَنَتِمْتَراً خطأً بالبلاد كلها، كله عشب أخضر، ورود، حدائق، فإذا كنت كما كان عليه الصلاة والسلام فأنت مسلم، دعيت إلى عقد قران، يكون عندك ثياب جميلة، لا أقول : غالية.. أبداً، لكن يجب أن يكون لك ثياب خاصة بالحفلات تمثل الدين، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يُوْتَيْنَ من قبلك».

فلماذا يهولك في بلاد الإسلام القمامات المتراكمة في الحارات والشوارع، ويورك عدم التنظيم في الأبنية والشوارع، وتزعجك فوضوية الإجراءات المتبعة في مختلف الشؤون التي تمس حياة البشر؟! أليس الإسلام هو دينُ التنظيم، والنظافة، والإحكام والإجادة؟! أين عقولُ المسلمين من هذه القيم الإسلامية؟!

إن النظافة في الإسلام ركنٌ أساسي في الطهارة، فلا تصح صلاةٌ دون وضوء؛ أي دون نظافة، ولا يمكن قبول أيّ تعبّد على نجاسة، وقد قرنت النظافة الجسدية بالنظافة الوجدانية، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء»^٣. لهذا فإن عدم اعتناء المسلم بنظافته الجسدية أو نظافة ثيابه يسبّب النفور منه في نفوس الآخرين، ولا يتقبله أهله، فأئى خير في عبادة لا تورث نظافةً حسيةً ومعنوية، وأئى إحسان في مسلم لا يعتني بنظافته الشخصية وهو يزعم التدين، والالتزام بأخلاقيات الدين الرفيعة؟!!

لا شك أن المسلم المذهب لفظاً، الراقي سلوكاً، المتأنق هنداماً، الجميل هيئةً، الزكي رائحةً، هو الأقرب إلى صورة المسلم، ليس ذلك الأشعث الشعر، المهلل الثياب، المتن الرائحة، الصاحب الصوت، الفوضوي السلوك؛ فالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام حين شبه الأصدقاء ذهب تشبيهه للصديق الحسن كحامل المسك، وحين ذكر ما يحب ذكر الطيب، والنساء، والصلاة.. وقد أثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يحمل معه في السفر: المرأة، والمكحلة، والمسواك، والمقراض (المقص)، والمشط، وقارورة الطيب، وإبرة وخيوط، فكان ينظر في المرأة، ويتمشط، فيقول لأصحابه: «إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأ لهم ويتجمل»، ويقول: «من كان له شعر فليكرمه» صحيح الجامع.

هناك من المسلمين من يدخل على زوجته وهو كريه الرائحة، نتن الجسد،

٣ صحيح مسلم.

في مقابل ذلك يريد لها أن تفوحَ عطراً، وتزدان زينةً، فأُتيَ منطقُ أعوج هذا؟! يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تصنعوا لنسائكم، فإنهن حبين منكم ما تحبونه منهن»، ويقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أحب أن أزين لزوجتي كما أحب أن تزين لي.

هذه مظاهرٌ حسيةً جماليةً بديهية حثَّ عليها الإسلام، لا يمكن أن تعكس إلاَّ جناناً زكياً، ونفسية طاهرة، أمّا طول التخشّع في المساجد مع عدم اعتناء بالجسد وفوضاوية عارمة في الحياة فليس ذلك من منهج الإسلام في شيء...! إذ لا يمكن أن يكون هذا الدين الراقي في كل شيء معواناً على الفوضى العارمة التي تحدث في أماكن مقدّسة، أو الهرج والمرج في الأسواق، أو الشوارع أو الحياة العامة، وليس حال الكثير من المسلمين الذين تخلّوا عن النظام والترتيب، والأناقة والتهذيب، ليحسّب من الإسلام وهو بدعة منهم ظناً منهم أن المسلم لا يعنيه تجملُه، ولا حسنَ هندامه، ولا طريقة كلامه، أي لا يعتني بالظاهر بل بالجوهر، وهل حسنُ المظهر إلاَّ دليلٌ في حقيقته على حسن الجوهر؟!!

المسلمُ مرآةُ دينه، فإن القوّة لا تعني السلطة والنفوذ والجبروت والبطش، بل تعني أيضاً الانسجام في الأفكار، والوضوح في المبادئ، والتأدب في الحديث، والأناقة في اللباس، والجادبية في المظهر، وكلّ ما يُرى في الإنسان المسلم من آداب ومظاهر يعكس في غاليته - إلاَّ القليل - فهمه أو جهله بأصول الدين وحكمة التشريع في منهاجه الحكيم.



التمويه



جلستُ إلى جانب رجل في إحدى المضاييف، فسمعتُ منه حكاياتٍ عن عَلمٍ معينٍ لا يصدّقها ذو عقل؛ فقد بَلَغَتْ من التهويل والشططِ في تلك الشخصية ما لم تبلغه شخصيةٌ إنسانية غيرها لا في الأنبياء ولا من دونهم...! حتى بدت لي تلك الشخصية على مقامها الديني والتاريخي أسطورة من الأساطير الإغريقية لما حيكَ حولها من هالاتٍ تفخيمٍ ومغالة!

يجتمعُ علماء المسلمين لتقريب المذاهب، وهذا أمرٌ حميدٌ تحتاجُ إليه الأمة، لكنني أتمنى أن تكون لدى العلماء الجرأة للدعوة إلى تنقية المذاهب مما يعلقُ بها مما يتجنّى على الدين، بل ويشوّه سمعته، ويحرّف أصوله وقواعده...!

أقولُ تنقية المذاهب من التراث الزاخر بما لا يتواءم مع أصول العقيدة، وحكمة التشريع، وروح الإسلام لأنه تراث ضيّع أوقات الأمة فيما لا ينفعها في مستقبل العصر الحديث؛ عصر العلم والابتكارات والاختراعات والمنافسات المحتدمة. في الوقت الذي تكرّس فيه الحكايات الخيالية في ذهنية بعض أتباع المذاهب من أجل تكريس التبعية المذهبية، بعيداً عن تحرير العقل من أقاصيص لا تعينه على التفكير المستقبلي، ولا تدفعه قدماً ليصنع غداً مشرقاً لأنه مكبل بالقيود الماضوية الثقيلة...!

تنقية المذاهب من الفتاوى الغريبة التي هي أبعدُ عن الاجتهاد الصادق وأقربُ إلى طلب الشهرة لغرابتها؛ لأن العقل لا يُعملُ فيها، ولا يتم تدبرها ولا إثارة النقاش حولها من قبل المختصين في علوم أصول الفقه ذوي العقلية غير المنغلقة على الموروث، وغير المتعصبة لغير كتاب الله والسنة القطعية لرسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

هذه الفتاوى لم تمت في بطون الكتب بموت أصحابها وإنما أضحت مناهج تحريف للإسلام، وتشويه لروحه السمحة؛ لأنها تخرج من شاءت من الإسلام، وتمجد من شاءت، تلعن ذاك، وتكيل الشاء لذلك..! ثم تزعم أنها تعيد الإسلام إلى جادة الصواب، وإلى وجهة المحراب، بقطع الأوداج، وجزّ الرقاب..! فتاوى فرّخت جيلاً عنيماً يمارس السادية باسم الإسلام، يحرق البشر ويقطع أعناقهم بكلمة «الله أكبر»!

يقول الإمام ابن القيم رحمة الله عليه في «إعلام الموقعين»^٤ عن فصل في تغيير الفتوى واختلافها بحسب الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد: «هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة ما لا سبيل إليه، يُعلم أن الشريعة الباهرة التي هي في أعلى مراتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث ليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل»^٥.

تنقية المذاهب من المباحكات التاريخية، والسجالات المتوارثة التي لا حلّ فيها سوى أن يقود صوت العقل، وتسمو روح الدين، وتعلو كلمة الله.. فما ذنب أرواح تباد، وأجيال تقنى لتاريخ ولّى ورجال قضاوا لله أمرهم، ويده مألهم، يحكم فيهم ما يشاء، ويحاسبهم على ما أراد؟! ما ذنب الأمة كي تبتلع الطعم، فيصدح صغارها بالأحقاد، ويصرّح كبارها بالعداوات؟!

٤ جزء ٣، ص ٣٣٧.

٥ القاضي أحمد عبد الله المصطفى، السراج الإلكتروني <http://essirage.net>

أولم يكن أجدى بالعلماء أن يحرروا عقول الناشئة من التراث الثقيل الذي يثقل الكواهل، ويحوز الشواغل مما ليس فيه من جدوى؟!!

تنقية المذاهب مما ألحق بها من تحريض للعنف، وحث على الفتنة، واستحثاث على الفرقة، ومخالفة للاجتماع والوحدة، وتمويه للعقلية، وإخضاع للنفس لطائفة أو لفئة، أو لجماعة، أو لحركة.

تنقيتها من الأحاديث المفتراة المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم لتخدم أهواء قوم ابتدعوها، وأرادوا بها تغليب البرهان بالبهتان، منها ما وردني منذ سنوات عن حديث مكذوب عن وصايا النبي الأكرم لابنته فاطمة، وفيه من الأضاليل ما يجعل مصير المرأة معقوداً بسخط أو رضا الرجل عنها، لأن من ابتدعها مرضى القلوب..! وليس ببعيد أن تبتدع في مجتمعات ينتصر فيها الذكور لسلطتها لا منهج الدين، هذه المجتمعات «كثيراً ما نظرت إلى المرأة على أنها دون الرجل قدراً وعقلاً ومكانة، وأن الرجل أفضل منها، فهي خلقت لمتعته وخدمته وطاعته، ولا بد من تقويمها وتأديبها، والضرب على يديها، وإلا فسدت وأفسدت»^٦ وفي التراث الفقهي ما فيه من مثل هذا، فقد أورد ابن قدامة في كتابه «المغني» مقولة للإمام الزهري: «لا يقتل الرجل في امرأته لأنه ملكها بعقد النكاح»، ونقرأ لابن علي الجوزي في «أحكام النساء»: «وينبغي للمرأة أن تعرف أنها كالمملوك للزوج.. وينبغي لها الصبر على أذاها كما يصبر المملوك»^٧، أم في عوالم الغرب يفرّقها تاريخ دموي، وتمزّقها عداوات أفرزت حروباً عالمية كبرى، تغلبت على

٦ من ورقة ألقتها الدكتورة سهيلة زين العابدين في ورقتها التي ألقتها في مؤتمر اتحاد العلماء المسلمين، الشرق الأوسط، مقال بعنوان: الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يوصي بتنقية التراث الفقهي من خطابات «هضم حقوق المرأة»، الجمعة ٢٦ رمضان ١٤٣٢ هـ الموافق ٢٦ أغسطس ٢٠١١، العدد ١١٩٥٩. المصدر أعلاه.

غلوائها وضغائنها فتوحّدت اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، فأصبحت قوة لا يرام لها، ولا ينال منها، في حين أن الأمة الإسلامية ذات الدين المشترك، والتاريخ المشترك لم تستجب لأمر ربها لها: «واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرّقوا» (آل عمران: ١٠٣)، ونصحه سبحانه للمسلمين: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» (الأنفال: ٤٦) وهذا كان حالها: يقتل فيها الأخ أخاه، ويأخذ هذا ابن عمّه بجريرة غيره، ويغلظ هذا المنتمي إلى المذهب الفلاني العداوة للمنتمي للمذهب الآخر، وقد نسي الاثنان أن ما يجمعهما كلمة التوحيد، والقبلة، والأركان، والتحية!

نسوه لأن القلوب موعرةٌ بالحقد، ومملوءةٌ بالبغضاء، ومشحونةٌ بالخصومة ومن من؟ من بعض من يتسمون بالعلماء الذين يحسبون أنهم أهل التصويب وهم في الحقيقة دعاة الفتنة، دعاة الغرفة والانتقام والشقاق...! ومع ذلك تجدهم في مؤتمر التسامح الديني والتقارب المذهبي يتصدرون المنابر...! بينما الضحايا من الشباب في ميادين القتال يقتل بعضهم بعضاً، يناصر هذا ذاك، ثم ما يلبث أن ينقلب عليه فيصبح حبيب الأمس عدو اليوم، حتى من راجع نفسه في أوساط هذه الفئات المنحرفة عن الدين وكان لها مرشداً ودليلاً حاصروه، وزعموا أنه يخون الله ورسوله!

إن الإشكالية العميقة هنا تقع في أن بعض كتب التراث تشكّل مرجعيات لبعض الجماعات فتستقي منها فكرها؛ لأن النظرة العامة نحو التراث الفقهي هي نظرة التسليم بالصحة والمصداقية في الغالب وليس التمهيص والتدقيق والتنقيح. هذا الأمر يستدعي وجود فئة مستنيرة في كل مذهب، ذات عقليات منفتحة، لا تقع تحت سلطة التراث ولا تخضع للمسلمات

لتنقح هذا التراث مما لا يشاكل صحيح الدين، ونقاء العقيدة، وحكمة التشريع. لقد أوقعت بعض الدول نفسها في فخاخ الجماعات التي أنشأتها فأصبحت هي نفسها في مرماها: أعلمه الرماية كل يوم .. فلما اشتد ساعده رماني

إن تنقية المذاهب من قبل متخصصين، مستيري الفكر، منفتحي النظرات، همهم جمع الأمة على ما يشد من أزرها، ويوحد كلمتها، ويوثق رباطها، فإن لم تعتمد القيادات السياسية إلى تسييس الدين وجعله أداة سياسية، وليس منهج حياة ربانياً يصلح كيان المجتمع، تشوّه الدين، وضعف في النفوس، فصار يحبل بالأضاليل، ويحفل بالتخرّصات بحسب ما تمليه المصالح الفئوية أو الطائفية أو الجهوية لا بحسب ما أمر الله به ونهى عنه. حينها تدفع الأمة بأكملها ثمناً باهظاً جراء تشويه الدين وتمويه أتباعه!



الشطارة



استقبلنا بوجه متكلف البشاشة، متصّع الورع، ليسألنا وقد نزلنا للتو لأداء العمرة في أظهر بلاد الله، يسألنا بابتسامة صفراء: تاكسي؟ قلنا له: نعم.. فجرنا وراءه مسافة بعيدة تخطينا فيها مواقف سيارات الأجرة، حتى أوصلنا لسيارة متسخة، متقاضضة الزجاج، يرثى حالها، ركبنا فيها على مضض، فانطلق بنا مقلّباً مسبّحته بين آونة وأخرى ومردداً كل حين أزكى عبارة تتعطر بها شفاه إنسان «لا إله إلا الله»، يا لعظمة كلمة التوحيد التي طهرت الأرض من الأرجاس والقلوب من الأدناس، والعقول من السخافات، لترتقي بها طاهرة، زكية.

وصلنا الفندق فإذا به يطلب خمسة أضعاف السعر مستغلاً جهلنا بالتكلفة الحقيقية، خالعاً كل الأقنعة التي تزيّا بها منذ دقائق، وتلك التأوهات الروحية، أعدت شريط الدور التمثيلي الذي قام به هذا الرجل في ذهني فوجدته يطابق صوراً كثيراً صنّفها الضمير كدروسٍ يجب الحذر منها!

يصعبُ على المرء أن يقول: إنك ما إن تنزل في بلاد مسلمة حتى يرفع قلبك لأنك تتوخى النصب والاحتيال، فما إن تخطو خطواتك الأولى في المطار العربي حتى يتقدّم إليك أحدهم بوجه باشٍّ، يعاملُك بدمائه، ويخضعُ لك الجناح تواضعاً لخدمتك، لـ «يضبطُ لك الدنيا» فماذا تريد بعد «تضييطة الدنيا» لك؟! لكنك سرعان ما ستكتشف أنه وبدلاً من «تضييطة الدنيا» لك «يضبطُك» أنت بكاملك..! وذلك بالاحتيال والنصب والغش والابتزاز.. فتلتقى أول صفقة لك في دار المسلمين الآمنة التي تنتمي إليها خاصة بعد أن قرأت الآية الكريمة المعلقة «ادخلوها بسلام آمين» فأدخلت السكينة إلى قلبك وليس السكينة..! قال لي أحد الأصدقاء: ما كدنا ندخلُ

حدود دولة عربية حتى خرجنا منها على الفور، سألته: لماذا؟ أجاب: تم الاحتيال والنصب علينا على الفور! قلت: له واجب الضيافة!

أصبحنا - وهذا الكلام ثقيلٌ على النفس أيضاً- نطأ ديارَ الغرب فنشعرَ بأمان أكثر من ديارِ مسلمين نتوسّم فيهم الصدق والأمانة وحسن المعاملة ومراعاة حق الأخوة في الإسلام وغير ذلك مما يحضُّ عليه الدين، لكننا لا نأمن على أنفسنا من أولئك المتربصين المقنّعين الذين يتمظهرون بحسن التعامل، ولطف الجانب، ويحسنون التلفظ بالعبارات الترحيبية، وترديد الآيات والأحاديث، وكيل الثناء والمديح، حتى قضاء مصالحهم، حينها يكشفون عن أنيابهم، ويلقون ضحاياهم على قارعة الطريق، بعد أن يذيقوهم الويلات من السبِّ واللعن.

كم تعرّضنا وتعرض غيرنا للنصب والسلب والسرقة والاحتيال من «إخوتهم» المسلمين الذين لم يتورعوا عن استخدام شتى السبل للإيقاع بفرائسهم بغية تحقيق الربح المادي المزيف دون أدنى تأنيب من ضمير، ولا وازع من إيمان..! وفي المقابل فإننا لم نتعرض ولم نسمع عن وقوع نصب واحتيال في الغرب لأن الثقة والصدق والأمانة تسودُ هناك حيث كان يجبُ أن تسودَ في بلاد الإسلام وتكرس في معاملات بني الإسلام..! تشتري سيارةً مستعملةً من معرض عربي فلا يضمنها لك، وتشتريها من معرض أوروبي فيضمنها لك ستة أشهر..! ولو أن الأول كان صادقاً، واثقاً لمنحك الضمان..! يأتينا قائل فيقول: لكن الغرب يمارسُ النفاق والإزدواجية والتدليس، فنقول له نعم ولكن ذلك على صعيد مصالح الدول التي تراعيها، وعلى مستوى السياسة التي تمارسها، إنّما نتحدث نحن عن المجتمعات والشعوب.

يروى صحفي غربي يعمل في «ناشيونال جيوغرافيك» أنه زار بلاداً عربيةً لإنتاج فيلم وثائقي، وصادف شاباً عرض عليه الخدمة دون مقابل، فاستغرب الغربي من كرم العربي، ولكنه تذكر أن الكرم والمروءة من عادات العرب، فلما انتهى العمل إذا بالشاب العربي يطالبه بأجرته، فصدّم الغربي من هذه المفارقة الغريبة إذ طلب منه مبلغاً لم يكن محسوباً ولا متوفراً، حتى تدخل شيخ القبيلة الذي هو والد الشاب فحسم الأمر بدفع مبلغ أقل مما طلب الشاب، لكنّه في غير حسابان الأجني المصدوم الذي حسب كلمة الشاب العربي صادقة، لا مراوغة فيها، فذهب ليكتب افتتاحية في مجلّة «ناشيونال جيوغرافيك»!

وللأسف، فإن المسلم قد أضاع الثقة بالمسلم دون تعميم، حتى إن بعضهم أصبح يتحاشى التعامل مع «أخيه» المسلم خوفاً من الابتزاز والتحايل، وما كان الحال ليصل إلى فقدان الثقة لو أن هؤلاء المسلمين راعوا الأمانة ووضوا الحدّ الفاصل الذي رسمه النبي صلى عليه وسلم نصب أعينهم حين قال: من غشنا فليس منا..! وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ بَاعَ عَيْباً لَمْ يَبَيِّنْهُ لَمْ يَزَلْ فِي مَقْتِ اللَّهِ وَلَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَلْعَنُهُ»^٨، وما أكثر البضائع التي تباع في البلاد العربية وهي مليئة بالعيوب ثم لا تردّ، بينما يستغل بعض المسلمين ميزة قبول استرداد البضاعة في الغرب إلى نحو ثلاث سنوات فيعيدها بحجة عيب فيها أحدثه بنفسه ليتسلم بضاعة جديدة يعود بها غانماً إلى وطنه من «ديار الكفر»!

٨ رواه ابن ماجه : عن واثلة بن الأسقع.

يقول الشيخ محمد راتب النابلسي في معنى الحديث الشريف: «معنى هذا أن الدين شيء كبير، الدين منهج قويم، الدين يدور معك أينما ذهبت، الدين ليس في المسجد، الدين في التعامل اليومي، أظهر مظهراً له في حرفتك، هناك مظهر صارخ للدين، هناك مظهر حقيقي، المظهر الصارخ تصلي في المسجد، أما مظهره الحقيقي وأنت في دكانك، وأنت في التعامل اليومي، ودائماً الإنسان يمتحنه الله عز وجل بإنسان جاهل.. الباعة من أين يؤخذون؟! يأتي زبون جاهل يمكن أن تبيعه أسوأ بضاعة بأعلى سعر، ما الذي يمنعك من ذلك؟! خوفك من الله عز وجل، لذلك تنصحه، تقدم له أفضل البضاعة بأحسن سعر، هذا المؤمن، أما حينما يستغل جهل الشاري، ويرفع السعر، ويعطيه أسوأ بضاعة، هذا دخل في الغش».

كم من «إخوتك» في الدين وبني جلدتك من يتصل بك ليسألك: هل سمعت عن الجهاز الفلاني؟! ليمنحك وليمةً لن تنسى طعمها فيما بعد...! وكم من يقابلك في السوق ليقول لك: تعال استلم جائرتك، فتحسب أنك قد أنجزت عملاً يستحق الجائزة الممنوحة، فإذا بالجائزة هي إيقاعك في الفخّ وابتزاز أموالك، والتحايل عليك...! حتى الدين لم يسلم فتجاره كثر بعضهم يؤمون الناس في الصلاة ولهم خطب مؤثرة ثم يبتزون أموال الذين يرتجون الشفاء بآيات الله...! أولئك مسلمون وأنت مسلم ولكنك ضحية كغيرك بالنسبة لهم، فإن لم يراعوا فيك ذمّة فكيف بالغريب؟!!

من المؤسف تفشّي مرض «الشطارة» الذي يعني عند الكثير من يحسبون أنفسهم «شطار» اصطيد الضحايا بالدهاء والخبث، والحيلة والمكيده. يقول د. عبد الحميد سلوم: «ينادي المنادي للصلاة يوم الجمعة بكلمة

(الله أكبر) وهي غير (الله أكبر) التي ترمز لقطع الرؤوس وإطلاق القذائف وتفجير المفخخات والسيارات لقتل عباد الله ممن باتوا يخشون سماعها.. فيذرون البيع ويذهبون للصلاة وما إن يعودوا لعملهم حتى يعودوا للكذب والغش والاحتيال واستغلال عباد الله - وشعارهم (البيع شطارة)، وهذه لا علاقة لها بالأخلاق ولا بالقيم المجتمعية والدينية، ولا علاقة لها بالفحشاء والمنكر الذي يُفترض أن الصلاة تنهي عنه .. الأمر ذاته ينطبق على كل أوجه الحياة في المجتمعات العربية الإسلامية وقد يتجاوزها لبعض المجتمعات الإسلامية الأخرى، سواء ضمن علاقات المجتمع أو مؤسسات الدول؛ فالضمير معدوم في العمل والاختيار والعلاقات والتعامل والتزكية وما شابه ذلك».

مرضُ الابتزاز باسم الشطارة يتفشى في مجتمعاتنا الإسلامية؛ لأن من يمارسه أضعف وجود الله في قلبه، فهانت عليه أوامره ونواهيه، وسهلت عليه سنة نبيه؛ فبحث عن ثغرات في نفسه لا في القانون، أو تستر بالدهاء لينصب ويحتال. هان عليه دينه، ونفسه ولقمة عيش الذين يطعمهم، فلا بركة تكتب له من ابتزازٍ موهوم، ولا رزق يدوم له من نصبٍ مزعوم، وهو فوق ذلك تتكالب عليه الهموم.



الاختلاف



ما إن بدأت المناظرة التليفزيونية بين شخصيتين امتد الحوار بينهما أكثر من حلقة تليفزيونية حتى هُلل المذيع وكَبّر للأمر الذي تلقّاه أثناء بث الحلقة من إدارة القناة بإيقاف الحلقة المباشرة نظراً لرأي أبداه أحد الضيفين في الحلقة السابقة فأرادوا الإيقاع به، فإذا بالمذيع يُعلن عن نجاح الفخّ الذي أوقع فيه الضيف ليكيل له التُّهم والشتائم، ويحتقره ويستصغره ويذمه دون أن يمنحه فرصة الردّ، بل ويوصي كل من يتقي الله بالألاّ يتيح له مجالاً للظهور!!

ولو تدبّر هؤلاء الذين أعلنوا انتصارهم في الأمر لوجدوا أنهم المنهزمون ديناً، وأدباً، وأسلوباً، وفكراً، بغضّ النظر عن الموضوع المطروح للمناظرة والرأي فيه، وأنهم هم الذين خالفوا الله في منهاجهم؛ وذلك في معرض أمره سبحانه لنبيه الكريم: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَدِينَ» (النحل: ١٢٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الحج: ٢٤)، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (الإسراء: ٥٣)، وقول رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»^٩.

قلّما تشاهد أو تستمع لمناظرة بين مسلمين يبحثان فيها عن نقاط الالتقاء، والاتفاق، والأرضيات المشتركة، بل يهرعان إلى النقاط الساخنة التي توغر الصدور بالشحناء، وتحقنها بالبغضاء. تعلو الأصوات، وتهدر، وترغي وتزبد، وكأنما الطرفان يتبارزان في ميدان السيوف والحرايب، أو

٩ رواه ابن الحاكّم في المستدرک علی الصحیحین.

يتقاذفهما الموج في بحر متلاطم الشج وهما يتصارعان! مشاهد تؤلم المسلم الذي يريد أن يُري العالم تحضر المسلم في أسلوبه الراقي، وحديثه المتوازن، وشخصيته الهادئة، وحججه المنصفة التي يأمل منها نصره الحق لا تحقيق نصر شخصي يحمله على قذف الخصم بالشائم واتهامه في نواياه، وتحميل موافقه ما لا تحتمل.

كم تؤلنا هذه المناظرات المحتقنة التي ما إن تبدأ حتى تندلق منها نيران الحقد، والكراهية، والثأر، والانتقام من الآخر، وكأنما الآخر ليس مسلماً يوحد الله، بل حتى وإن كان ليس كذلك فإن لجداله أدباً، ولنقاشه خلقاً، ولحواره إحساناً.

لقد ضرب هؤلاء الذين ادّعوا أنهم أهل الحق والصواب بقول ربهم وهو يضرب لهم المثل في بني إسرائيل لما جاءتهم رسلهم بالبينات والعلم تفرقوا واختلفوا، فنهانا الله تعالى عن سلوك سبيلهم: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٣).

وتحذيره سبحانه لهم من نتائج الشقاق والاختلاف ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦). وتحذير نبيه الكريم من عاقبة الاختلاف البغيض في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^{١٠}.

إن الاختلاف في مجتمعاتنا الإسلامية هو سبب كبير من مسببات الشقاق والفرقة بين المسلمين، وما دعوات الحوار الإسلامية، وتقريب المذاهب

١٠ أخرجه البخاري ومسلم.

إلا بسبب الشحن واللعن الذي يتبادلُه الخصوم...! نسوا الله فأنساهم أنفسهم لأنهم لم ينتصروا لأجل الحق بالحوار الهادئ المعتدل، بل اعتمدوا لغة الحوار المتشجج، وأسلوب التحريض، ولغة إثارة النعرات والعصبية المذهبية والطائفية والعرقية!

إن هذه الحوارات المتشنجة هي التي دفعت أبناء الإسلام إلى التخاصم، والتلاعن، والتقاتل، فهي لم تضع مصلحة الإسلام نصب عينها وإنما وضعت المذهب الفلاني، أو المطمح الفلاني أو العرقية الفلانية وهذا ما أدّى بالنفوس إلى الإعراض عن الحق حتى وإن كانوا يعلمون أنهم على باطل...! إنها عصبية الجاهلية!

وفي هذا المعرض من القول، يوجز الداعية الإسلامي الحبيب علي الجفري أسباب الفرقة والشقاق في الأمة الإسلامية في ثلاثة أسباب^{١١}:

١- الطائفية (سنة وشيعة، مسلمون ومسيحيون.. إلخ).

وجذورها تعود إلى ما أسماه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم «داء الأمم».

قال سيدنا صلى الله عليه وسلم: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الخالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين...». وعلاجها: نشر السلام والمحبة كما في تكملة الحديث: «... والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أ فلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم»^{١٢}.

١١ «الداء والدواء» الحبيب علي الجفري.

١٢ حديث حسن رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى.

٢- العنصرية (عربي وفارسي وكردى وأمازيغي ونوبي، هاشمي وقحطاني، نجدى وحجازي ويماني، بدوي وحضري، أسود وأبيض... إلخ). وجذورها تعود إلى ما أسماه سيدنا صلى الله عليه وسلم «دعوى الجاهلية».

٣- الغنائية أو اللهث خلف الأطماع الدنيوية (المال، السلطة، المغالبة). وجذورها تعود إلى ما أسماه سيدنا صلى الله عليه وسلم «الوَهْن». قال سيدنا صلى الله عليه وسلم: «.. وليقذفن الله فى قلوبكم الوَهْن». فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْن؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت»^{١٣}.

ويوصي الجفري في ختام حديثه بالعلاج القرآني لهذه البلايا المقيتة وذلك بـ«تزكية النفوس».

إنني لأرى أن الحبيب علي الجفري أحد النماذج الإسلامية المشرفة التي حاورت وناظرت بكل موضوعية وحيادية وعقلانية باحثاً في كل حواراته عن نقاط الاتفاق، آسراً محاوره بطريقة حوارهِ الرائعة التي تظهر الخير والجمال والحق فيه لا تتصيد عن أخطاءه، وتعري زلاته، وتفضح معاييه...! يقول الشيخ الجفري في إحدى مناظراته: «إن سعادتي باهتداء (الطرف الآخر) للحق إن كان على خطأ، أحب إلي من الفوز في مناظرته، كما أن سعادته باهتدائه للحق إن كان على خطأ أحب إليه أيضاً».

١٣ حديث صحيح رواه أبوداود.

فما تابعتُ حواراً له مع مسيحي أو ليبرالي أو علماني أو ناشط إلاّ وكان الحوارُ على درجةٍ مثلى من الرقيّ، ودرجةٍ فضلى من الرفعة، وهو في نظري نموذجٌ للداعية الإسلامي الذي يجدر الحذو على خطى فكره، ومنهجه، ونفسيته، وعلمه.

إن للاختلاف آدابه التي لا تنطلقُ من الانتصار للنفس بل لنية اتباع الحق أياً كان مصدره، ومنزله، وكلّما ارتقت الأنفس فوق المصالح الجهوية، واعتلت فوق العصبية والعنصرية والمذهبية، رأت الحق جلياً ناصعاً، أو أنها اتسعت صدرها، وزكت جناناً من أجل أن تصل إلى عوامل الاتفاق الكبرى، وروابط الاعتصام العظمى، وهذا الأمر - أي أدب الاختلاف - يبدأ من البيت الأسري، وينمّي في المدرسة، ويطوّر في المؤسسات المجتمعية.

ثقافة الاختلاف

عرضتُ صورةً مركّبةً على شخص كنتُ أستمعُ لتذمّره من اختلاف آخر معه. الصورةُ مركّبةٌ في الأصل من صورتين؛ امرأةٌ مسنّةٌ وفتاةٌ يافعةٌ..! سألتُه: ما الذي تراه في الصورة فقال على الفور: امرأةٌ مسنّةٌ..! قلتُ: ما ردّك لو قال الآخر إنّه يرى فتاةً شابةً؟! قال: أقولُ له: غبي..!! سكّته عنه ولكنني قبل ختام الجلسة أعدتُ له الصورةَ ثانيةً، وأعدتُ له السؤال: فقال: قلتُ لك إنّي أرى امرأةً كبيرة السن، مليئةً بالتجاعيد. قلتُ: ألا ترى هذه الصفات المنسدلة وهذا الوجه العشريني النضر لفتاة شابة؟ اتسعت حدقاته، وفغر فمه وهو يكتشف ما أصفُ وقد عقدت جبينه الدهشة..! أضفت: هل لا يزال الآخر غيباً؟!

هذه صورةٌ تجسّد الاختلافات في مجتمعاتنا!.. وتعبّر عن الطريقة التي ينظر بها البعض نحو البعض عند إدلاء الآراء. ومن جملة أمورٍ وشؤون يتم تداولها عبر وسائل الإعلام الحديث ووسائل التواصل الاجتماعي أستخلص القول بأن ثقافة الاختلاف تتركز - في الغالب عندنا - على الإقصاء، والتهميش، والاتهام والازدراء، والسخرية!.. حتى أنني أعزف عن المشاركة في إبداء الرأي - إلا نادراً - إذ ما إن يبدي الواحد رأياً في أمرٍ من الأمور حتى يتوقع من يشخص الأمر، ويتعدّ عن الموضوعية في الطرح!.. بل قد يقدح البعض في صاحب الرأي لا في الرأي بحجته!.. فينعطف بالموضوع إلى مجرى آخر بعيداً عن صلبه!

هي إشكالية ترسّخت فينا؛ أعني بها إشكالية فرض الرأي على الآخر، وإقصاء رأيه، والاستهانة بفكره، وتقزيم حجته حتى وإن عرض رأيه في إطار من الأدب الراقي، والخلق المحمود طلباً لمحاورة جادة، أو إضافة نافعة!

لقد أصبح من الصعب تقبّل الآخر للرأي المطروح واحترامه إلا من لدن الإنسان الراقي بفكره، السامي بنفسه. وجدتُ صورَ ذلك في كثيرٍ من المحافل - أكانت ملتقيات أم ورش عمل أم حوارات - حيث ينبري بعض الحضور الذين جاؤوا لكي يسفّهوا ويزدروا الآخر ويتعالوا على طرحه، ولم يأتوا ليضيفوا وجهات نظرٍ أخرى تثري الفكرة المثارة.

الاختلاف سنّة الحياة، وأساس التغيير، وهو منهجٌ لا مناص عنه، يقول الحق سبحانه: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ» (هود: ١١٨-١١٩). ويؤثر عن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز قوله: لا يسرني أن أصحاب محمد لم يختلفوا

لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة. وفيه يقول الشاعر معروف الرصافي:

ولولا اختلاف الجذب والدفع لم تكن.. نجوم بأفلاكٍ لهن جواريا

تموت القوى ان لم تكن في تباين.. ويحين ما دام التباين باقيا

لكن الاختلاف في مجتمعاتنا مدعاة للتفرقة، والقطيعة، بل وسبب للعداء والخصومة..! فإن قلت رأياً في مسألة من مسائل الحياة التي فيها سعة للاحتتمالات فقد تعرض نفسك لاتهام وازدراء، بل قد ينالك ما تنزه نفسك عنه من لفظ لا يليق. وليس بعض من ينسب نفسه لأهل العلم أو الدين بمنأى عن إقصاء الآخر، وشخصنة الرأي، والابتعاد عن الموضوعية، واتهام الآخر، لأنه ينتصر لنصرة أخرى مذهبية كانت أو اجتماعية، أو نفسية..! فقد راقبت بعضهم على ما بلغه من العلم، أو ظهر عليه من التدنّس، أو وصل إليه من الرفاهية والتّمدّن لا يحتمل اختلاف أحد مع رأيه، ولا يطيق رأياً غير رأيه، فإن خولف في رأي فإنه يعتبر ذلك تجاوزاً على شخصه لا على رأيه، وتعدّياً على مكانته لا على فكرته، فأني رقي وصل إليه هذا، وأني مقام؟! يقول الشيخ الغزالي رحمه الله في ذمّ التعصب ولو كان للحق: «إن التعصّب من آفات علماء السوء، فإنهم يُبالغون في التعصّب للحقّ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار؛ فتنبث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوافر بواعثهم على طلب نُصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نُسبوا إليه. ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة، لا في معرض التعصب والتحقير لنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصّب واللعن والتّهم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم».

ويؤثر عن الإمام الشافعيّ مقولةً عظيمة يقول فيها: «رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتملُ الصواب».. وهذه قاعدة الحوار ومناط الاختلاف؛ لأنها لا تنزه الرأي الشخصي عن الخطأ ولا تعترض على احتمالية صواب الرأي الآخر. أمّا في الشائع فإن الاختلاف هو الخلاف بعينه..! لأن التنطع والتعصب هي خصيصة المحاور، كما هي خصيصة المستقبل الذي وإن داخله شيء من الموافقة على الرأي فإن كبرياءه يمنعه من التصريح بذلك. وفي الناس أصنافٌ وأجناس؛ ففيهم متنطعون لرأيهم، لا يرى غيره، فيجلجل بصوته ويقصف ويرعد، وآخر موافق لا يعلن عن مساندته الرأي إلاّ لمأماً على استحياء، ومكابر يعلم صدق الرأي ويجاهر بمعارضته عن صلف وعنجهية..! ولقد تكشف لغة العيون نفاق القلوب التي تصنع المجاملات سلباً أو إيجاب، فلا يقنع الخطاب الصادر عن المتكلم الإنسان الخبير.

* * *

لقد نشأت مجتمعاتنا في ظل ثقافة لم تؤسس قاعدةً متينةً للاختلاف؛ فجميع المؤسسات ابتداءً من الأسرة تصدر الأوامر والنواهي، ولا تقبل الاختلاف في وجهات النظر. المدرسة لا تؤهل طالب العلم ليتعلم طرق الاختلاف مع الآخر، وقبول رأيه، وعدم مصادرة أفكاره، وإقصاء وجهات نظره. وكيف بها تفعل ذلك والمعلم قد نشأ على الأمر والنهي منذ البيئة الأولى فأنتى يكون له أن يسمح بالاختلاف..؟! البعض يلوك جملة «الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية»، لكنّه في الواقع لا يفسد الود فحسب بل ويقطع كل العلائق!

* * *

الاختلافُ رقيٌّ في المدارك، وعلوٌّ في النفوس، وسموٌّ في العزائم إذ لا يضيرُ أي إنسان أن يُختلفَ معه، ولا ينتقص من مكانه ذلك بل إن تقبله للاختلاف دليلٌ على الرفعة، والتواضع، وتقدير النفس، والصدق مع الذات، والواقعية في التعاطي مع الأفكار. يقول الفيلسوف الفرنسي (فولتير): «قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد أن أدفع حياتي ثمناً لحقك في التعبير عن رأيك».. وفي الوقت الذي توثقت فيه الصلة بين القاضي أبو الحسن علي الجرجاني بالصاحب بن عباد كانا على اختلاف الرأي في المتنبي، فلما ألَّف الصاحب بن عباد (رسالته في الكشف عن مساوئ المتنبي) ألَّف الجرجاني كتابه القيم (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

وانظر إلي الرقيَّ في الاختلاف حين تخلص النوايا ويصدق مسعى الفرد للوصول إلى الغايات متجسداً في مقول: الإمام الشافعي رحمه الله: «ما جادلت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفَّق ويُسدَّد ويُعان، وتكون عليه رعاية الله وحفظه.

وما ناظرني فباليتُ...! أظهرت الحجة على لسانه أو لساني»...! فأين نحن من هذا الرقي السامي الذي لا يُلقى بالاً للأشخاص وإنما للفكرة والحجة؟!!

الكثير من الناس في مجتمعاتنا لا يستسيغ الاختلاف، ولا يبرّر له، فإن قال قولاً رغب في سماع الأصوات الموافقة تأتيه من كل حذب وصوب.. أما لو نشز أحد الأصوات برأي مخالف فقد حاد عن القاعدة، وشذ عن العُرف!

إن ما يحدث في أرجاء المجتمعات العربية من خصومات واحتراب وعداء إنما سببه الجهل بالاختلاف..! لقد أحسنت الكثير من الدول الاختلاف فيما بينها؛ لأنها أسست لهذه الثقافة قاعدة رصينة في بيئاتها، فلم تقطع علاقاتها بسبب الاختلاف في جانب من الجوانب، بل غلبت جانب العقل على العاطفة. أمّا المجتمعات العاطفية كمجتمعاتنا ولم تستطع أن تحتل الاختلاف في الرأي.. فإما الموافقة أو القطيعة..! أمّا معي أو ضدي..! لهذا تعلو أصوات المتحاورين، وتتشابك الأيدي وتراكل الأقدام..! لسبب واحد ألا وهو أنهما جهلا الطريق لقبول الاختلاف!

* * *

لقد دفعت ثقافة الإقصاء والازدراء برأي الآخر والتسفيه به البعض إلى الانسحاب، مؤثرين السلامة على الخوض في جدليات تهان فيها كرامتهم، وينال من شخوصهم، فقد كتب لي أحدهم قائلاً:

«إن ما يدعوني لعدم المشاركة في إبداء الرأي بأي طريقة مناسبة هو «قناعتي بأن «المجتمع بكل مكوناته» غير مؤهل لتقبل الرأي والتفاعل معه؛ لذا أحجم عن المشاركة». ويضيف: «قصدت من عدم المشاركة، قناعتي بأن نبقي «متحايين متآلفين» في المجتمع، خير من أن نكون «متكاهين متفرقين» حتى لو كان ذلك على حساب تقدم المجتمع بعض الشيء».

قد يكون الانسحاب في حد ذاته عملية سلبية، لكنه على كل حال نتيجة وضع سائد يقرّر على إثره البعض البقاء وينسحب آخرون بحجة «لا حياة لمن تنادي..» كما كتب لي آخر وهو يؤكد ما ذهبت إليه في هذا الطرح قائلاً:

«للأسف مسألة عدم تقبل الرأي الآخر وتجنب إبداء رأي مخالف، مسألة تعيق التطور وتهدم التقدم وتحبط أصحاب الهمم العالية وترفع من قدر أولئك الذين لا يملكون إلا حب التسلط وحب الأمر والنهي، وهذه سمة مجتمعاتنا في خصوصيتها وعموميتها، في حالتها الاجتماعية والوظيفية منها؛ فنحن للأسف (أو الكثير من هم بيننا) لا نزال ننق بمكانتنا الاجتماعية وثقافتنا الدينية وحضاراتنا التاريخية، وقبائلنا الفلانية؛ فلا نقبل رأي الحكيم، ولا نتفق مع العالم الرزين، وبسبب هذه الجاهلية القديمة التي لا تزال تمشي في عروقنا، ترى الكثير منا لا يتقبل رأياً للآخرين دون رأيه أن المسألة بات بها الكثير من النعرات الجاهلية كالكبرياء وعزة النفس (وإن كان ذو رأي خاطئ) وهكذا.

إنني دائماً أتذكر مقولة إخواننا المصريين - نصرهم الله - «عندما سألوا فرعون ايش فرعنك، قال ما لقيت حد يردي»، مشكلتنا أحياناً هكذا، وإن كنا متيقنين من أن رأي الوزير الفلاني، أو الشيخ الفلاني أو المدير الفلاني.. رأيه خطأً، لا تجد المعارضين له إلا من قل، وهذا أمر ملحوظ جداً في دوائرنا الحكومية والاجتماعية، نصمت أو سيتجاهلنا الجميع.

أعتقد أن النظام الهرمي الذي نتبعه في مؤسساتنا ومدارسنا وللأسف حتى بمستشفياتنا ومجتمعاتنا (وحتى في رياضنا)، هذا النظام الهرمي ال hierarchical أو ما يسمى بال transactional هو من يسمح للكثير ممن هم بيننا بـ«التفرعن» وعدم قبول آراء الآخرين خاصة بالمؤسسات الحكومية.

إن النظام الاجتماعي الرأسي الهرمي (hierarchical) هو نظامٌ يبدأ من

الأسرة التي تعدُّ تجسيدا للنظام الاجتماعي السائد في كافة المؤسسات الاجتماعية، فالأب هو رأس الهرم (السلطة) في البيت ولهذا فهو الأمر والنهي دون نقاش، كما أن الاختلاف مع رأيه يعني التمرد على سلطته، والعصيان لأمره، والخروج على طاعته..! وهذا ينطلي على الرئيس والمعلم ومن شاكلهما!

وبالطبع؛ فإنني لا أستغرب أن يكتب لي أحدهم قائلاً:

«المشكلة تكمن في الكذب.. فالحقيقة لها وجه واحد والكذب له عدة وجوه، وحتى الصورة التي عرضتها فيها كذب فهي ليست صورة حقيقية بل مختلفة، فلا توجد في الحقيقة تلك الصورة بل مجرد تلاعب لهدف ما قد يكون شريفاً تعليمياً وقد يكون سخيفاً مضللاً.

واختلاف الآراء على الحقيقة بين طرفين يقتضي أن يكون أحد الطرفين على حق والآخر ليس عليه، ولا يوجد حقيقة يختلف عليها اثنان؛ والإدعان والتسليم للحق صفة المسلم والإيمان والتصديق صفة المؤمن وصولاً إلى درجة الإحسان التي تستشعر المراقبة المطلقة دون الحاجة إلى وجود دليل مادي مباشر“

أقول لا أستغرب من مثل هذا الكلام لأنه يضرب مثلاً على السائد الثقافي الذي يعتبر أن للحقيقة وجهاً واحداً، ويخلط بين العقل والوحي. حتى لو كانت الحقيقة تحتل وجهين أو وجوهاً (كالصورة مثلاً) فإن ابن هذه الثقافة يعتبرها (كذباً) لأن الحقيقة لها وجه واحد فقط وهو يخلط هنا بين المدرك من شؤون الناس، والمقدس من الإيمان!

ولو أن للحقيقة وجهاً واحداً لجمدت حياة الناس وعفنت...! ولكن نظراً للناس المختلف إلى الأمور، والبحث والإستقصاء عن مواطن القصور والضعف بغية التطوير والإصلاح والنماء هو الذي دفع بالأرض كي تعمّر، وبالبشرية كي تنافس حول مبتكرات العلوم، ووسائل المعيش.

إن هذا النوع من الثقافة القائمة على حقيقة ثابتة وما عداها كذب لأنها لا تقبل الاحتمال كما قال الشافعي: (رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأُ ورأيي غيري خطأٌ يحتملُ الصوابُ)، هذا النوع أشبه بالمرآة التي تعكس وجهه الناظر إليها وحده. وهو نتاج التلقين الذي لا يُناقش ولا يقبلُ الجدل حتى وإن كان مما لا يمسُّ العقيدة في شيء.

ذات مرةً اجترأتُ على القول في محفلٍ من المحافل موجهاً كلامي للحضور وقد كانوا يستشهدون بقولٍ قاله أحد العلماء المؤرخين في موضع من المواضع: لا يجب أن نأخذ كل ما يقوله المؤرخ الفلاني مأخذ القطعية في التوكيد لأنني قد قرأتُ قوله عن نفسه أنه يكتب ما تسعفه به ذاكرته...؟! ويبدو أن كلامي هذا لم يرق لأحد الحضور الذي قال لي معاتباً بأسلوب التأنيب: أنت تتجنى على علمائنا بما تقول. فرددتُ عليه قائلاً: ليس من الصحيح أيضاً منكم وضع العلماء في مصاف الأنبياء المعصومين من الخطأ...! وتاريخنا كما يورد ابن خلدون في مقدمته «تاريخ رواة، لا تاريخ نظر وتدقيق وعلم بأسباب الوقائع يعرض الوقائع على طبائع العمران، فإن سمحت بها، أخذناها وإلا طر حناها».

* * *

الأوامر والنواهي في التربية الدينية

حازمة في النقل:

ويحسب البعض أن منهجية (افعل ولا تجادل)، (تلقى النقد ولا تناقش) إنما مردّها إلى التربية الدينية. صحيح أن الإيمان لا يقوم على العقل فحسب (لقصوره في الاستشراف والإدراك الغيبي) وإنما على الوحي أيضاً «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (الحشر/ ٧) و«أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم».. لكن الاختلاف ليس غائباً عن الدين « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » (الروم: ٢٢) إنما حضّ الدين على الحوار العقلاني الهادف الذي يعتمد على الحجة العلمية والبرهان:

- «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي» (الانبيا: ٢٤).
- «قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (آل عمران: ٩٣).
- وشجّع على الحوار الهادئ حتى من ألدّ الأعداء المختلف معهم:
- مع فرعون: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» (طه: ٤٤).
- مع نمرود: «لَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (البقرة/ ٢٥٨).

بل وإن الخالق العظيم يتابع الحوار الذي يدور بين البشر ويقدم أمودجاً منه:

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» (المجادلة: ١).

وقد توافقت منهجية الحوار في الإسلام مع سَمَتَيْنِ أساسيتين هما الرفق واللين، وتلكما ركيزتان لا بد منهما للحوار بل وللدعوة كقاعدة: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران: ١٥٩). وتطبيقاً لهذا نضربُ المثال على قصتين معروفتين:

— قصة الشاب الذي جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يستأذنه في الزنا، فما كان منه - عليه الصلاة والسلام - إلا أن قام بنصحه بالرفق واللين؛ فعن أبي أمامة رضي الله عنه: أن غلاماً شاباً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا نبي الله تأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «قربوه، أدن» فدنا حتى جلس بين يديه. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم «أتحبه لأملك؟!» فقال: لا، جعلني الله فداك. قال: «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لابتك؟» قال: لا، جعلني الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟» قال: لا، جعلني الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم». فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على صدره، وقال: «اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه» فلم يكن شيء أبغض إليه منه.

— قصة الأعرابي الذي بال في المسجد حيث أتى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ فَبَايَعَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَقَامَ ، فَفَشَجَ فَبَالَ ، فَهَمَّ النَّاسُ بِهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَقْطَعُوا عَلَى الرَّجُلِ بَوْلَهُ ».

ثُمَّ دَعَا بِهِ ، فَقَالَ : «أَلَسْتَ مُسْلِمٌ ؟» . قَالَ : بَلَى . قَالَ : « فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ بُلْتَ فِي الْمَسْجِدِ ؟ » . فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّهُ صَعِيدٌ مِنَ الصُّعَدَاتِ فَبُلْتُ فِيهِ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذُنُوبٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّ عَلَى بَوْلِهِ .

لكن الإشكالية تكمن في العملية التربوية التي ينشأ على إثرها الأبناء، ولا يصلح هذه الإشكالية سوى نظام التعليم القائم على مرتكزات عميقة الأثر على الفكر والسلوك منها القبول بالاختلاف كمبدأ، واستيعاب الرأي الآخر ما لم يشذ عن الأطر الأخلاقية المرتضاة بين بني البشرية والمُجمع عليها في الأديان السماوية. العلم هو القادر على نشأة جيل يعي منهجية التربية السليمة، والمرتكزات القيمة التي تتيح له - فيما بعد- التعامل مع اختلاف الأبناء، ومنحهم استقلالية في التفكير والتأويل والفهم كي ينشأوا على قناعاتهم لا على قناعات آبائهم التي استقرت بالاكراه في سلوكياتهم دون أن تستوعبها قلوبهم.

وبإيجاز أقول: إن المجتمعات التي لا تبني قاعدة الاختلاف تربيةً وتعليمًا، وتدريبًا وتطبيقًا وفق أدبيات موضوعية يغلب فيها العقل على العاطفة، فإن حراكها الاجتماعي لا شك يتباطأ في مسيرته الحضارية، في الوقت الذي تملأ فيه الجو بصخب أصواتها، وخطبات أياديها.



العنف



المنافرة التي جرت في مجلس اتحاد «أوكسفورد» بجامعة أكسفورد البريطانية، يوم ٢٣/٥/٢٠١٣ عقب يوم من حادثة مدينة «ووليتش» في لندن؛ حيث قُتل جندي بريطاني على يد رجلين مسلمين، كان عنوانها عبارة عن فرضية أن «المجلس يؤمن بأن الإسلام دين سلمي» وشارك فيها ستة مناظرين مع وضد الفرضية، وكانت التصويت لصالح هذه الفرضية بنسبة كبيرة؛ أي أن الحضور صوتوا بـ «نعم» لصالح أن الإسلام دينٌ سلام وليس دين عنف.

وما كان هذا ليحدث لولا حنكة المناظرين المسلمين وقدرتهم على فصل أفعال العنف التي قام بها من يزعمون انتماءهم للإسلام وبين تعاليم الإسلام التي تحاربُ العنف، وتدعو إلى السلام إلا في حالة الظلم والاعتداء بشرط العدل أيضاً.

لكن تظل لثقافة العنف عند فئة من المسلمين - وهي قليلة جداً بالمعنى الظاهري للعنف - جذورها الداخلية، وأسبابها الخارجية وهذه وتلك قد أسهمت مجتمعة في نشأة هذه الثقافة التي انحرفت بالعقول عن جوهر الإسلام، وأظهرت للآخرين وكأن الإسلام هو الذي يحرّض أتباعه على العنف، حتى إن بعض المؤسسات التعليمية في الدول الإسلامية قد حذفت من مناهجها آيات قرآنية حُسبت على أنها تحث على العنف، وكان الأجدر أن يعاد تأويل الآيات فلا القرآن الكريم ولا السنة النبوية يحثان على العنف؛ لأن الإسلام هو دين السلام وإنما هي التفسيرات التي قد توضع حسب الأهواء والأهداف في الأجندات السياسية أو المخابراتية.

قال الله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» (الإسراء: ٣٣). وقال: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» (النساء: ٩٣). الإشكاليات الداخلية لظاهرة العنف تبدأ من تصوير بعض المسلمين ممن يتسمون بالعلماء أو الوعاظ أو غيرهم بأن الإسلام دين التجهّم والتزمت والتشدد فيندر أن تفرّج وجوههم عن الابتسامه كأنها محرمة عليهم بينما اعتبرها النبي الكريم عليه السلام عبادة «تبسمك في وجه أخيك صدقة»!.. ثم التزمت في التدين والتشدد فيه وأخذ كل أمر فيه شدة وترك الأمور التي بها رخصة أو تيسير، وفي الحديث الشريف: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»^{١٤}، «وإن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله؛ فإن المُنبت لا سفرا قطع، ولا ظهرا أبقى»^{١٥}.

هؤلاء عطفوا بفهوم الإسلام منعطف التشدد فيه فقبلوا تعاليمه رأساً على عقب، وقدموا المختلف فيه على القطعي الدلالة، يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه»: «لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعها أو جذورا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقا تتساقط مع الرياح!»، وقال: «ما أيسر الإسلام وأيسر أركانه، وما أصدق عقائده وشرائعه، لولا ما أضافه أتباعه من عند أنفسهم، واشترطوا على الناس أن يأخذوا به ويدخلوا فيه...».

١٤ حديث شريف، مسند أحمد.

١٥ السنن الكبرى والبيهقي.

يقول أحدهم وقد أدى مناسك العمرة بعد أن أخبرت أحدهم بذلك سألني لم لم تحلل العمرة بحلق الرأس؟ يقول فأجبت: إنني قصّرت، فقرأ الآية الكريمة: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴿١﴾ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴿٢﴾ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» (الفتح: ٢٧)، فرددت عليه: إذن فالتقصير جائز، قال: لكن الحلق أوجب..!

وظاهرة العنف كما تعود إلى الانحراف الفكري لبعض الجماعات، كذلك تعود إلى الاستبداد السياسي للأنظمة التي تضيق الخناق على الحريات، ولا تقيم الوزن بالقسط، ولا تشرع مبدأ المساواة، ولا تفعل مبدأ الشورى، ولا تشرك في القرار. أنظمة لا يهّمها إلا ترسيخ مكانتها بالإخضاع والإذعان أيّاً كانت الوسيلة حتى لو كانت بالقتل والتدمير والتخريب، والأمثلة واضحة للعيان في عصرنا الحالي حيث تنهاوى هذه الدكتاتوريات التي سببت العنف لعدم معالجتها أسبابها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

وظاهرة العنف تعود إلى ممارسة القوى العظمى في العالم الكيل بمكاليين، والسياسة المتحيزة، وإشاعة الفتن والشقاق والفرقة بين أبناء الإسلام، وهذا أمرٌ بات معلوماً. لكن ما يهّمنا هو استدراك الأسباب الداخلية التي تخلق ظاهرة العنف؛ أكان من قبيل تطويع النصوص والأحاديث لصالح هذه الثقافة العنيفة أو الاستبداد السياسي للأنظمة الحاكمة.

المشكلة أن في كل مذهبٍ من مذاهب الإسلام غُلاة متشددين أساءوا إلى الإسلام، لهم مغازيهم التي يريدون تحقيقها بعيداً عن الدين لكنهم اتخذوا الدين أداةً تطويع وإيهام للأتباع، فشوّهوا صورته عند من لا يعلمون عنه شيئاً، أو حتى عند أتباعه. يخبرني أحد الناس بأنّ بعض الشباب الذين كانوا يتبعون هؤلاء المتشددين ارتدوا عن الدين بل ألحدوا لأنهم رأوا أنهم كانوا مجرد أدوات للوصول إلى السلطة. وفي هذا النطاق يقول عربي: نريد من علمائنا أن يوصلونا إلى الجنة ويريدون منا أن نوصلهم إلى كراسي السلطة...! وحتى حين تقرأ لهؤلاء المشحونين وهم يتبادلون اللغة العنيفة فإنك تكاد تغمض عينيك أسفاً على تلك اللغة التي تسيل دماً...!! ولو أن كل مذهبٍ من مذاهب الإسلام تخلّص من ثقافة العنف التي توغر قلوب المسلمين بالبغضاء والشحناء لما ظهرت «القاعدة» و«داعش» و«فرق الموت»... وغيرها من الجماعات التي لهي أرحم بأجنبي يقع بين أياديها من مسلم أسير...!! وقد شاهدنا درجة العنف التي قتل بها مسلم أسير...! وشاهدنا كيف يكون القتال والاعتداء بخلاف ما أمر الله به في قوله سبحانه: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين»^{١٦} يقول المفسرون: أي لا تقتلوا النساء.

ولا الصّبيان ولا الرهبان ولا الشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السّلم وكفّ يده، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم...! وكل هؤلاء يزعمون أنهم ينتمون للإسلام وأن ما يفعلونه باسم الدين، شامت وجوههم كما شوّهوا الدين.

الدين الذي يقول رسوله الكريم عليه السلام: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»^{١٧}. ولنترك الآن الموغرين الخارجيين للمسلمين ومن القوى العظمى، لننظر إلى صور العنف التي يتفنن فيها من يدعي فهم الإسلام وتطويع النصوص بحسب ساديته وأهوائه فنجدها قد بلغت مبلغاً شنيعاً يخرجها ليس من الإسلام فحسب بل ومن الإنسانية ليصورها وحوشاً تقتك بالفرائس في الغابات بلا رحمة ولا ضمير ولا إنسانية.

يتابع الواحد منا الحوارات والمناظرات بين مسلمين سرعان ما تسودها لغة العنف وهي ترمي ألفاظ السباب والتراشق بالاتهامات ثم تتعداها إلى العراك الجسدي..! ونرى في الواقع كيف تضيق الصدور لموقف بسيط في شارع، أو لخطأ في سوق، ثم ما يلبث أن يتحوّل إلى عنف لفظي أو شخصي، وهذا الكلام عمومي في المجتمعات الإسلامية لا يتقصّد «مجتمع بعينه، إنما الشاهد هنا هو أن ثقافة العنف تتلوّن وتتفاوت في درجاتها لهذا فهي بحاجة إلى تقصٍّ عميق لأسبابها وكيفية معالجتها من الجذور.

إننا يجب أن نربي أبناءنا على رحمة الدين، ويسر التعاليم الإسلامية، وعلى رفق الإيغال في الدين، وعلى التسامح والعفو والصفح والعدل في طلب الحق، فهذه القيم هي التي نضدت عقد السلام في دين السلام ونبذت ثقافة العنف.



الانفتاح



تأرجح المجتمعات المسلمة في مفهومها عن الانفتاح بين إقدام مفرط على حساب قيم الأمة وهويتها، وبين إحجام وانغلاق مبالغ على حساب التقدم، والعصرية، والتشاقف. الأغلب الملاحظ تعاطى مع الانفتاح سلباً فأخذ قشوره وترك لبابه..! تلبس أرديته، وترك روحه..! فلم ينل منه سوى التقليد للآخر في كل شيء: مشيته، ولغته، ولبسه، وقصة شعره، وأغانيه، وطعامه، ورقصاته، وفنونه، بل وحتى تقمص مشاعره، وأحاسيسه، وتفكيره، وفرحه، وأحزانه..! فكأن لسان حاله وهو ينظر للناس تقول: أنا عصري، أنا متحضر، أنا تقدمي وأنتم المتأخرون، المتحجرون..! وهو في الحقيقة ما أصاب انفتاحاً إنما أصاب انحرافاً!

وفي هذا يقول جبران خليل جبران: «كان الغربيون في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي. أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويتلعونه، ولكنه لا يتحول إلى كيانهم بل يحولهم إلى شبه غربيين، وهي حالة تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس».

فهم كثيرون الانفتاح على الآخر بغير المقصد الذي أريد له ففتحوا أوطانهم مشرعةً للأجنبي كي يمارس فيها حياته كما يهوى..! رفعوا عليه الحواجز، وتركوا له المجال مفتوحاً كي ينعم بالشعور والاطمئنان في أنه ليس في بلد ثان بل في بلد أعلى سقفاً للحرية من بلده..! فإذا به يفعل الأفاعيل، ويهتك كل القيم الأصيلة التي نشأت عليها المجتمعات الإسلامية، ويضرب بها في عرض الحائط..! استفاقت بعض الدول على ما تحسبه التماذي من قبل الآخر وهو في الأصل مساحة «الانفتاح» التي منحها له تهاوناً وتراخياً

وإرضاءً، فإذا بها تنفضُ الغبارَ عن قوانينها، فتعودُ إليها خوفَ أن تنزلقَ في طريقٍ لا تستطيع العودةَ منه ثانيةً!

يصلُ الأجنبي بلدانَ المسلمين فلا شيءَ يرشدهُ إلى ملامح ثقافة ذلك البلد، وكأنما هي أوطانٌ فتحت أشرعتها وأحضانها للأجنبي دون شرطٍ أو قيد... تساعدهُ قراءتهُ البسيطة عن البلدِ قبلَ أن يصلَ إليها، فيسكنُ في نفسه وهو قادمٌ بعض الاحترام لثقافة البلد، فإذا جاءها ووجدَ قيمها حيّةً، أكّدَ احترامه لها، وإن وجدها «منفتحةً» على الآخر دون حدود «رفع الكلفة» ومارس حياته الطبيعية كما يجبُ أن تكون!

يخبرني رجلٌ أعمالٍ سافرَ إلى الغرب، ودُعي إلى عشاءٍ عمل، فأبلغهم بأنه لا يتناول لحم الخنزير، ولا يشربُ الخمرَ، فلما حضرَ المائدةَ وجدها وقد خلت مما اشترطَ ليس له وحده وحسب بل وللجميع الذين احترموا تقاليده، وقيمه!

لهذا؛ فالآخرُ يحترمُ القيمَ الأصيلةَ للأمةِ طالما احترمتها هي، وقدّرتها وجعلت لها منزلةً ومقاماً، فإن تنازلت عنها، وإن تهاونت فيها، فإنه سيضمُرُ للأمةِ عدم الاحترام!

الانفتاحُ في حقيقته ليس صوراً سلبيةً وإنما ضرورة حضارية مستمدة من الأمر الإلهي: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»^{١٨} فهو الانفتاح الحضاري على الثقافات، والتلاقح الفكري مع الأمم، وليس تقليدها في ملبوسها، ولغتها وطريقة مشيها،

وتقليعاتها، وصرعاتها...!. فهذا تطبيقٌ حرفيٌّ لما عناهُ ابن منظور في اللغة وهو «كل ما انكشف عن شيء فقد انفتح. وضده الانغلاق»!

وفي الجانب الآخر.. الجانب العقلي - إذا يقوم بناودون بالانفتاح الفكري على الآخر في كل شيء أيضاً دون شرط أو قيد، بحجة أن فكر الآخر المتقدم هو فكرٌ متحرّرٌ غير مقيد بقيم أو تقاليد أو حتى عقيدة...! وهؤلاء شطحوا في مناداتهم فأصبحوا ينعنون من يتطرق في الدين بأنه صاحب خطاب وعظي منبري...! ومن يتحدّث عن الأخلاق الرفيعة بأنه متحجّر، متأخّر عن عصره...! ومن يسعى لإصلاح المجتمع والحفاظ على هويته الوطنية بأنه مثالي بل ووطني متشدّد!!

وإذا كنّا نسلّم جدلاً بوجود مصطلح «الانفتاح» وتعامل معه بحسن نية متجاهلين جذوره التاريخية التي تربط منشأه بالصراعات بين الكنيسة الداعية إلى رفض كل الأفكار العلمية الجديدة، والفكر اللاديني المنفتح على كل جديد، أقول إذا أخذنا هذا المصطلح بهذه النية وصوّبنا دلالاته لتعني: الانفتاح فكرياً على الآخر، وقبول أفكاره، والتسامح معه، فإننا نلتفت إلى مشكلة تعانيها مجتمعاتنا ولم تتحرّر منها بعد، وهي أن مجتمعاتنا ضعيفة في ثقافة الانفتاح الداخلي بين مكوّناتها الاجتماعية إن لم نقل تفتقر إليها، فكيف بها تتجاوزها إلى الانفتاح على الآخر خارج الحدود الوطنية؟! الأوّل أوجب الحدوث، والثاني يأتي نتيجة له؛ بمعنى أنه لا يمكن لمجتمعات تعاني من انغلاقٍ يجعلها تعيش في «سرادق فكريّة ثقافية مذهبية» لا تفتتح في دواخلها على الآخر الذي تتعايش معه واقعياً في حيّز أوطانٍ واحدة أن تفتتح ثقافياً، وتسامح فكرياً نحو المجتمعات والثقافات الأخرى؟!

وما يمارسه البعض من «انفتاح» هو استغواء النفس وممارسة استجهاؤها...! فهو يتسامح مع الفكر الأجنبي، ويحارب فكره...! يفتح على تاريخ الآخرين وينغلق على تاريخ بلده...! يبالغ في انبهاره بثقافات الغير ويحتقر ثقافته...! ينهر بإبداعات الآخرين ويسفه مبدعي وطنه...! يعتز بثقافته «الكونية» ويثور على هويته!

إذن فالانفتاح - كمصطلح مستقل - يجب أن يفعل داخلياً؛ لأن المجتمعات التي افتقدت إلى احترام التعددية، والتسامح، واختلاف المشارب، والمذاهب تحاربت، وتصارعت وخربت أوطانها...! أما تلك التي انفتحت داخلياً، فقبلت التعايش السلمي مع التعددية والاختلاف، نالت السلم والاستقرار والأمن.

إن اليابان - وهي مضرب مثل في هذا المعرض - قد تقدمت صناعياً وتقنياً واقتصادياً لكنها في المقابل لم تضح بقيمها الأصيلة التي نشأت عليها، والتي جعلتها ركائز لنهضتها، وتقدمها، ووحدتها، وهكذا كان المسلمون في أوائل نهضتهم، انفتحوا ثقافياً على الأمم الأخرى ليستلهموا من علومها، وفلسفاتها، وأفكارها مما ساعدهم على «صنع حضارة» لديها من القيم القويمة ما يجعل بُنيانها سميكاً، قوياً، فأثروا في الحضارات، وكان لهم في عالم اليوم المتقدم جذور الفضل يتباهى بها أحفادهم في مناظراتهم وافتخارهم بتلك الإنجازات الحضارية.

نخلص من هذا إلى القول بأن مجتمعاتنا المسلمة تحتاج إلى الانفتاح الداخلي بين سائر مكوناتها وإلغاء كل «السرادي» الطائفية أو المذهبية أو الفكرية،

وإعلاء شأن المواطنة المسؤولة الصالحة التي تُعلنُ الولاءَ للوطن، والانتماء الصادق له. الأمر الآخر: أن الانفتاح نحو الآخر لا يعني تقليده في ظاهر هيبته، وسلوكه، وتبذله، وسقطاته...! بل في الاطلاع على ما عنده من علوم متقدمة، والاستفادة مما لديه من أفكارٍ خلاقَةٍ تدفعُ المعاش البشري إلى النماء والازدهار، وترفع المقام الإنساني إلى درجاتٍ عاليةٍ من السموِّ والرفعة. الأمر الثالث: أن الانفتاح على الآخر لا يعني التضحية بقيم المجتمع، وأعرافه وتقاليده، وأسس مكوّنات هويته وخصوصيته وتركه يعبثُ بها كما شاء، بل وضعها في المقام الأرفع، وتقديرها لأنها تتعلّق بالمصير الوجودي للهوية الوطنية والقومية. فلا تستحقُّ أمةً الاحترام إن هي ضحّت بقيمها وأسس هويتها في مقابل ما تحسبه علواً من شأنها لدى المجتمعات الأخرى وهو في الحقيقة تضعُعُ وانفلاتٌ وهوان!



الشخصنة



قال لي: إنه وبعد أن كتب أفكاراً ينتقد فيها بموضوعية، ويطرح فيها تصورات لا تمس «شخصاً» إنما تنتقد آليات العمل، وتبين إشكاليات النظام، تمت مكافأته بإخراجه من اللجان التي كان عضواً فيها في ذلك القطاع..! وقال لي آخر: إن أفكاره تُربطُ بشخصه فهي تُرفضُ كلما قُدمتْ مذيلاً بإسمه، وتُقبل عندما لا يُعرف من صاحبها..!

إن شخصية الأفكار من أشدّ الأمراض التي ابتليت بها ثقافتنا وأكثرها خطراً؛ لأنها حرمت الأوطان من العطاءات المتميزة، والمهارات المبدعة، والعقول الخلاقة بسبب إقصاء أشخاص عن المواقع القيادية، أو المناصب التنفيذية؛ لأن صاحب القرار خلط بين «الذاتية» و«الموضوعية» أي بين جدية النقد وبين شعوره بأنه هو المقصود من وراء هذا النقد وليس الأداء أو المؤسسة أو النظام!

لقد علّمنا الله العظيم درساً رفيعاً في العدل، وفصل «الذاتي» عن «الموضوعي» فقال سبحانه: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا»^{١٩}، ومعناها أن لا يحملكم بغضكم لقوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم. لكن ثقافة الشخصية متفشية في مجتمعاتنا الإسلامية، فإن انتقد فردٌ نقصاً في خدمة أضرارها المسؤول الأول في نفسه..! وإن أشار أحدٌ في الحياة الاجتماعية إلى شيء ظن الآخر أن تلك الإشارة تعنيه، فقال: لقد كان يقصدي دون شك..! يقول الفيلسوف مالك بن نبي: «إن الإنسان في أطواره يمر بثلاث مراحل: مرحلة التعلق بالأشياء، ثم التعلق بالأشخاص، ثم التعلق بالأفكار» لكن لم يستطع

الكثيرون في مجتمعاتنا الانتقال من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار، حتى إن بعضهم يتظاهرُ بفصلِ الأفكارِ عن المشاعرِ الشخصية نحو الآخر إنما تفضحه مواقفهُ وآراؤه!

وإذا كان للأمة من درسٍ تتعلّمه في التخلص من داءِ الشخصية فيتجلّى في الموقف التاريخي الذي حدث عند عزل سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لخالد بن الوليد - رضي الله عنهما - من إمارة الجيش؛ إذ إن خالدًا لم يأخذ الأمرَ على أنّه شخصي يتقصّد ذاته وهو الذي ما قصّر في إمارته ولا تهاون في مهارته، إنما قال: «الحمد لله الذي ولّى عمر بن الخطاب، وقد كان أبو بكر أحبّ لديّ من عمر بن الخطاب، فالحمد لله الذي ولّى عمر، ثم ألزمني حبه»، فمنذ هذه اللحظة أصبح يحب عمر بن الخطاب، وليس فقط يطيعه...!! لقد صيرّ الموقف مناسبةً للحبّ لأنه ارتقى بنفسه فوق هوى النفس!

تستمد ثقافة الشخصية جذورها من سوء الظن، وإحاطة النفس بالعصمة، والتعصب للرأي وعدم التسامح مع الفكر الآخر؛ لذلك نشأت الأقطاب المتنافرة «مع» أو «ضد» فإن نصحت إنساناً في خطئه لإنسانٍ آخر، يقفزُ بك على الفور من عالم الأفكار التي تناقشه فيه إلى الأشخاص فيتهمك بأنك ضده دون مبرر موضوعي..! هي ثقافة تنشأ في البيوت فالأب الذي ييدي ابنه وجهة نظرٍ معارضة لرأيه يحسبها انتقاصاً منه، ولا ينظرُ إليها على أنها تصويب رأي، أو تصحيح فكرة..! لهذا فإن الابن يكبرُ بدوره ممارساً لهذه الثقافة الإقصائية للأفكار؛ فينظر للأشخاص بناءً على مشاعره تجاههم لا أفكارهم. ويصبحُ مسؤولاً فيرقي هذا وفقاً لتملّقه إليه، وتزلفه

نحوه، ويقصي آخرين لأفكارهم التي يعتقد أنهم يريدون بها زحزحته عن كرسيه..! لهذا فلا غرابة أن يبلغ الفجور في الخصومة مداه رغم أن المختلف حولها هي الأفكار وليس الأشخاص، لكن هوى النفس وذاتيتها غلبا على عدلها وعقلانيتها!

في بعض الدول التي استطاعت ثقافتها أن تفصل بين «الذاتي» و«الموضوعي»، وبين «الهوى» و«العقل»، استطاع إنسانها أن يرتقي فوق مشاعره الشخصية نحو الأشخاص فلا يعاملهم بحسب رأيهم فيه، وإنما بحسب أعمالهم. يقول أحد الموظفين في إحدى الشركات: «إن مديرتنا الأجنبية تفصل بين اختلاف الموظفين معها وإنصافها لهم». أما في مجتمعاتنا فإن المصلحة لا تتحقق إلا برضا المسؤول، والتوصية لا تكون إلا بحسب درجة القرب منه، حتى إن أحد المديرين اشتكى على أحد موظفيه لأنه لا يدخل مكتبه إلا من أجل العمل فقط!!

يقول المفكر د. طارق حجي: «أما عندنا، فالأمر مختلف كل الاختلاف؛ إذ إن الآراء تكاد تكون لأصحابها مثل الأعضاء والملاح، فهم من جهة يعتزون بها اعتزازاً يخرج بالعلاقة عن إطار الموضوعية ويدلف بها إلى دائرة الذاتية والشخصانية، وهم من جهة أخرى يخلطون ما بين كرامتهم وكبريائهم وأي مساس بتلك الآراء أو محاولة لدحضها أو تفنيدها أو حتى تعديلها».

سألني محاور في برنامج تليفزيوني: لماذا اختفى النقد من الساحة أو ندر وجودهم؟! فقلت له: لأن ثقافة النقد مفقودة في البيوت. وفي رحاب

المجتمع فإن الناقد يفقدُ العلاقة مع كل من يوجّه النقدَ لأدائه حتى وإن كان النقدُ بناءً..! ولنسأل: لماذا لا تبادر الجهات المنتقدة بالاتصالِ لناقدٍ يهدفُ من نقده البناءَ مصلحةً، ويرومُ نفعاً إماماً لشكره على تصحيحه، أو لطلبِ المساعدةِ منه على إيجادِ حل؟! لماذا يتم تجاهل أصحابِ مبادراتِ خليقةٍ بالعطاء، وعقولٍ جديرةٍ بالسخاء؟!

حاصلُ القولِ أنه لا نهضةَ للأوطان، ولا تقدّمَ للإنسانِ إن تفشّت الشخصية في جسديهما، فما يفرّقان بين «رأي» و«ذات» ولا يفصلان بين «هوى» و«عقل».. صحيحٌ أن التمييزَ يتطلبُ استعداداً نفسياً عظيماً، لكنّه دورُ التربية، وهدفُ التعليم؛ فهما يطبعان الإنسانَ بحسبِ ما يرميان إليه، فينشأ وهو «يعرف الرجالَ بالحق ولا يعرف الحق بالرجال».. وتلك من أعظم الفضائل.



الخطاب



سألت الفتاة الجامعية الضيف الذي يمثل المؤسسة المعنية بالخطاب الديني: اسمح لي أن أسألك سؤالاً جريئاً وهو: هل تعترفون بفشل خطابكم الديني الموجه للشباب؟ أجابها: وسأكون أجراً منك فأجيبك: نعم نعرف!

الخطاب ليس مجرد إلقاء خطبة مكتوبة فحسب، بل هو عامل مهم في توصيل مقاصد الشريعة للجمهور، فإن تحلّى بالمقومات التي تقرّبه من فهم طرق التفكير عند الناس، ومعالجة الواقع تقبله الناس بأريحية. وإن ظلّ مكروراً دون تجديد في اللغة والتصور والاجتهاد اعتراه البلى، وغشاه القدم، فلا يلتفت أحدٌ إزاءه، ويوسم بأنه متأخرٌ عن عصره!

واحدة من إشكاليات الخطاب الإسلامي هي اللغة التي يتخاطب بها مع الناس لتناسب مع عصرهم، واللغة لا يقصدُ بها مجموعة الألفاظ بل المبادئ والمفاهيم التي تكتنفها. في إحدى الندوات التليفزيونية التي أجريت على هامش ندوة كبرى حول القيم قلتُ للإعلامي الذي يديرها قبل البدء: أرجوكم أن تسعوا إلى تبسيط الخطاب كي يصل إلى أكبر شريحة ممكنة، لكن لم يتحقق ذلك، وكان مستوى الخطاب نخبويّاً، لا تكاد تستوعبه الفئة المستهدفة من الشباب!

يطغى على الخطاب النقل دون تجديد، مع أن واقع الناس سريع التغير، وأحوالهم حثيثة التبدّل، إلا أن الخطاب راكدٌ يكتفي بالنقل لا بإعمال العقل، واستباط الأحكام المتجددة من الروح الأصيلة للإسلام. تمرّ المناسبة تلو المناسبة فتسمع ذات المعاني بل ذات الألفاظ تتكرر طوال السنين دون تجديد ودون ربطٍ بواقع الناس. تأتي خطبة الجمعة فلا يكاد المرء يسمع

جديداً يثيره، ولا حديثاً يربطه بواقعه، وقد كان من المستحسن ربط الأصول بالقضايا المعاصرة للاستئناس بالأحكام، أمّا أن يكون الخطاب جامداً في توصيف القضايا دون التطرق إلى الشواغل المهمة للناس؛ فذلك مما يصرفُ نظرهم عن الخطاب نفسه، لأنه باتَ مستهلكاً لا يأتي بجديد. يقول أحدهم بعد أن خرج من صلاة الجمعة: هذه الخطبة كأنها درسٌ في الصف السادس!

إن وجود خطاب عقدي لا يحفل بالمحمولات الاجتماعية يعاني من نقیصة في الرسالة، يقول راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة التونسية: «وبسبب أهمية العقيدة والتربية في بناء الإسلام فإن أثرهما ينبغي أن يمتد ليغطي ليس السلوك الفردي للمسلم وحسب، وإنما يجب أن يتجاوزة ليلوّن كل مواقفه الاجتماعية والسياسية، وإلاّ وقعنا في ضرب من العلمنة والنفاق وازدواج الشخصية في اتجاه تفريغ الإسلام من مقاصده الكبرى في العدل والشورى والوحدة التي جاء ليرسيها في الأرض».

كما يغلبُ على الخطاب الزجر والعقاب والتخويف أكثر من التيسير، والرفق والتبشير، حتى أصبح رمز رعب للنفوس مقترناً بالموت، والقبر والعذاب. وكم أرى الهلع في طفلة في سن الثانية عشر كلما سمعت هذا الخطاب تصرخ فرعاً منه وتجري محتمة عنه..! الأناشيد الإسلامية طغت على الكثير منها لازمة الحزن والعبوس وكأنما الإسلام قد أقام مأتماً ولم يقعه، وكأنه ليس به من فرح واستبشارٍ وتفاؤل وهو دين القيم هذه. الخوف من الله قدّم في الخطاب أكثر من محبته، ومع أن الخوف من الله واجب إلا أنه يصدر عن المحبة إن سكنت في قلب العبد.

الإشكالية الأخرى أن الخطاب الإسلامي أغلبه ماضوي، أي مرهون، مقيدٌ بالماضي في أغلبه، ولا أعني هنا مصادر العقيدة الثابتة، أو السنة القطعية، ولكنني أعني التراث الفقهي الذي شاب بعضه ما شابه من اجتهادات غير صائبة أخذ بها البعض فكانت وبالأعلى عليه وعلى الأمة في قضايا كثيرة.

والملاحظ أن الخطاب في عموميه خطاب يعطي الأولوية للظواهر والجزئيات وهذا الخلط في الأولويات يقدم المعنى المبتر للشرعية باعتبارها عقوبات وزواج، وهو ما يفسره الغنوشي في أمرين: الأول: أن هذا الخطاب يضيق بالحرّيات الفردية والجماعية ويعمل على تضيقها إلى أبعد الحدود، حتى وضع البعض الإسلام مقابلاً ونقيضاً للحرية..! أمّا الثاني: فهو - كما يرى الغنوشي - تركيز الخطاب على الظواهر والجزئيات بدل الكليات والمقاصد، وهو ما جعل الممارك حول قضايا الحجاب والتّقاب واللّحية والأثواب والخمور تحتل الصّدارة لدى قطاع واسع من أصحاب المشروع الإسلامي، فيبادرون بمجرّد استلامهم للسلطة في أي قطر إلى تجسيد مشروعاتهم هذا الشّكلاني».

كما أن الطّبيعة الوعظية المباشرة للخطاب الإسلامي حرّمته من تنويع وسائل الدّعوة، والاستفادة من أشكال التأثير الجمالي والفني فكان « إنتاج الإسلاميين في كثير من الفنون الجميلة ضعيفاً أو ضئيلاً مثل الدراما والتصوير والموسيقى والشعر، ربّما بسبب عوائق؛ حيث ظلّ الخلط قائماً بين عدد من الفنون وبين المناخات العلمانية أو الماجنة التي تلبست بها، ما زهد الصالحين فيها ونفّرهم منها، فاجتهدوا في الصّرف عنها وتشديد النّكير على المشتغلين بها أو المستهلّكين لها مفوّتين على الإسلام وصحوته أبواباً واسعة للخير والدّعوة»^{٢٠}.

٢٠ راشد الغنوشي-زعيم حركة النهضة التونسية- مشكلات الخطاب الإسلامي المعاصر، موقع قناة الجزيرة الإلكتروني <http://www.aljazeera.net>.

يحدد الداعية المستنير الحبيب علي الجفري الذي كثيراً ما ينتقد بيت الخطاب الإسلامي لأن كثيراً منه شوه حقيقة الدين بعد أن خاض فيه غير المتخصصين، فأصدروا الفتاوى والأحكام دون إدراك وفهم عميق للمقاصد الكلية للعقيدة، وحكمة التشريع، وقالوا عن الدين ما ليس فيه، فحللوا وحرّموا، فنفروا بدل أن يقربوا، وعسّروا بدل أن ييسروا، يحدد الجفري أربعة معالم للخطاب قائلاً: «أعتقد أن من أهم ما ينبغي أن يكون عليه هذا الخطاب أن يكون نابعاً من مشكاة الإسلام الأصيلة القادرة على فهم الواقع وتصويره بشكل صحيح، ثم البلاغ عن الله تعالى. والمعلم الثاني للخطاب الإسلامي أن يكون متصلاً بحاجات الناس الأصيلة لا العارضة، ونحن لدينا مشكلة في الخطاب الإسلامي منذ سنوات، إن لم يكن منذ عقود، في التعامل مع العَرَض لا المرض. والمعلم الثالث أن تكون صيغة هذا الخطاب تؤدي إلى التقاء الناس لا إلى تعميق الفرقة فيما بينهم. والمعلم الرابع أن يكون قائماً على الثبوت وهو أن يكون الناطق بالخطاب الإسلامي متبناً متيقناً متبيناً للمعلومة التي بنى على أساسها هذا الخطاب، فلا يسمع خبراً في نشرة أو يرى منظرًا في وسيلة إعلام حتى يسارع ويبادر بالقول والفعل قبل أن يتحقق من خلفية ما يتكلم عنه».

لقد نجح الآخر المناوئ للأمة في خطابه لأنه درس الطرق النفسية ولغة الجسد وغيرها من العوامل المساعدة على نجاح الخطاب في التأثير والإقناع، فالحق لا ينتصر إن كان حامله لا يمتلك القدرات التي تؤهله لعرض الحجة والبرهان، بل وامتلاكه لطرق العرض التي تفهم ثقافة الآخر فتخاطبه بحسبها مستخدماً اللغة المقنعة. ذات يوم كنتُ أستمعُ لأحد المحاضرين في موضوع العلاقات الزوجية في مجتمعٍ محافظ، ويبدو أنه لم

يُحسن استخدام الخطاب المناسب للفئة الحاضرة، فكان خطابه لهم أشبه بالخطاب المائع الموجه لمرهقين من مرتادي السينما ومقاهي الوجبات السريعة..! فأنار الجلبة، وأحدث البلبلة ورجوه عدة مرّات أن يتوقف وهو مستمتع في خطابيته الخارجة عن الضوابط التي تناسب مع لغة وعادات الفئة المستهدفة حتى تمت مقاطعته قسراً!

وفي جانبٍ آخر، هناك من الوعاظ من يريدُ ركوب موجة العصر من الشهرة على حساب طرح النكات الفجّة، والتعقيبات المبتذلة التي ينفرُ منها المجتمع، بينما يمعنُ الواعظُ فيها لأنّها - حسب فهمه ربما - لغةُ تقرّبه من الناس!

آخرون أحاطوا الخطاب الإسلامي بأسوار حصينة دون قبول الانفتاح على العصر وتياراته التي لا تخلو من القيم المشتركة بينها وبين الإسلام، حتى ظن الكثيرون أن الإسلام متحجّر، متفوق على نفسه، لا يتلاقى مع ثقافات البشر، ولا مع اجتهاداتهم الإنسانية التي قد لا تتفق في جوهرها مع الإسلام لكنّها تلتقي في مناطق معينة معه. يقول أحد الذين تابَعوا حوارات الحبيب علي الجفري: «... عثرت على نوع جديد من الخطاب الإسلامي قادر على أن يستوعب القيم الليبرالية والديمقراطية والإبداعية التي كان أهل الغرب أو الليبراليون العرب يظنون أنه لا مجال للتلاقى بينها وبين الإسلام وتشريعاته أبداً».

إنني أركز على هذا الداعية المستنير لأنني أرى فيه نموذجاً مثالياً راقياً لحامل الخطاب الإسلامي القادر على الجاذبية واستيعاب الآخر حتى أعيا متابعيه

المتسائلين: لأي مذهب ينتمي؟ فالرجل في نهاية الأمر يعبر عن جوهر الإسلام، وأصالته ولا يتحيز إلى مذهب أو طائفة، كما أن أغلب - إن لم يكن جميع - الذين تحاور معه اعترفوا بأنهم لأول مرة شعروا بالارتياح لرجل الدين لنجاحه باستمالتهم بتقديم الاعتذار عن تقصير بيت الخطاب الإسلامي وما اعتور الخطاب من عدم بسط المفاهيم السليمة للإسلام ومناطق الاتفاق مع الآخر، وتقديره ومحبته. إنني لأربأ بكل داعية ناصح نبيه يريد لم شمل الأمة وإعلاء كلمة الإسلام أن يتحيز لمذهب أو فئة، بل أن يكون محور التقاء، وتوفيق، واعتدال، فما أحوج الأمة لحاملي الخطاب الإسلامي الموفقين، الجامعين، وما أحوجها إلى خطاب إسلامي عصري معتدل، واضح، نير، سمح، رقيق، يظهر المقاصد الكلية للإسلام، ويبين القيم العظيمة التي يحتويها هذا الدين والتي تتوافق مع مقومات النهضة الإنسانية السليمة في بقاء العالم.

* * *

مراجعات الخطاب الديني

يفرض واقع حال المسلمين اليوم مراجعات في الخطاب الديني لما أنتجته الخطاب من تحريف لمقاصد الشريعة و«تسور البعض أسوار الفقه» كما قال الحبيب الجفري، فطوّعوا المقاصد حسب أهوائهم وليس وفقاً للحكمة من تشريعها..! يقول الشيخ عبد الله العلياني رحمه الله: «لَيْسَ مُحَافَظَةً التَّقْلِيدِ مَعَ الْخَطَا؛ وَلَيْسَ خُرُوجًا تَصْحِيحُ الَّذِي يُحَقِّقُ الْمَعْرِفَةَ»، لهذا فإن مسألة المراجعة أضحت أمراً لازماً لأنه جرى تضخيم الشكليات من

البعض واعتبارها أساساً في الدين على حساب الأصول التي أضعفت وقلل من شأنها كالمعاملة والعلم والأخلاقيات والعمل والابتكار ووحدة الأمة وغيرها. طريقة وصفها د. أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف بأنها: «فرض أمور على الناس تنحصر في الشكليات لا أكثر ولا أقل، ولا يعنيه العلم ولا تقدم المسلمين ولا قوتهم ولا اقتصادهم».

إن الخطاب الديني أصبح في حاجة ماسة إلى المراجعة الشاملة يقوم بها رجال معتدلون في فهمهم لمقاصد الشريعة، لا رجال «يخططون للإسلام» كما يصف ذلك د. عدنان إبراهيم لأنهم بنوه على غلوهم، وحوّروا ما يتناسب مع تشددهم وغلوهم وتصويرهم الدين على أنه سيف مسلط على الرقاب فإما الإيمان أو الذبح، خطاب ينشأ من التكفير وينتهي بالتفجير..!

كنت أقف منذ سنوات معدودة متحدثاً في إحدى الجامعات حول كتابي «قيم معطلة في المجتمعات العربية»، وذكرت مقولة الإمام محمد عبده المشهورة عند زيارته لدولة غربية: وجدت الإسلام ولم أجد المسلمين، فإذا بأستاذ جامعي من موطن الإمام يعقب بأعلى صوته: من هذا محمد عبده..؟ وأضاف: «إن الغرب إباحي، فاجر، ساقط وهنا القوة بكلمة لا إله إلا الله.. ثم إنني يمكن أن أسبح بدل أن أقرأ..!! وإذا بجمع من طلابه يصفقون له..!! فقام مسؤول كبير صاحب ثقافة غربية وألقى عليه محاضرة في سماحة الإسلام وعالميته فألجمته»!

قلت: كيف لمثل هذا أن يبتئ السموم في أذهان الناشئة بما يظنونهم كلام حق وهو في الحقيقة باطل لأن الإسلام لم يكن بناكر فضل الأم، فكل ما

يرتديه ويعيش عليه المسلمون اليومَ هو من نتاج الغرب ثم يجازى من بعضهم لهذا الفضل باللعن ويدعو البعض الآخر عليهم بتجميد الدماءِ وشلل الأعضاء..! أي فهم للدين هذا، وأي تفقه فيه..؟! بل إن بعضهم قد احتسب بالغرب من ظلم وطنه، وعاش فيه معززا مكرما ثم أنكر معروفه وارتكب المجازر فيه!

خطابُ الغلو والتشدد يحتاجُ إلى تغيير، قضايا كثيرةٌ تحتاجُ إلى إعادة اجتهد فيها، الأسلوبُ ذاته يحتاجُ إلى تبسيط، المنهجُ يحتاجُ إلى تيسير، وهذا الأمرُ لا يتم إلا بإصلاح منظومة التعليم كأولى المنظومات، وفي ذلك يقول شيخ الأزهر في مؤتمر «الإسلام ومحاربة الإرهاب» الذي عقد مؤخراً: «ما لم نحكم السيطرة التعليمية والتربوية في مدارسنا وجامعاتنا على فوضى اللجوء إلى الحكم بالكفر والفسق على المسلمين، فإنه لا أمل في أن تستعيد هذه الأمة قوتها ووحدتها وأخوتها وقدرتها على التحضير ومواكبة الأمم المتقدمة». وقد بادر الأزهر الشريف إلى التغيير فتم «حذف الصور القديمة لعدم تناسبها مع العصر، وحذف أبواب في كتب الفقه مثل الرق والعبيد وملك اليمين، وتمت إضافة صور جديد والكتابة بأسلوب عصري فيه توضيح يلائم الطلاب وعقولهم. كما وضعت مفردات ومقررات جديدة بناء على دراسة نفسية وعلمية منهجية تناسب مع عقول الطلاب، والإكثار من الأحاديث التي تحضُّ على التسامح والرحمة في المجتمع والآيات التي تحث على القيم الحضارية ومكارم الأخلاق وعلى المثل العليا في المجتمع».

إن القضية جد خطيرة وما أوصلنا لذلك سوى تمثيل الإسلام بغير ما جاء عليه من التسامح والمحبة والرفق واللطف، بشحن النفوس بالبغضاء والكرهية حتى لم يسلم المسلمون من هذه الأحقاد والعداوات بسبب علماء الفرقة، وفقهاء الإجماع الذي شحنوا عقول الشباب بما ليس في الإسلام.

ولا شك أن بعض العقول يعيش فيها فكر التشدد، وعلاماتها جلافة في الطباع، وقساوة في الملامح، وغلاظة في الألفاظ، وشراسة في التحاور، وقطيعة مع المجتمع!! وخطرها لا يظهر في ظل السلطة القائمة، واليد الحازمة للدول فإذا سقطت رأيت الخطر الجسيم من هؤلاء الذين اختطفوا الدين، يقول د. عدنان إبراهيم: «يبدو لي أنهم طيبون ووادعون لأنهم مكبوتون، تحت سلطة القانون لكن حين ترتفع سطوة الدول كما في العراق وسوريا ترى وحوشاً تقطع رؤوساً، وأطفالاً يعلمون كيف يقطعون الرؤوس مع التكبير دائماً...!!» .

وليس بأمر الغلو والتشدد غريباً على الإسلام، فقد حذر منه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله: «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»^{٢١}، وقال عليه السلام: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»^{٢٢} .

إن الحديث عن أهمية مراجعة الإشكاليات التي علقنا بالخطاب الديني الذي قاد إلى تقديم الشكليات وتحريف مقاصد الشريعة السمحاء وإشاعة

٢١ أخرجه النسائي.

٢٢ أخرجه أبو داود.

فكر التزمت والغلو والتشدد لا يعفينا من تحميل بعض الحكومات مسؤولية ذلك في قضايا تتعلق بالعدالة الاجتماعية، وتنمية الإنسان، وإشاعة مبادئ العدل والحق والمساواة، وإهمال الأصوات المعتدلة، فكثير من مسببات تسويغ فكر الغلو لا يعود إلى نقص فهم للدين أو التحايل على النصوص في مجمله، بل وفي نتائج السياسات التي تتبعها بعض الدول فأنتجت تحريفاً متعمداً للدين!

إن من الرعونة الإعراض عن الدعوة لمراجعة الخطاب الديني؛ فالنتائج واضحة للعيان، والثمر جلي، ومن غير المنطق الحضيف تجاهل رأي المسلم في أمر دينه، ونظرتة إلى ما يصلحه، ومن غير المعقول أن يصادر البعض الدين ويحتكرونه لفهمهم واجتهادهم إلا أن يكونوا من أهل التخصص الذين يتوجب عليهم تبسيط الفكرة للناس، وتسهيل الفهم لهم، ومع ذلك فهناك من الثوابت ما لا يجوز فيه القول، ومنها المتغير الذي يقبل التأويل وإعادة القراءة والاجتهاد.

ولا يمكن للمسلمين أن يلقوا تبعات تراجعهم، والخلل الذي يتغلل في أنفسهم على الآخرين الذين لا يرثهم عاقل من تتبّع المصالح كيفما اتفق، هذا خطابٌ يجب أن يستبدل لأن قوة الأمة أو ضعفها عائدٌ إليها في أغلب الأسباب ثم إنها لن تستطيع أن تغير من توجهات غيرها إلا بتغيير توجهاتها «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١).

إشكالية الخطاب الإعلامي

تابعت لقاء مفتي أحد البلاد الإسلامية، وتبينت لي إشكاليات الخطاب الإعلامي في مجتمعاتنا وهو خطاب إما يوجهه أفراد خلف الستار أو يباشره أفراد بأنفسهم عياناً..! وقبل أن أسرد رأيي في الإشكاليات أودّ القول بأنني أنأى عن الشخصية وأعتمد المنهجية الموضوعية في طرح وجهة نظري. هذا إلى جانب أن حديثي عن إشكاليات الخطاب الإعلامي ليس وليد ساعة وإنما تراكمات متابعات ورصد للذهنية الإعلامية العربية في عمومها مع استثناءات لا يشملها التوصيف. بداية أقول بأننا كقوم لهم ثقافتهم المتميزة لا يفتح مغاليق صدورنا، ولا يدفعنا إلى التعبير عن مكنونات أفكارنا أكثر من الاستهلال الحميد. هكذا عُرف العرب من خلال شعرائهم في الجاهلية وما بعدها (وهم إعلاميو الأمة في ذلك الوقت). وقد حكى لي أحد الأجداد أن السلطان برغش بن سعيد بن سلطان قد مرّ بفترة مرض ثم شفي منها فدعى الشعراء فقدم أحدهم وقد وصل لتوه زنجبار فاستهل بقصيدة (الزينية) للإمام علي بن أبي طالب:

صرمت حبالك بعد وصلك زينب .. والدهر فيه تصرّم وتقلّب
فدع الصبا فلقد عداك زمانه .. وازهد فعمرك منه ولي الأطيب

فما كان من السلطان برغش إلا أن أسكته بصوت مجلجل لاستهلاله المشووم، فسأد صمت في المجلس وكأنّ على رؤوس جلاسه الطير! ثم دعا السلطان بشاعر آخر لينقذ الموقف، فقام وأنشد قصيدة المتنبي:

المجدّ عوفي إذا عوفيت والكرم .. وزال عنك إلى أعدائك الأثم
صحت بصحتك الغارات وابتهجت .. بها المكارم وانهلت بها الدئم

ويُحكى عن جرير أنه أنشد عبد الملك بن مروان مطلع قصيدته :
 أتصحوا أم فؤادك غير صاح .. عشية همّ صبحك بالرواح
 فما كان من عبد الملك بن مروان وقد استثقل الإستهلال إلا أن يردّ عليه:
 بل فؤادك .. !

وعوداً على اللقاء، فإن المحاور لم يحفل بقيمة الاستهلال اللطيف معرّفاً لضيفه أو سارداً لسيرته، أو معرّفاً مكانته، إن لم يكن مثنياً على علمه وتواضعه ومكانته ناهيكم عن أنه لم يُنزل الشيخ الجليل المكانة المرموقة التي يُنزل بها العلماء الجهابذة الأفاضل في بدء الحديث وختامه (حيث خلت مخاطبته من ألقاب التقدير كفضيلة الشيخ أو سماحة المفتي) وبدت مقاطعاته وملاحظاته سقطات غير لائقة، فظهر كجاهل مكانة الشيخ العلمية، فإذا به يلقي السؤال الكبير دون استهلال أو مقدّمات: كيف تقرأ مفهوم الوحدة في الإسلام وحال المسلمين؟! وسؤال بهذا الحجم الكبير أثار دهشتي كمتابع؛ فهو إلى جانب إمكانية طرحه بصورة غير نمطية إذ الوحدة مرتكز الدين وأساسه وهذه مُسلمة لا تحتاج إلى براهين، فالسؤال يحتاج إلى وقتٍ مديد لا يحتمله وقت البرنامج..! هذا الأمر يثير إشكالية النمطية في تكرار السؤال والمنهجية المستهلكة في الطرح والتي لا تثير جديداً لعدم إفرازها أسئلة جديدة وكأننا نشاهد مقابلة في القرن الماضي بسبب تقليدية الأسئلة!

وإذا كانت القضية «وحدة الأمة» والتي أكاد أجزم أنها أساس الدعوة إلى اللقاء، فإنها لم تكن إلا مطيةً للولوج إلى «المذهب الأباضي» وإثارة قضايا خلافية طبيعية، وهذه إشكالية أوقع فيها المحاور نفسه الذي عرّج من قضية

عامّة إلى خاصّة وكأنّ لسان حاله يقول: أنتم تؤمنون بوحدة الأمة لكنكم تختلفون مع مذهبها..! غير مدرك بأن الوحدة إنّما تكون في الأصول، في حين أن الاختلاف في الفروع وهذا أمرٌ طبيعي ما لم يعارض المنزل والسيرة النبوية المحقّقة..! الإشكالية الأخرى أن المحاور وهو يستمع إلى إجابات الشيخ المدعّم بالآيات القرآنية صنفها على أنها «تنظيرات»..! وهي لعمري الدستور الإلهي المرسل لتنظيم حياة العباد فكيف بها تكون تنظيرات وهي ما يؤسس لعلاقات الناس واقعاً، ويصلح حالهم معاشاً، ويوحّد شملهم أمّا؟! كيف بإصلاح حال الأمة أن يتمّ إلا بالعودة إلى دستورها القويم..؟! قال النبي صلى الله عليه وسلم «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله»^{٢٣}.

أمّا الإشكالية الأخرى التي يؤسفني أن يثيرها محاور شاب في هذا العصر الحديث إنّما هي فتنة قديمة تعود إلى زمن الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد، حيث أدخلت الأمة في جدلٍ عقيم ضيّع عليها أوقاتها وأهدر دماءً أفاضلها حول خلق القرآن من عدمه..! فهل يُعقل أن نسمع من محاور يدّعي عصريّة الأفكار مثل هذه القضايا التي لا تخدم الأمة في شيء أكثر من إثارة البلبلة من المتعصبين..!! ويواصل المحاور إثارة ما لا تخدم إثارته من استرجاع قصّة الشيخ مع ابن باز قبل عشرين عاماً..! فلصالح من يعيد هذا الذي يبحث عن وحدة الأمة وسبب تفرّقها؟! كما أنّه يثير قضيةً أخرى لا تمتّ إلى موضوع الوحدة بصلة وهي «رؤية الله في الآخرة» وهي قضية لا أحبّد شخصياً للأمة أن تخوض فيها لأنّها من الغيبات التي وإن اجتهد

٢٣ حديث شريف رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله.

فيها أهل العلم فإنها لله وحده وهي ملكه سبحانه لا يملك الناس القول الفصل فيها!

كما أن إشكالية أخرى أوقع فيها المحاور نفسه وهي طلب الإجابة بنعم أو لا وكأنه قدّم للضيف أسئلة مدرسية بسؤال: أجب بنعم أو لا...!! والمعلوم أنه لا يمكن التعاطي في بعض الإجابات بصورة حدية؛ سواد أو بياض، فقد تخفي هذه الطريقة تفاصيل مهمة لا يمكن تجاوزها لهذا يجدر التفصيل والتعليل فقبول الإجابة في كلمة مقتضبة قد يثير الغموض ويبعث على التساؤل، ويترها عن جزئياتها..! فكيف لمحاور أن يسأل ما يستلزم التفصيل ثم لا يريد أنه يتقصّد إيصال معلومة ناقصة لهدف ما..! إذن فقصده هنا ليس معرفياً بل مجرد تصريحات مبتورة!

إن مثل هذا اللقاء رغم استضافته لشخصية لها وزنها التاريخي، فقد رسّخ لإشكالية الخطاب في مجتمعاتنا، خطاباً انتهجه بعض الإعلاميين الذي تسنّموا منابر الإعلام، أولئك الذين يبحثون - كما تبحث نشرات الأخبار - عن التفجيرات والقتلى والحروب والشقاق والاختصاص..! فليس بعيداً عن هذا اللقاء فقد كنت أتابع حواراً آخر مع أحد القامات العربية حيث ظهر لي المحاور وكأنه محقق يدبر تحقيقاً مع الضيف المتهم، حيث أخذ يكيل له الاتهامات والضيف/المتهم يدفع عن نفسه التهم..! حتى قال للمحاور: إنك تثير أسئلة المخالفين وهم نادرون وتنفخها كالفقاعات، وتغفل عن الأغلبية الصامتة!

أية منهجية إعلامية هذه التي يتبعها بعض هؤلاء الذين لا يبحثون عن المعرفة، ولا يريدون للأمة أن تتقدم وإنما يجرونها للخلف حول مقولة فلان

«صاحب الشخصية الافتراضية واللقب الفلاني في وسائل التواصل»، وقد أخبرني أحد المقربين بأنه تلقى اتصالاً من مذيع كان يعدُّ للقائي يبحث فيه عن إشكاليات يثيرها أثناء اللقاء...!! في حين قال لي محاورٌ آخر بأنه اكتشف أن نجاح المحاور إنما يعتمد على إثارة الاتهامات لمضيفه!

إن الأمة بحاجة إلى خطاب إعلامي رصين، يضع في اعتباره أن يتقدم بالأمة لا أن يجرّها إلى قضايا خلافية لا ينفع أحداً الخوض فيها.. فما هي مصلحة الأمة في التركيز على اختلافاتها وليس على اتفاقاتها وهي أكثر كما قال سماحة الشيخ - نفعنا الله به. الأمة بحاجة لأن يتسنم منابرها الإعلامية من يصلح حالها بالنصح والتقريب في وجهات النظر لا بتضخيم الفوارق وتصويرها كسدود لا يمكن هدمها أو تجاوزها..! الإعلام وسيلة إصلاح وتوجيه وتربية قبل أن يكون معول هدم، ووسيلة تفريق، وأداة تعميق للخلافات، وإثارة النزعات، والتعصبات.. وعلى هذا الأساس فإن الخطاب الإعلامي يجب أن يكون مطية للأمة نحو التقدم، ومركباً نحو التحديث؛ فالأمة الأخرى كالأوروبية تجاوزت خلافاتها لتتحد، وتركت ما يفرقها لصالح ما يوحد شملها فما بالنا نحن المسلمين نركّز على ما يفرقنا أكثر مما يجمعنا؟! الإعلام هو من يحتاج للإصلاح لكي يقود الأمة إلى ما يوحدّها إذ كيف به يوحد والنوايا المغرضة تقوده؟! وكيف به يجمع وهو ينبش في الماضي عن فتن؟! وكيف به يعيد لحمة الصف وهو يثير النزعات ويبحث عن تصريحات مدوِّية؟! إن من أدبيات الحوار أن يذكر بنقاط الائتلاف لا نقاط الاختلاف..! فكيف يسأل محاورٌ بعدئذٍ ما الذي أضرّ بوحدة المسلمين؟!!



التنفيذ



يقال: لا يحتاج الإسلام إلى من يدافع عنه، وأقول: بلى يحتاج...!!
يحتاج إلى الدِّفاع عنه لأنَّه أضحي ضحيَّة أهواء، وأمزجة، وتجاذبات،
وعصبيات، وتفسيرَ تميلُ به إلى التشدّد والتعسير أكثر بكثيرٍ عن الليونة
واللطف والتيسير...! فما نشاهدهُ اليومَ من أفعالٍ يرتكبها بعض المجرمين
الذين ينسبون لأنفسهم امتلاك حقيقة الدين ليؤلم القلبَ المسلم لله من حرق
إنسانٍ مسلم حيٍّ، أو ذبح أسير، أو التنكيل بمخن الجراح، أو اغتصاب
شرفٍ، أو انتهاك حرّمت، أو سرقة أملاك، باسم الله والشرعة الغراء!

وما يحدثُ من هذه الفظاظات العدوانية، والغلاظات الشيطانية لمرّدّه إلى
ما يدّعي بعض العلماء أنّه الإسلام الصحيح، فيسقون مشاربه لأتباعهم
الذين تخدّرت عقولهم لكلّ ما يردُّ من هؤلاء المتفقيهِين الجهلة الذين
صادروا جمال الإسلام وسكينته ورحمته التي نفثها الله في روحه...!
فأوهموا النَّاس أن الدين هو قطع الرقاب، وحرق البشر، وسبي النساء،
وسلبُ الأرزاق، والتنكيل بأهل الدِّمة، وتعريق الأمة في مستنقعات الجهل
والتخلف والضلالة والظلامية

ومرّد ذلك إلى الحكومات التي لم تعرف كيف تتعامل باتزانٍ وعقلانيةٍ مع
الأنظمة التربوية والتعليمية والمؤسسات الدينية والثقافية التي تغذي النشء
والشباب بأفكارٍ لا تأخذُ من الإسلام إلّا قشوره، وتفسيره المبسّرة، فلا
ترى في المجتمعات المعاصرة إلّا الفجور والفواحش والمعاصي والكبائر
والمنكرات، ولا يخالجهما في نفوسها إلّا الشؤم والقنوط من الناس، ولا تبصرُ
إلا الانحرافات والضلالات فتحسبُ أن الدنيا قد انحرفت، والقلوبُ قد
صبّت، وأن عليها إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح بالسكين، والموس،
والقنبلة، والنار!

إن التشدد الذي يتلبس رداءه من يزعم الالتزام بالدين هو الانحراف ذاته عن جادة الإسلام، يقول الشيخ الحبيب الجفري «بعض إخواننا -هداهم الله- كلما التزم اكفهر وجهه أكثر، وكلما التزم أكثر صار حاداً مع الناس أكثر، وكلما التزم أكثر احتقر المجتمع أكثر، وكلما التزم أكثر صار قاسياً مع أقاربه غير الملتزمين أكثر.. من أين جاء هذا؟! ما هكذا كان الالتزام...!.

إن أخذ الإسلام مأخذ القسر والقسوة والإكراه لهو مما ينافي جوهر رسالته، وهو ما حذر الله عز وجل منه رسوله الكريم بقوله سبحانه «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩).

وإنَّ أخذه مأخذ القشور دون اللباب، ونشر الفتاوي التي إما يحملها الناس على سطحية اجتهاداتها، أو يحملونها محملاً دون مقاصدها لهي مما أسهم في إثارة البلبلة والفوضى لأنها ترجع العقيدة إلى مسقى واحد من رجل مجتهد يصيب ويخطئ مع حسن النوايا...! أخذوها من هذا المسقى وكأنها الفهم الأصل للدين، وحقيقته التي لا لبس فيها، ولم يأخذوها على أنها اجتهاد له وعليه حسب قاعدة الشافعي «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب.

هذا مما يستوجب الحذر منه؛ لأنه أودى بشباب الأمة إلى المهالك، فارتدت تلك الأُسنة التي حددها وشحذها أولئك المسمون بالعلماء إلى نحورهم وإلى مجتمعاتهم بالوعيد والتشهير، والويل والتكفير...! قلت في كلمة سابقة

«إن أخطر المخاطر وعي زائف، ومعرفة دون عمل، وحياة دون هدف، وتمسك بالقشور دون اللبّاب، والتمظهر دون اكتراث بالجوهر..!»

هذا ما هو حادث؛ ولقد حادت الأمة بسبب حمل الإسلام على يد من يزعمون العلم بالإسلام، وامتلاك سرّه المقدّس محمل الغلظة والفظاظة حتى ألقوا بكل أخطائهم وأخطاء أتباعهم على غيرهم ممن خالفهم في فهم الدين، أو تفسير العقيدة، أو الاجتهاد في الفقه، أو ممن خالفهم في الدين والمعتقد!

لا ليس هذا هو الإسلام.. لا تكرّهوا الناس في ديننا أصلح الله شأنكم، فليس ديننا دين قطع الرقاب، والحراب، والتهديد والعقاب، بل هو دين الرأفة والسلام والمحبة والوئام.

لا يمكن أن تربوا الأمة على غلاظة الفهم للدين، فينشأ جيل يحسب أنه ملتزم بالدين، محتقن الأوداج، مكفهر الوجوه، مقطّب القسمات، قاسي العبارات، لا يتفتّر وجهه عن ابتسام، ولا تنضح نفسه عن سلام!

لا يمكن أن تدعوا امتلاككم الحصري لحقيقة الدين فتأولوها تأويل القسوة والشدة والتعسير! فإن كنتم تحبون الله عن صدق فعلموا الناس محبة الله قبل الخوف منه.

علموهم أن الدين عفو وغفران قبل أن يكون وبلاً وثبوراً

علّموهم الدعاءَ بصلاحِ النفوسِ بديلاً عن الدعوةِ على الأعداءِ بتجميدِ الدماءِ وشلّ الأعضاء!

علّموهم أن نبينا نبي الرحمة واللين ليس نبي السيف والسكين.

علّموهم أن «الدين الخلق» والخلق هو ما لأن من الطباع، وما رقّ من السجايا.

علّموهم أن الإسلام يسرّ وليس عسراً، وأن الاجتهاد فيه ليس حكراً على أحد دون أحد، وأنه لا امتلاك للملكية عقديّة فيه إلا لكتاب الله وسنته الصحيحة المؤكدة التي لها موثق في الكتاب، وأصل في العقيدة، ومسنّد قوي.

علّموهم أخذ الدين في جوهره وليس في مظهره، وأن غايته نشر الأخلاق الرفيعة للعالم، وليس غايته المظاهر والهيئات.

علّموهم قوله تعالى: «وقولوا للنّاس حسناً» (البقرة: ٨٣)، بديلاً عن جفوة العبارة، وحادّة القول.

علّموهم أن الالتزام الحقّ بالدين رفعة في الأخلاق، ورقّي في المعاملة، وليس جفاءً في الوجوه، وقسوة في القلوب.

علّموهم أن الدين سماحة ولطف وليس جلافة واستبداد.

تمعنوا وأطيلوا النظرَ في كلِّ فتوى قبل إطلاقها، فإنكم مسؤولون عنها عند الله إن حُمِلَتْ على محملها أو بغيرِ محملها..! فليس أضرَّ على الأمةِ من إطلاقِ فتوى دون تمعنٍ بالأسبابِ، وإدراكٍ بالمغازي، وإحاطةٍ بالمقاصد.

ما أجمل أن يُعلِّمَ النشءَ والفتيانُ هذه المبادئِ الجليلةَ العظيمةَ عن الإسلامِ ليرتقوا بأنفسهم فيرتقوا بمعانيه ويعتلوا بحراميه.

* * *

الحاجةُ إلى التغيير..!

كأنما قد أصابَ الحَذَرُ مجتمعاتنا، وشلَّ أعضائها الفتور؛ فهي كالناظرِ بعينٍ لما يحدثُ دون حراكٍ، وكأنَّها مستكينَّةٌ لقدرها، مستسلمةٌ لمصيرها كالسفينةِ التي انكسرت دَفَّةُ قيادتها فتلاعبت بها الأمواجُ الهادرة..! فتشَدَّدَ في الدِّينِ من جهةٍ، وتَفَسَّخَ منه وانزياحٌ عن القيمِ الإنسانيةِ السَّويةِ من جهةٍ أخرى..! أمَّا التشدُّدُ الديني فهو نتيجة خللٍ في فهمِ الدِّينِ أصولاً ومناهج، يقول الشيخ محمد الغزالي:

«ما أيسر الإسلام وأيسر أركانه، وما أصدق عقائده وشرائعه. لولا ما أضافه أتباعه من عنده أنفسهم، واشترطوا على الناس أن يأخذوا به ويدخلوا فيه..». لقد علَّمنا منذُ نعمةِ أظفارنا كيف نصلي ولكن لم نُعلِّم لما ذا نصلي، وبهذا أصبحت الصلاةُ حرَكاتٍ مجرَّدةً عند كثيرين منَّا يؤدونها دون معنىٍ روحي، ولا أثرٍ نفسي، أو سلوكي؛ فليس لذلك فاعليَّةٌ في حياته..! وإلى الحجِّ يسيرُ الحجاجُ زرافاتٍ سنوياً وجلَّهم لا يفقه المعاني الروحية السامية

للطوافِ سبعاً، والسعي سبعاً والرمي سبعاً ولا يعي معنى الوقوف في عرفة! يعودون حجاجاً دون أن يكتنھوا عميق معاني الحج، فكيف تتغير حياة الإنسان إن لم يع معنى ما قام به...؟! ويخرج من رمضان الأغلب كما دخله غير زائد ولا ناقص وكأثما كان رمضان محطة تقنين لوجبات الطعام والشراب ليس إلا...!

ترك الناس لحالهم، بين مجتهد حمله اجتهاده إلى اكتناه المعاني، فانطبع ذلك في سلوكه، وبين تابع لا يعمل عقله، فهو لما يملأ عليه من شيوخه كأثما هو النص المقدس الذي لا يجوز قلب العقل فيه، وتمحيصه...! حتى إني حضرت مجلساً قال فيه أحدهم: لا يجب أن يؤخذ كل ما يقال عن العالم الفلاني مأخذ القطع والثبات، فردّ عليه أحدهم حانقاً: أنت تهكم على علمائنا...! فأجابه: وأنتم ترفعون العلماء إلى منزلة الأنبياء فتزهدونهم عن خطأ الاجتهاد!

إن فهم الدين على يسره، وسهولته مردّه إلى فهم أصوله ومعاني تشريعاته لا أخذها بالظاهر حتى لا يصير التشدد سمة من سمات الإسلام، ولا التطرف صفة في المسلمين، فوالله ما أضرّ بالإسلام إلا هؤلاء المتشددون الذي يحسبون أنفسهم أوصياء على الدين فيوغلوا في التشدد فيه، فينفروا الناس منه بقلبهم القضايا العظيمة في الدين فروعاً، والأمور الخلافية البسيطة جذوراً...! يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة مادام لا يوجد بديل أفضل! هل البديل الأفضل جلاب قبصر ولحية كثة؟ أم عقل أذكى وقلب أنقى، وخلق أذكى وفطرة أسلم وسيرة أحكم؟ لقد نجح بعض

الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعها أو جذورا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقا تتساقط مع الرياح!».

إنها لحقبة محزنة في تاريخ الإسلام أن يكون ممن يزعمون انتماءهم إليه فئة تزعم أنها هي دولة الخلافة الإسلامية فتفسد في الأرض وتهلك الحرث والنسل باسم الإسلام وهو بريء من أفعالهم الإجرامية، فيحشد العالم بما فيه المسلمون قواتهم لقتال «الدولة الإسلامية»...! وأقول إن هذه الفئة تولد يومياً على يد من يسمون بدعاة أو علماء ينظر إليهم الناس على أنهم قدوته في الهدى والتقى والصلاح فإذا هم قادة تشدد، وزعماء تطرف...! لقد كان أولى بالعلماء أو الدعاة الرفق في الدين، والرحمة بالأمة، والشفقة بمصائر العباد كما يقول سبحانه: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (النحل: ١٢٥).

إن ما يحدث ليحتاج إلى وقفة عميقة لا أجد أن مجتمعاتنا جادة لها، ولا مكرثة بقيمتها وأهميتها لأننا لا نلمس تغييراً جوهرياً في الخطاب الديني، والفكر الإعلامي، والمنهج التعليمي، والبرامج الاجتماعية، والتخطيط الاقتصادي...! ينظر كل مجتمع إلى الآخر المصاب فيحسب أنه في منأى عن الإصابة بينما يقول مثلنا العُماني العميق: «إذا رأيت جارك يحلق، بلّ رأسك» أي رطبه بالماء تهيؤاً للحلق!

إن نواتج التشدد مجافية لجوهر ما يدعو إليه الإسلام، ومنافية لتعاليمه ورسالته، يقول الداعية الشيخ حمزة يوسف (مارك هانسن سابقاً) في

كلام مؤثر: «أنا لم أعتنق الثأر والبغض والكراهية، ليس عندي شك بأن الله سينصرنا ولكن هذا النصر سيكون مع الحلم».. هذا الرجل وأمثاله اعتنقوا الدين «قناعة» لأنهم اكتنحوا جوهره، وعقلوا لبه، فشغفوا برسالته، وأسلموا أنفسهم له. أما بعض الذين تسمّوا بالمسلمين دون أن يعرفوا قيمة الدين ولا منهجه ولا شرعته فأخذوه بظاهره، فأحلّوا وحرّموا كما شاءوا فأولئك وبألّ على الأمة أكثر من أعدائها، حتى إذا ما احتشدت القوى العظمى لضرب معاقلهم، قالوا لقد جاؤوا لنهب ثرواتنا، وتقرير مصيرنا، وسلب مكتسباتنا..! وأقول: لقد قدمتم لهم الدعوات، ومهدّتم لهم الذرائع، وأفسحتم له الضيافات بسبب من نظامكم العشائري الذي يقدّم الوجاهات، والمشيخات على مصالح الأوطان، وبسبب من نظامكم المذهبي الذي يقصي المذهب الفلاني ويقدم المذهب الفلاني دون أن يضع في الاعتبار منفعة الوطن، ووحدة الصفّ فيه، وبسبب من النظام السياسي القائم على تهميش طائفة وتقريب أخرى، وبسبب من تعليمكم القائم على الماضي البعيد وليس على المستقبل الواعد. هذه جميعها أنتجت تشدداً في الدين أو تفسخاً منه. أما من صلح فبرحمة من الله، يقول الغزالي رحمه الله: «لقد ابتلي الإسلام بأعداء ينتقصون أطرافه من الخارج، كما ابتلي بأعداء يشوهون حقائقه من الداخل، ولعل العدو الداخلي أنكى من العدو الخارجي..!»

إذن فقد كان قرار الأمة بيدها؛ فالجاني على نفسه بكل ما سبق يحصد اليوم نتيجة ما زرع، ولا يعيب إلا نفسه. أمّا المصيبة فإن من كان وراء التغير بالشباب، والدفع بهم إلى مواقع الهلاك، والتضحية بهم لأجل مآرب خاسرة هم اليوم في مأمن يرتعون..! فيا للعار، ليتهم انكفؤوا

على أنفسهم، واستحووا من قبيح أفعالهم، لكنهم لا يزالون يتصدرون
الواجهات وإن بخطاب مبطن النوايا، ملتوي المعاني!

أما المتفسخون فأولئك ضحية أخرى لأنهم تبعوا غوغاء ثقافات أخرى،
واققدوا بداهم من سخفاء العقول، وأصنام الموضات، وأرباب التقليدات،
فهؤلاء ضحية من الطرف الآخر كأولئك، لكنهم مع ذلك بسطاء الفكر،
لا شحناء تملأ قلوبهم، ولا ضغينة تدفعهم للثأر والانتقام وارتكاب فظائع،
وعلى هذا فإن عودتهم إلى حوزة الإسلام أسهل وأيسر.

لا بد للأمة اليوم أن تستنفر كل قواها، وكافة أجهزتها، وجميع إمكاناتها
لوضع النصاب في محلّه السوي، وتنشئة الشباب نشأة قويمة. لا بد للأمة
من عقول مستنيرة غير منغلقة تقود زمام الأمور فيها في جميع شؤونها،
فقد أبقتها العقول المتقوغة المنغلقة في برائن الجمود...! لا بد للأمة من
مجددين ينشؤون فيها خطايباتها المستنيرة، ويؤسسون منهجياتها العملية
السليمة في إطار فهم معتدل، وسطي، صادق، نقي للإسلام، فقد كفى
الأمة إضاعتها الوقت في خلافات لا تقدم بل تؤخر، وكفاها إضاعة
الموارد البشرية والطبيعية فيما أوردتها موارد الخسارة أمام الشعوب المتقدمة
حتى صارت مثار سخرية، وموضع تهكم.. وكفاها أن تمر عليها السنون،
وتشردمها الأحداث دون أن تلامس التغيير!



الانتكالية



تقول الأكاديمية السعودية د. خولة الكريع في منتدى الغد: تعلّمتُ درساً من معلّمة ابني في أمريكا؛ فقد كنت أثناء وجودي هناك أمارسُ الضغط على ابني في أداء الواجبات ليكملها بامتياز ودون تأخير ليحرز أفضل النتائج، فقالت لي المعلمة الأمريكية: إنني أرى الواجبات المدرسية تحلُّ بانتظام كاملة دون نقص .. قلت لها: أنا أساعده في حلّها وأضغطُ عليه.. فقالت المعلمة: من الخير له أن يحرز مستوى (ب) وقد اعتمد على نفسه من أن يحرز (أ) وهو معتمد عليك!!

إن ثقافة الاعتماد على الآخر وعدم الاعتماد على الذات متفشية في المجتمعات العربية الإسلامية، فأنتجت الاتكالية على الآخرين والاعتماد عليهم، بل والتبرّم منهم والغضب منهم إن لم يقوموا بأداء الواجب بالإتابة والوكالة..! وما المحسوبة ولا الوسطة إلا نتيجة لثقافة الاتكالية والاعتماد على الغير!

هي ثقافة نشأت في البيوت حيثُ الطفلُ في نظر والديه لا يستطيعُ أن يحرّك ساكناً، ولا يقدرُ أن يعملَ شيئاً، إمّا بسبب العاطفة غير الواعية، أو التدليل المفرط، أو الثقة المسلوقة. لذلك فإنه ينشأ وقد كبر في نفسه الإحساس بأنه عاجزٌ، وفاقدٌ للثقة في نفسه..! الواجبات لا يحلّها إلا بالاعتماد على الوالدين أو أحدهما، ولو ترك ليحلّها بنفسه فهل سيقابل في المدرسة بنفس فكر المعلمة الأمريكية..؟! يكبر ليصبح فتى فأبواه ينتقيان له ما يلبس، وما يختارُ من حوائج الطعام والمشرب وغيرها، ليصبح معتمداً تمام الاعتماد على والديه على حساب ثقته في نفسه، أو تعلّمه من تجاربه، ومع ذلك فإن الوالدين يتضجّران من عبء المسؤولية، وثقلها على كاهلها!

لهذا؛ فإن الابن ينسى الواجبات ويتذكر فقط الحقوق لأنه عودَ على الحصول على الحقوق دون حثّه على السعي نحو قضاء الواجبات، وإبقائه في دور المتفرّج الذي لا يقوم بأيّ دور..! هذا السلوك الممتد يقوده لاحقاً إلى الغشّ في الامتحانات لأنّ والديه لا يستطيعان الحضور إلى قاعة الامتحان لمساعدته ولو استطاعا الدخول لما تردداً وحلاً عنه الامتحان وتركاه يتفرّج، ثم يفرح بالإنجاز والشهادة لاحقاً!

هذه الثقافة تستمرّ معه كإنسان في حياته فتجده يتصيد أفكار المجتهدين، وحصاد نجاحاتهم لينسبها إليه، ليغطي العجز الذي يشعر به داخلياً، وليظهر للناس أنه صاحب إنجازات مرموقة في المجتمع، ثم ما يلبث أن يلهث وراء الشهادات العليا من كلّ باب فالأقلام المأجورة تغنيه عن الاعتماد على ذاته من أجل إحراز إنجاز يتباهى به بين الناس..! أمّا عن المصالح فإن المفاتيح الاجتماعية التي بحوزته تستطيع أن تؤمّن له دخلاً مريحاً من الأبواب الأمامية والخلفية للحصول عليها وتحقيق المكاسب الشخصية التي تُنسب له فيما بعد على أنها نجاحات فردية، وينظرُ إليه على أنه إنسان عصامي في نظر المجتمع، وتحسبُ إنجازاته على أنها صورةٌ من صور الاعتماد على الذات، والثقة بالنفس وهي في الحقيقة زيفٌ مصطنع بُني على أساس هشٍّ من أجل الواجهة الاجتماعية!

إن مرحلة «القطام النفسي» التي قصدها العالم النفساني الفرنسي مورييس دبس هي مرحلة البلوغ التي يميلُ فيها الشاب المراهق إلى الاستقلالية في القرار، والتفرد في اتخاذه، والرغبة في إظهار قدراته الشخصية، وسماته الفردية، التي تفصله عن الكبار، هذه المرحلة جدُّ خطيرة «مرحلة المراهقة»؛

لأنها تُظهر نتائج التربية التي تربّأها في سنّهِ الأولى، ومدى نطاق المسؤولية التي حمّل إياها من قبل والديه ودرجة الاعتماد على الذات أو الاتكالية، وليس غريباً أن ينحرف بعض الفتيان في هذه المرحلة لأنهم يحاولون الاستقلال دون قاعدة رصينة، ويتمردون دون وجود قيمٍ قويمَةٍ موجهة للسلوك السوي!

هذه الثقافة العقيمة أنشأت أجيالاً عاجزة، تنظر للحياة نظرةً ورديةً حاملة، تفتقد إلى الشعور بالمسؤولية لأنها لم تُعوّد على الاعتماد على الذات، والثقة بالنفس، والالتزام الذاتي؛ فهي في كل شأنٍ من شؤون حياتها تبحث عن طرفٍ آخر تعتمد عليه، وتلقي إليه بكل ما تريد، وتحمله إخفاقاتها، فإن وجدته فقد وجدت ضالتها فيه، فهي لا تتورع عن الإلحاح في طلب المساعدة منه فإن تعذّر انقلب إلى عدوّ مبين...! وتلك النظرة ما كانت لتكون لو أن الإنسان تربّى على الاعتماد على نفسه والتوكّل على الله، فالله سبحانه وتعالى يقول: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» (الطلاق: ٣) والنبى الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يقول: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»^{٢٤} ويقول: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ (فَيَبِيعَهَا) فَيَكُفَّ (الله) بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ (أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ)»، فديننا يرّبّي الفرد على الاعتماد على النفس، والتوكّل على الله لكننا أردنا طريقاً آخر حين حسبنا أن قضاء الحوائج في طريق الإيمان يحتاج إلى تصبّرٍ ورضا وقناعةٍ ومجاهدة...! أردنا السهل الذي

٢٤ أحمد، النسائي، ابن ماجه، الحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح.

يأتي دون جهد، والمستساغ الذي ينساب دون مرارة، واليسير الذي يكون دون شقاء وكفاح.. فكيف نباهي بما نسّميه نجاحاً إن لم يكن إنجازاً قد تم بأيادينا؟! وكيف نفرح بالعمل إن لم يتمزج بالآلى عرقنا؟! وكيف نتشدد بالكفاح إن لم يوصلنا إليه جسر النصب، والعناء؟!

إن ثقافة الاعتماد على الذات محبطة للإنسان منذ ولادته حتى موته، فهي تقتل في نفسه المبادرة، وهي تزيف له الكبرياء الواهم، وتصنع له الواجهة الخادعة، لهذا فإنه لا مناص من تغيير هذه الظاهرة المتأصلة في مجتمعاتنا وذلك بتعزيز قيم المسؤولية والاعتماد على الذات، والتوكل على الله، والثقة بالنفس، والالتزام الذاتي، واستبدال فكرة التعليم بمنهجية التعلم الذاتي لكي يصبح الفرد معتمداً على ذاته في تعلمه وليس معتمداً على معلمه فيتحرر من «التعليم البنكي» الذي هو عبارة عن إيداع وسحب المعلومات..! وتقويم الذات بدلاً من الركون إلى التعلل بالمؤامرات..! وتغيير النظرة إلى الطفل بأنه لا يفهم ولا يعي ولا يعقل ولا يقدر إلى صانع حضارة، إلى صاحب إمكانيات وقدرات، يقول إيريك فروم: «لا شيء أكثر تأثيراً وفاعلية في سحق معنويات الفرد من إقناعه بأنه تافه ورديء»..!

وما لا يعرفه الكثيرون أن شخصية الإنسان تتشكل بنسبة ٩٠ بالمئة في سنوات الست الأولى من حياته، يقول الكاتب الروسي تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠): «إن الطفل يستقي من الوسط المحيط به منذ ولادته وحتى سن الخامسة، أكثر لعقله ومشاعره وإرادته وطباعه مما يستقيه منذ الخامسة وحتى نهاية عمره»..!! لهذا فبقدر ما يربى على الاعتماد على الذات أو الآخرين ينشأ، وبقدر ما يحمل المسؤولية أو يتنصل منها يكبر، وبحسب ما ينمى على الثقة بنفسه أو تُسلب منه ينمو.

فإذا كنا نؤمنُ أن «العلم في الصغر كالنقش في الحجر، والعلم في الكبر كالنفس في الماء»، ونعتقد يقيناً بأن «ضربة واحدة على الجذور خير من ألف ضربة على الأغصان» فإن تغيير هذه الثقافة المريضة لابد وأن يكون في بواكير التنشئة، لكي تتخلص مجتمعاتنا من الاتكالية والتسويق والواسطة والمحسوبية وغيرها من الأمراض المشينة التي أنهكتها وآخرتها في مسيرتها الحضارية!

* * *

ذكر الكاتب محمد حسنين هيكل حكاية طريفة في أحد مقالاته أن اللورد كرومر المعتمد العام البريطاني في مصر (القنصل العام) إبان الاستعمار، كان مدعواً لإحدى حفلات الزفاف المصرية، مع زعيم ثورة ١٩١٩م سعد زغلول، وكان يستمع لأغنية مشهورة للمطرب عبده الحامولي يقول مطلعها: «حبيبي راح هاتوه لي يا ناس» دفعه الفضول لمعرفة معنى العبارة، وطلب ترجمتها، عندها علّق مندهشاً قائلاً: حتى في العشق لا يُكلف المحب خاطره للبحث عن حبيبه، طالبا من الناس أن يجيئوا به إليه!!

* * *

تقفُ السيّارة تلو السيّارة عند مطعم أو مقهى، وتتصاعدُ الأبواقُ منها؛ إذ لا يكلفُ شابٌ أنعمَ الله عليه بالصحة والقوة نفسه بالارتجال من سيّارته لأن المكوث في السيارة والضغط على بوق السيارة وحضور العامل إليه يعتبره نوعاً من الرفاهية، والشعورُ بالأبهة...! وما هو في الحقيقة إلا صورةٌ تجسّد الاتكالية في مجتمعنا...! وتعقياً على هذا يورد أحدهم قصّة يقول فيها إن عاملاً أجنبياً سأل زميله في أحد المطاعم: لماذا تقوم بخدمة هؤلاء

الشباب في سياراتهم ولا تتركهم ينزلون ليعخدموا أنفسهم، فردّ عليه: دعهم على حالهم هذه فذاك من مصلحتنا؛ إذ لو نزلوا فلن نجد عملاً أنا وأنت في هذه البلاد، وهكذا فكلما زادت اتكاليّتهم زادت حاجتهم إلينا، ومكثنا فيها فترةً أطول!

الاتكالية هي اعتماد المرء على غيره، وشعوره بالخور^{٢٥} في القيام بعمل ما، لنشأة نشأ عليها، وطبع تطبع عليه. ولعل اشتراك البيئات الثلاثة: البيت والمدرسة والبيئة الخارجيّة قد أوجد الإنسان الاتكالي الذي يكثرُ نخطه في مجتمعاتنا العربية.

الأسرة معقل الاتكالية:

استشرت الاتكالية في مجتمعاتنا وتعددت صورها، وتلوّنت أشكالها. ولا شك أن مرضها قد بدأ في إطار الأسرة فأضعف الاستقلال الذاتي للطفل، وخلخل الثقة التي يحاول بناءها في نفسه، ف«العائلة لا تتيح للطفل سوى مجال ضيق لتحقيق استقلاله الذاتي، فإذا حاول الطفل تسلق الدرج أو فتح الباب أو زحزحة الكرسي يجد من يقوم بهذا العمل بدلاً عنه، وكذلك فهو سرعان ما يتعلم العزوف عن النشاط المستقل، منتظراً من الآخرين أن يقوموا بالأعمال التي يتوجب عليه القيام بها، ومن نتائج ذلك أن الإفراط في الاتكال يؤدي عند معظم الأطفال إلى شعور بالعجز، كما يؤدي عند البعض إلى استغراق الطفل في ذاته واكتساب عادة الخجل وأشكال أخرى من السلوك الاجتماعي»^{٢٦}

٢٥ الضعف والفتور والانكسار

٢٦ هشام شرابي «مقدمات لدراسة المجتمع العربي» ط٣، الدار المتحدة للنشر، لبنان، ١٩٨٤، ص ٤٠.

وحيثما أبدى أحد الآباء تدمرهُ الشديد، وضيقة من اتكالية أبنائه عليه دون مبادرتهم بمساعدته في أداء بعض الأعمال، قال له صاحبه: أنت السبب...! أنت الذي عوّدتهم على ذلك منذ صغرهم على هذه الاتكالية، فلا تشكو أمراً كنت سببه!

يورد هشام شرابي الذي عاش في الغرب قصتين مشابھتين: الأولى حدثت في بوسطن بأمريكا حيث يشتكي الطفل لأمه أن طفل الجيران قد أخذ منه كرة البيسبول، فقالت له: أنصحك أن تعود إلى الملعب وتسترد الكرة منه وإلا غضب أبوك كثيراً...!. أما القصة المشابهة الأخرى فقد شهدتها في بلد عربي لطفل يشتكي لوالدته أن طفل الجيران قد أخذ لعبته فقالت له تطمئن: «انتظر حتى يجي أبوك، وشوف شو رح يعمل بهذا الولد الشيطان. هو رح يضربك إياه ورح يرّجّلك الطابة (الكرة) ما تخاف...»^{٢٧} هاتان القصتان تجسدان ثقافتين، الأولى: تكرّس الاتكالية، والثانية تعزّز الاعتماد على النفس.

لا شك أن «مرض» الاتكالية قد ترسّخ في مجتمعاتنا، وضرب بجذوره الأعماق النفسية والاجتماعية فيها...! فيشبُّ أبناء اتكاليين لا يعتمدون على أنفسهم فهم مقصّيون عن القرار، بعيدون عن تقرير ما يتعلّق بهم من ميول ورغبات وتوجّهات وطموحات، حتى يصل الواحد منهم إلى سنّته الأخيرة في المدرسة فلا يفكر ولا يبحث في التخصص الذي يحقق له طموحه بل يتكلّ على والديه ليقررا له التخصص الذي يناسبه (أو بالأحرى

^{٢٧} المصدر السابق، ص ١٠٦.

الذي يناسبهما) لأنه نشأ على الاتكالية، فيدفعُ ثمنًا باهظاً إن لم يتناغم التخصص مع رغباته وميوله وتوجهاته فيما بعد...! بل ويختار له الزوجة أو الزوج -في بعض الأحيان- حسبما يتوافق مع المعايير التي وضعوها وليعش هو عذابات التنافر بعد ذلك!

المدرسة تعزز الاتكالية:

وفي الإطار التعليمي، فإن الاتكالية تأخذ شكلاً آخر في التعاطي مع المعلومة؛ إذ إنها مقدّمة بصورة جاهزة كخطبة الجمعة لا تقبل الاجتهاد ولا الإضافة ولا الحذف، وحين يسعى الطالب لحلّ مسألة ما بطريقة أمثل فإنه لا يتلقّى التشجيع من معلّمه الذي تلقّاها في الأصل لقمة سائغة فيأتيه الردّ من معلمه: التزم بالطريقة التي علّمتك إياها!

هنا يكرّس المعلّم الاتكالية في الطالب، فلا يدفعه للاستقصاء والتفكير في المعلومة، والتدبّر في طرق أخرى للتعلّم، وهكذا تتجذّر الاتكالية في الطالب باعتماده الكلّي على ما يتلقّاه من معلّمه فلا يخرج عن (المقرّر) لأن الخروج عنه مدعاة للرسوب والفشل. يقول طالب: أفهم المعلومة عن طريق بحثي في وسائل متعددة غير درس المادة فأضيف إليه أبعاداً أخرى...! لكن المعلم حين يطلب بحثاً ما من الطالب فإن الأسرة هي التي تتصدى لعمل البحث وليس الطالب...! خشيةً من معاقبته إن قصّر...! غافلةً -أي الأسرة- عن أنها تعمّق من أثر الاتكالية لهذا تدفع الطالب فيما بعد إلى اللجوء إلى الغشّ في الاختبارات لأنه لا أحد يساعده فيها سوى (براشيمه)!

إن هذه الإشكالية ستتضح أكثر حين يسافر الطالب للدراسة في بلد أجنبي يعتمد في تعليمه على البحث أكثر مما يعتمد على تلقي المعلومة كلقمة سائغة يتتلعها الطالب دون هضم!

يخبرني أحد الطلاب الدارسين في الغرب منذ فترة وجيزة بأن زملاء له حفظوا المعلومة (عن ظهر قلب) لاجتياز الامتحان، أما هو فكان يسعى للفهم، فلما عُرضَ عليهم الامتحان إذا بسؤالين خارجين عن نطاق الأسئلة التي حفظ زملاؤه إجاباتها، وتعتمد على مدى فهم الطالب، فكان الأوفر حظاً في الإجابة. إن هذه الصورة تعبّر عن النظام الاجتماعي والتعليمي الذي نشأ عليه الطلاب المعتمدون على تلقي المعلومة الجاهزة؛ بحيث تغنيهم عن البحث والاستقصاء بغرض الفهم.

ثم تتعمق الاتكالية أكثر في بيئات العمل، فتجد أن كل من يلقي بجسده على الكرسي لا يودُّ مغادرته مصدراً الأوامر لهذا وذاك، طالباً من الغير القيام بالواجبات الوظيفية المناطة به!

وفي إحدى الفعاليات حيث دُعيتُ للحديث عن موضوع ما، إذا بمعلم يقف في وسط زملاء المهنة وما يقارب الثلاثمائة طالب وطالبة ليقول: هذا الجيل فاقد للمسؤولية، وفاقد الشيء لا يعطيه...! غافلاً عن أنه أحد الأسباب التي أضعفت روح المسؤولية في الجيل بما غرسه من اتكالية فيهم!

المجتمع يعمّق الاتكالية؛

وتتغرز روح الاتكالية في الفرد اجتماعياً في صور شتى حتى تصبح طبعاً من طباعه، فلا يستثمر الشاب طاقاته في شيء وإنما يتكل على الآخر

(الوافد في الغالب) في أغلبِ شؤونه، ولا ينتجُ شيئاً حتى ما يسدّ به رمقه، ويوفر له لقمة عيشه، لأن مجتمعاتنا أصبحت اتكالية لا تقوى على العمل، أصابها العجزُ في مقتل..! فانتشرت المحسوبيات والوساطات، وتراجعت معدلات الاعتماد على النفس، والثقة في قدرات الذات، وضعفت المبادرات فيه!

إن المجتمع إذا فقد قيمة الاعتماد على النفس كأساس من أسس التربية والتعليم فإن ذلك بلا شك سينشر مرض الاتكالية في جسد المجتمع والذي بدوره يصيب الفرد بالعجز فيشل حركته، ويقيّد تفكيره، ويدفن قدراته، ويشتت مواهبه، فيعمد للراحة والسكون والبلادة، فيضل المجتمع طريقه للتقدم الحضاري، ويتقهقر وراء ركب الأمم التي نشأت أجيالها على قيمة الاعتماد على النفس، وإدراك المسؤولية.

الإسلام يحارب الاتكالية:

«الأتكالية» كلمة منبوذة في الثقافة الإسلامية؛ لأن الإسلام يربّي أتباعه على العمل لا على الاعتماد على الغير. قال صلى الله عليه وسلم: «لأنَّ يَغْدُو أَحَدُكُمْ فَيَحْطَبُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِي بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»^{٢٨}

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده»^{٢٩} وقصة دخول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على شاب وهو يتعبد

٢٨ رواه أبو هريرة.

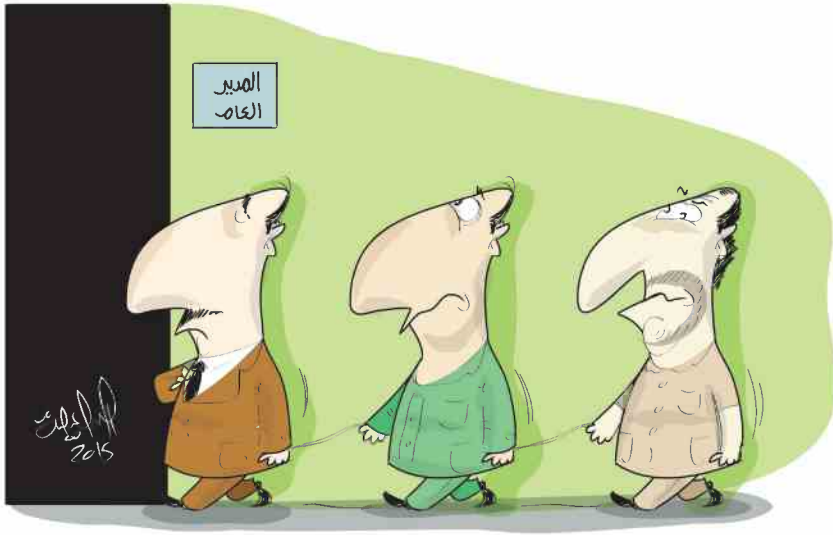
٢٩ ابن ماجه ٢١٣٨ وصححه الألباني.

في المسجد معروفة إذ دار بينهما الحوار التالي:
سيدنا عمر: ما عملك ومما تتكسّب؟!
الشاب: ليس لدي عمل..
سيدنا عمر: من ينفق عليك؟
الشاب: أخي ينفق عليّ
سيدنا عمر: أخوك خير منك!
ويقول رضي الله عنه: إني لأرى الرجل فيعجبني شكله، فإذا قيل لا عملَ
له سقط من عيني).

إذن فإن داء الاتكالية قد استشرى في الأمة بعد أن تخلّت عن الممارسة
العملية لقيمة الاعتماد على الذات فنبذت العمل، وركنت إلى الخمول،
وفضّلت البلادة والهمود..! وبالرغم مما تمتلكه بعض الدول العربية من
موارد طبيعية وخيرات عديدة إلا أنها آثرت الطريق الأيسر الذي لا يجلبُ
لها النَّصَب، ولا يسببُ لها الشقاء وهو طريق الترفيه عن النَّفس والاتكالِ
على الآخر في القيام ببناء أوطانها، وأداء واجباتها، وفي الجانب الآخر
تصبُّ جام غضبها، وتكيلُ التَّهم والشتائم على هذا الأجنبي لأنه -بحسبِ
زعمها- يأكلُ خيراتها، ويطعم رزقها، ويصدّر أموالها بغير وجهٍ حق!!



التملك



أفرط في السؤال عن موظفاته الثلاث حيشما ذهبن حتى بلغ المرض المفرط، فصار أقصوصة الألسن تتناقلها وهي تضرب المثل في مرض التملك الذي تفشى في هذا المسؤول، حتى رفعت عليه الموظفات شكوى للإدارة العليا التي وضعت حداً لأنانيته المفرطة، وملاحقته السَّمْجَة!!

لقد فطر الإنسان على غريزة التملك، فهي نزعة لديه منذ أن يولد، حيث ترى الطفل وهو يتشبث بالأشياء في دلالة على التملك، ثم يكبر فتتمو هذه الغريزة فيه «وتحبون المال حبا جما» (الفجر: ٢٠)، إنما أن تتحول هذه الغريزة إلى أنانية طاغية، ونزعة مفرطة فذلك مرض مشين، يخل بكيان شخصيته، ويهز مقومات أخلاقه!

في مجتمعاتنا يصاب البعض بمرض التملك حين يتولى وظيفة نافذة، فإذا بالمؤسسة أجمعها تصبح - في شعوره المتعالي - ملكاً له، يتصرف كما يشاء بأنانية محففة، ويشطح كما يريد بأثرة مسرفة، فإذا به يرى الموظفين «عمالاً» يحسبهم يعيشون على نفحة ماله، وإنعام جيبه، فهو السيد الجواد الذي لا يُعلى على أمره، وهو المالك المطاع الذي لا يُهان قدره، فإذا بأنانية التملك تنقلب إلى تسلط واستبداد، فويل لكل من يُلقي الرأي المناهض، وويل لكل من يهز الرأس المعارض؛ إذ لا مكان له في «مؤسسته» ولا وجود له في محيطه، ومهما طالت الأيام به في تلك المؤسسة فكلها نكد وعذابات لأنه مخدول في كل أمر، مُهان في أصغر شأن لأنه تعدى على صاحب الشعور الأسمى، والذات العليا، فخالف وجانف... أما من يتحجب ويتودد، ويلطف ويلين فذلك المحبوب المقرب، المغنى بسيرته في كل مشرق ومغرب...! إن لجلالة السلطان قابوس - حفظه الله - أقوالاً

مأثورة، وحكماً منشورة منها قوله: «وعليهم أن يؤدوا هذه الخدمة بكل إخلاص وأن يتجرّدوا من جميع الأنانيات وأن تكون مصلحة الأمة قبل أي مصلحة شخصية»، وقوله: «إن الوظيفة تكليف ومسؤولية قبل أن تكون نفوذاً وسلطة». ونتيجة لمرض السلطة والأنانية المفرطة تُقصى كفاءات، وتضيع قيادات، فيكون الوطن هو الخاسر الأكبر، تلبيةً لنفس أنانية، ضيقة الأفق، لم تر في اتساع الوطن، وسماحة روحه مثلاً لشموخ النفس، وسماحة الخاطر، ورفعة الغاية.

إن كثيراً من التأجيل والتعطيل والتأخير في مصالح الناس، وشؤون حياتهم سببه الشعور بالتملك للوظيفة، والاستئثار بها، فإن غاب جمد كل شيء، وإن حضر كبح غيره عن الاطلاع على أية معلومة، أو معرفة تتعلق بوظيفته، لأنه يرى بنفسه المريضة أن كل «تفريط» في المعلومة، وكل سماح في الاطلاع إنما يُضعف مكانته، ويقوّض كرسيه، ويقلل من أهميته، لهذا فلا ضير أن يتأخر البشر في مصالحهم، ولا بأس أن تتوقف مسيرة وطن بأكمله!

وفي مجتمعاتنا، يحسب بعض الناس أن الزوجة هي «ملك» شخصي للزوج، فهي طيعة له كيفما يشاء، وأنّي يريد، فلا أصل للعلاقة الكامنة في «المودة والرحمة» وإنما تدفعه أنانيته التي نتجت عن شعوره بالتملك إلى الاستبداد بها واعتبارها «ملكية شخصية» يجوز له التصرف في أموالها، فتضيع من هذا الشطط حكمة العلاقة المقدسة الرفيعة. يروى الدكتور جاسم المطوع هذه القصة: «أن أحد الأزواج منع زوجته من زيارة أبيها المريض بالمستشفى لمدة أربعة أشهر حتى توفاه الله، فأصيبت زوجته بصدمة نفسية وظل يتنقل في علاجها من طبيب إلى طبيب والسبب في ذلك كله

فهمه الخاطئ لمعنى القوامة، على الرغم من كثرة محاولتها إقناعه لزيارة أبيها، إلا أنه كان رافضاً لزيارته بحجة أنه يملك الأمر والنهي، وعندما تحدث معه كان يردُّ عليه بغرور عن معنى القوامة، وأن من صلاحيته منع زوجته من زيارة أبيها، وأن طاعتها لزوجها في هذه الحالة أكثر ثواباً وأجراً لها، فقال له د. جاسم: إنَّ هذا التفكير الأناني عندك لا يعرفه الإسلام ولا الشريعة الإسلامية، وإنما الإسلام دعا لبرِّ الوالدين ورفع من شأنه، ومن واجبك أن تساعد زوجتك على بر والدها وهو على فراش الموت لا أن تحرمها أمراً جعل الله أهميته بعد عبادته فقال (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً)»

هكذا فهمَ القوامةَ كما تأتَّى له، كما صوّرت له نفسه؛ لهذا فالزوجة في نظره مُلكاً له ملكها إياها الإسلام ولم يدرك أنه مُلكَ عصمة نكاحها وهي رباط الزوجية، وللمرأة - كما له - الحق في العصمة إن هي اشترطت ذلك في العقد...! لهذا تَمَسَّكَ البعض للنساء وتودد حتى ظفر بهن زوجاتٍ ليتملكهن حتى إذا تم له ما أراد تركها نزيلة البيت، وجليسة الفراغ، وحبيسة المشاعر البائسة، فهو إمّا يبحث عن «الترفيه» خارجاً، أو عن «ملكية» أخرى يتملّكها...!! هذه انتهازيّة، وعَسَفٌ وجورٌ في التعاطي مع أقدس علاقة، وأنبل صحبة.

وفي مجتمعاتنا حسبَ بعض الأثرياء أن أموالهم مُلكاً لهم، فلم ينفقوا على مشاريع خيريّة، ولم ينفقوا على محتاج، ولم يعينوا صاحبَ ضائقة، وفوق ذلك لم يؤدوا ركناً عظيماً من أركان الإسلام وهو الزكاة، فكانوا عبئاً على المجتمع لا يسعون فيه إلا لتكديس الثروات، وجمع الأموال.

منذ أيام شهدت قصة مديرة مؤسسة تعليمية تريد إقامة ملتقى علمي ينفع أبناء الوطن فأرسلت الرسائل إلى أثرياء ورجال أعمال فلم يأتيها منهم غير الصمت المجحف وكان مطلبها المادي زهيداً، حتى كادت أن تتخذ القرار بإلغاء الملتقى العلمي لولا أن يداً امتدت لها بالعون في اللحظات الأخيرة ليقام الملتقى، وتتعش الجهود. هؤلاء حسبوا أن المال ملكاً شخصياً والله يذكرهم بقوله: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ» (الحديد: ٧)، خذ منهم شعارات الوطنية، وكلمات التمجيد الوطني لكن لا تطلبهم المال الذي تسعف به المحتاج، وتصل به الهمم، وتقوي به الكفاءات، وتنمي به القدرات، وتثري به المهارات، فحبك الكلام في حب الوطن عندهم أهون من سبك الأموال..! ولولا أن ثلّة من الأجواد، بيض الأيادي، رفيعي الغايات لتعطّلت مبادرات، وتكبّت كفاءات لأجل نماء المجتمعات، وازدهار الأوطان. يقول زهير بن أبي سلمى:

ومن يك ذا فضلٍ ويخلُ بفضلِهِ .. على قومه يستغن عنه ويذم

إن أصعب مرحلة تعيشها المجتمعات هي مرحلة تطغى فيها ثقافة تملك الأشياء لا الأفكار، حتى أسمى بعض المفكرين المجتمعات العربية بـ«مجتمعات الشيء»..! حيث يتهافت أفرادها على الجمع والتكديس للأشياء دون تخطيط وحاجة، يقول الفيلسوف مالك بن نبي: «لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من (أشياء)، بل بمقدار ما فيه من أفكار. ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة، كأن يحدث فيضان أو تقع حرب، فتمحو (عالم الأشياء) محوّاً كاملاً، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد

المجتمع السيطرة على (عالم الأفكار) كان الخراب ماحقاً. أما إذا استطاع أن ينقذ (أفكاره) فإنه يكون قد أنقذ كل شيء؛ إذ إنه يستطيع أن يعيد بناء (عالم الأشياء)).

الجنوحُ إلى «عالم الأشياء» لا «عالم الأفكار» هو الذي حداً بالبعض في مجتمعاتنا إلى التعلّم من أجل الأشياء لا الأفكار، وهذه معضلةٌ لأنها جهلٌ من نوع آخر وهو أخطرُ على المجتمعات من الجهل الصريح لأنّه مقنّع كما هي البطالة المقنّعة...! التهافُ على الشهادات لأجل الأشياء (منصب، أو مال، أو وجاهة) ناتجٌ عن التملّك الأناني الفارغ. وفي المقابل، فإن تملّك العلم عن المنفعة هو رذيلةٌ مقابلة، ففي الحديث «مَنْ كَتَمَ عِلْماً يَعْلَمُهُ الْجَمُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^{٣٠}.

وفي مجتمعاتنا ثمة ثقافة سائدة حيثُ الإنسان يقيّم بـ«الأشياء» التي يملكها لا «الأفكار»...! لهذا طفح حبُّ المظاهر، وغلبة الأثرة، وإعلاء الذات، فأصبحت الوظيفة والزوجة والأبناء والمال ملكاً شخصياً مطلقاً، وهذا لا ينسجمُ وحكمة الدين، ومقاصد التشريع الإسلامي الذي انتهج منهجَ الوسطية فجعل خيراً الأمور الوسط وجعل الفضيلة بين رذيلتين: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا» (الإسراء: ٢٩).

إن خطر شهوة التملّك هو في صياغة معايير غير صائبة عن السعادة؛ حيث أصبح المتملّك مزهواً بسعادة تفوّقه على الآخرين، وأنه بقدر ما يملك من نفوذ أو سلطة أو وظيفة أو مال أو أشياء فإنّه يستقوي ويستعلي بها

٣٠ أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحاحه من حديث أبي هريرة.

على الآخرين، وهذا مرضٌ يفتك بالتعاون والتكافل الاجتماعي بإعلائه حب الذات والإستثثار..! هذه نزعة رأسمالية قاعدتها «أنا موجود بقدر ما أستهلك وما أملك» وهي التي انتقدها غرييون منهم إيريك فورم Fromm Erich في العديد من كتبه، مما يعني أن شهوة التملك والاستهلاك والمباهاة بالأشياء وجعلها معيار التفوق على الآخرين هي نزعة لا تنسجم مع مجتمعاتنا الإسلامية الروحانية التي نشأت على قيم التعاون والتعاقد والتكافل.

ولقد عمد الرسول -صلى الله عليه وسلم- في المجتمع المدني إلى تقنين التملك فلم ينفه ولم يشجع على الإفراط فيه، وإنما وضع القاعدة التي غدت منهجاً لتعاملات الأنصار والمهاجرين وفقاً لقوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» (آل عمران: ٩٢)، وقوله عليه السلام: «من كان له فضلٌ زاد فليجد به على من لا فضل له»^{٣١}، وعلى هذا المنوال الكثير من الأحاديث عن الجار، والمسكين واليتيم والفقراء وغيرهم.

تنجرف مجتمعاتنا إلى المادية المحضة، وإلى «الشيئية» التي تبعتها عن الكينونة الاجتماعية التي عمادها التآخي والتراحم والمحبة، وذاك الانجراف وجهٌ من وجوه سحق الهوية، فإن لم تنتشل نفسها من هذا الانجراف غير الواعي تفسخت هويتها، فلا يميّزها عن مجتمعات المادة أي مميز!



الدَّعَة

جدول المرافقة الأسبوعية

الأحد	١
الاثنين	٢
الثلاثاء	٣
الأربعاء	٤
الخميس	٥
الجمعة	٦
السبت	٧



حين قال المحاضر : إذا لم يعمل الياباني فإنه يُقدّم على الانتحار، مألّ الجالسُ إلى جانبي هامساً في أذني باسماء: ونحن إن لم نحصل على إجازة نتحر..! وفي مناسبة أخرى أباح لي آخر بسرّ ثمين حيث قال إنه يحبّ العمل الحكومي لأنه حافلٌ بالإجازات، وأنه يعيشُ الإجازات..! وكأن لسان حاله ينطقُ عن الكثرةِ الغالبةِ من الشبابِ حتى أصبحت الإجازات بالنسبة لمجتمعاتنا أعياداً، وتوقعات الأمطار أخباراً مفرحةً للصغار من أجل «الراحة» من عناء الدراسة..! فما أكثرَ ما تتردّد كلمة «تعب» في مجتمعاتنا على ألسن العامة، أو في الأغاني أو القصائد، وفي مقابلها ما أكثرَ ما نسمع «أريد أن أرتاح».

في استضافة لي بإحدى الجامعات قلتُ: لا توجد قَمّةٌ للنجاح يسترخي فيها الإنسان الناجح، وإنما هي محطاتٌ متتابعة، ما إن يصل الإنسان إلى إحداها حتى يشمّر عن ساعديه ليواصل الطريق لتحقيق إنجازٍ آخر.. وهكذا تصبح الحياة سلسلةً متصلةً من الإنجازات.

وإذا كانت الحياة مزيجاً من العمل والترويح لقوله صلى الله عليه وسلم : «روّحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلّت عميت»^{٣٢} ، فإن جعلها على منوال واحد هو منوال الراحة لن يحقق للإنسان صاحب الهمم العليا مطمحه من الحياة، ومع أن بعض أصحاب العزائم الفتية يريد أن يواصل الليل والنهار وهو يعمل لولا أن للجسد نصيباً من الراحة. ومع ذلك فإن تحقيق التوازن بين حاجات الإنسان المختلفة (روحية وعقلية وبدنية) أمر لا غنى عنه حتى لا يسود الملل في النفس.

٣٢ رواه ابن ماجه.

إن ثقافة «حب الراحة» تفشت في مجتمعاتنا، فلا يُعرفُ لها وصف، ولا يدرك لها بعد.. ماذا تعني الراحة؟ أهى راحة البال من الهموم والطمأنينة أم الانبساط والانشراح؟ هذه جميعها راحة حميدة للنفس، لكن الراحة المدمومة هي الإفراط في الكسل، والتمادي في الخمول، والتراخي في الفتور حتى وصفت الأمة بأنها أمة دعة وخمول لا تفكر إلا في الإجازات وليتها تعاني من الضغوطات العملية الهائلة! بل هي تعاني من كثرة أوقات الفراغ..! والنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يقول: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^{٣٣}.

تسمع المتقاعد وهو يقول: لقد أدّيتُ ما عليّ من واجب وآن لي أن أرتاح..! وليس عندي من تفسير اجتماعي للراحة التي يقصدها سوى أن يضع رجلاً على رجل في كرسي على الشارع وهو يطالع المارة..! أو أن يعيش فراغاً قاتلاً ينحلّ جسده، ويذيب قواه!

ويكتفي خريجو الجامعات من مهندسين ومعلمين وأقرانهم بما تحصلوا عليه من معلومات تجري عليها سنة التقادم فلا يحدّثونها ولا يجددونها لأنهم استسلموا للراحة، والدعة والسكون، وقنعوا بما أوتوا من شهادة مؤطرة تزيّن جدران مجلسهم، فإن أنت تقصّيت لهم سبباً مباشراً وجدت أن نفوسهم قد تشربت ثقافة «حب الراحة»، وأنهم زعموا أنهم قد وصلوا القمة في الإنجاز، وكأنما العلم منجز متكامل، أو منتج مُنزل!

تسمعُ الفتى اليانع وهو لم يدخل بعد معترك الحياة، ولم يصب من تجاربها شيئاً يردد كلمة «تعب» و«إرهاق» ولا تعلم ما الذي أنجزه حتى يتعب

٣٣ رواه البخاري.

فيرتاح ليجدد نشاط الجسد فيعاود العمل..! إلا أنه تعلم بأن مصدر «تعبه» و«إرهاقه» ليس العمل وإنما السهر والكسل!

لا تحسبنَّ المجدَ تمرأً أنت تأكله .. لن تبلغَ المجدَ حتى تلعق الصبرا

لقد أسيءَ فهم الراحة حتى أصبحت في مجتمعاتنا مرادفةً للدَّعة والحمول والكسل، وهي في الحقيقة نقيض ذلك، فالعمل مع الاستمتاع راحة، والجهد مع الشغف انشراح، والكفاح مع النشوة متعة، يقول الإمام محمد عبده: «وإن حب الراحة يوقع في تعب لا نهاية له، وهو تعب البطالة والكسل أو العمل الاضطراري. ومن لا يذوق لذة العمل الاختياري لا يذوق لذة الراحة الحقيقية، لأن الله تعالى لم يضع الراحة في غير العمل».

إن قيمة الأمم بقدر منجزاتها، وحراكها، وهمتها، فإن مالت إلى طلب الاسترخاء في أبسط مناسبة عطّل ذلك من حراكها، وإن تذرّ أفرادها من قلة العُطل، واشتكوا من كثرة العمل فإنها قليلة الإنجاز، متواضعة النماء. وإن كثرت فيها التسويف والتأجيل في المصالح دل ذلك على خلل في التنشئة وصدع في التعليم، وعلة في مفهوم العمل. فإن الأمة لا يستقيم لها أمر، ولا تقوم لها حضارة إلا بالجديّة والمثابرة، وهذا ما يوجّه إلى معرفته واكتشافه النشء منذ الصغر، فإن الكسل مطية الفشل، والنشاط مطية النجاح كما يقال، وفي هذا يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الكسل مفتاح البؤس.. به تولدت الفاقة ونتجت الهلكة»، وما تقدّمت أمة في مجالات العلم أو الصناعة أو الاقتصاد إلا بالجد والاجتهاد.

بقدر الكد تُكتسبُ المعالي .. ومن طلب العلى سهر الليالي

وإذا كان إسلامنا العظيم يحثنا على الترويح عن النفس، فإنه يحثنا أكثر على العمل، ففي الحديث «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها». وما عطل نماء مجتمعاتنا وازدهارها إلا التراخي، وحب الراحة لغير منفعة..! الاسترخاء في مفهومه ساحة تفكر، وفرصة تدبر، فكم هي الأفكار العظيمة التي سطعت للإنسانية في لحظة استجمام، وفترة استرخاء. إذن فالراحة ليست إقفال العقل عن التفكير، وتعطيله عن التدبر، كما أن العطلة لا تعني التوقف عن العمل. لقد شدني إعجاباً منظر المليونير الكوري الذي يجمع القمامة كل صباح في إحدى دول الخليج منذ أحد عشر عاماً لينشر قيمة النظافة حتى إن شاباً خليجياً يقول له: أنت قيمة بالنسبة لنا وليس سلعة، ثم يقول بعيداً عنه: إننا يجب أن نراجع أنفسنا...!.. أمرٌ مخجلٌ أن يأتي أجنبي أفرزته ثقافة العمل الجاد التي ساد اقتصادها العالم ليعلم مجتمعاتنا كيف تشغل وقتها في الوقت الذي كان فيه شبابها نائمين، كسالى، مرهقين لا بسبب العمل وكثرة الإنجازات وإنما بسبب السهر والتسكع في المراكز، والجلوس على المقاهي!



السلبية



كلّما رأيت مسلماً متجهّم الوجه، ممتقع القسمات، كئيب النفس أقول لنفسي: كيف فهمَ هذا الإنسان دينه العظيم؟! دينه الذي لم يضاهيه دينٌ في جعله الإبتسامة عبادةً يثاب عليها وهو ما لم يُعهد في أيّ دين آخر..! «تبشّمك في وجه أخيك صدقة»^{٣٤} لكنني أستذكرُ عبارةَ قالها الإمام محمد عبده: «كل ما يُعاب على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سمّوه إسلاماً»..!

إن ديناً عظيماً حوى علاجات الأمراض السليبيّة أخرى باتباعه أن يستطبوا بها، وأجدر أن يكونوا قادة الإيجابية في العالم بأسره، لا أن يكونوا مضرب مثل في نشر الإحباط والسلبية واليأس في أنفس الأُمّة وشبابها، حتى ترى الشاب وهو ضعيف النفس، واهن الجسد، فاقد الطموح والأمل يحسب ذلك من صميم التدبّن وهو في الحقيقة مجاف للدين الذي جعل «المؤمن القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف»^{٣٥}، ونظر إلى الشباب نظرة الطموح والتفاؤل لأنهم قادة التقدّم والنهضة فيها، فكيف يكونون واهنين، سلبيين؟!

كيف التصقت سمة الجهامة ببعض وجوه المسلمين، فلم يُرَ فيهم إلا التزمّت والعبوس، حتى ندرت منهم الابتسامة، بل غارت من وجوههم. يمرُّ عليك الواحد منهم فلا يُلقِي عليك السلام، فتتنظرُ فيه فإذا به وكأنّ كآبة قد غشته، ويأساً قد كساه..! أهذا هو الإسلامُ بسماحته ولينه وبشاشته..؟! أهذه هي السنّة النبوية التي لم يعهد على صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام إلا بساماً، بشوشاً، سمح الخاطر، دائم البشر، أطيب الناس نفساً، وألينهم جانباً، يمازح أصحابه..؟!!

٣٤ حديث شريف.

٣٥ رواه مسلم عن أبي هريرة.

وإذا كانت صورة التجهّم لبعض المسلمين الذين فهموا دينهم خطأ قد ارتسمت في أنفسنا فكيف نلوم غير المسلمين إن هم حسبوا الإسلام نقلاً عن هؤلاء بأنه دين التجهّم والسلبية والكآبة، دينٌ يجافي كل مظاهر الجمال، والفن والنظافة؟! نقلوه من أولئك الذين حسبوا أنهم خدموا الدين وقد أضروه إما بالسلبية التي طغت عليهم أو باختزالهم الدين في جوانب شكلية، ضيقة، وسمات لا تمت إليه بصلة..! يقول الشيخ محمد الغزالي إن السلبية لا تخلق بطولة، لأن البطولة عطاء واسع ومعاناة أشد.

هذه مفاهيم خاطئة يصور بها البعض الإسلام، فينشأ عليها جيل لا يفهم من الإسلام إلا ما رآه منهم فقلّدهم عليه ظناً أن هذا هو الدين، يقول المفكر الإسلامي، الدكتور محمود حمدي زقزوق، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف: «للأسف فإن بعض المتدينين - أو كثيراً منهم - فهموا التدين فهماً خاطئاً، فالإسلام لا يعادي الحياة، ولا يحرم المسلم من متعة نافعة ومفيدة من متع الدنيا، فالإسلام يحث المسلم على النظافة والتجمل والاستمتاع بكل ما في الكون من أدوات ومظاهر للجمال، ويحث الإسلام المسلم على أن يكون بشوشاً، مرحاً، يتسم في وجهه من يتعامل معهم؛ فالبشاشة والابتسامة التي ترتسم على الوجه من شأنها أن تفتح الباب إلى التعارف المأمول والتجاوب المنشود وكسب حب الآخرين وقضاء المصالح لكل الأطراف»^{٣٦} وفي النطاق نفسه يحذر الداعية الأزهرية د. سالم عبد الجليل وكيل وزارة الأوقاف المصرية الأسبق ممن سماهم دعاة اليأس والإحباط الذين ينتشرون في كل مكان من أرجاء عالمنا العربي ويضيقون على المسلمين ما وسعه الله عليهم قائلاً: يجب أن نحذر دعاة تخريب العقول

٣٦ موقع صحيفة الخليج الإلكتروني تاريخ النشر: ٢٠١٤/١١/٧ <http://ae.alkhaleej.com>

الذين يخربون عقول المسلمين بما يقدمونه من آراء وفتاوى متشددة بعيدة كل البعد عن سماحة الإسلام وعدله وشريعته التي تتبنى منهج التيسير على الناس في كل شيء؛ فهؤلاء الأدعياء الدخلاء على الدعوة الإسلامية يرسمون صورة منفرة وكئيبة للإسلام، وهذه نظرة غير صحيحة فالإسلام دين حياة مملوءة بالبهجة كما هي مملوءة بالكفاح، دين يرسم البسمة ويث روح الأمل والتفاؤل في نفوس الصغار والكبار، دين يشجع على العمل والإنتاج ويدفع المسلم دفعاً لكي يعيش حياته مع زوجته وبين أهله ووسط أصحابه»^{٣٧}.

إن السلبية التي تعتور بعض النفوس في مجتمعاتنا لتعود إلى الأفكار التي تغذيها في الأصل، إذ إنه بات من المعروف أنه كلما كانت المقدمات صحيحة فإن الاستنتاج يأتي صحيحاً، فالمرأة التي كانت تداعب طفلها في سفينة تهزها الأمواج، وتعصف بها الرياح، ويتصايح بها المسافرون كانت تغذيها الإيمان صحة لذلك كان سلوكها صحيحاً إذ قالت: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...! والإنسان الذي يتق الله لن يصيبه الإحباط، ولا القنوط ولا اليأس أي أنه لن يكون سلبياً أبداً...! فمن أين استقى هؤلاء السلبيون هذه الأفكار العقيمة التي تسببت لهم بالجهامة في الوجوه، والقساوة في القلب، ونبههم العظيم يقول عليه السلام: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له».

شاب كان يمارس الرياضة فأثني على مستوى لياقته، فإذا به يقول: من أين وأنا شايب...؟! وما أكثر ما أسمع هذه الكلمة من شباب في ريعان

٣٧ المرجع أعلاه

أعمارهم، وهو يحطّمون أنفسهم بهذه الكلمات العقيمة التي تصيهم بالعجز والسلبية الدائمة. يقول د. أحمد توفيق حجازي في كتابه «غسيل الدماغ»: «عندما تقول أنت على سبيل المثال: لا أستطيع أن أفعل هذا، إنني كبير في السن، أنا لا أستطيع الوفاء بهذا العهد، فأنت تقوم بعملية تلقيح أو زرع في عقلك الباطن بهذه الأفكار السلبية، ووفقاً لها سوف يستجيب عقلك الباطن».

ولا يحفل كثيرون بالكلمات السلبية التي يغذونها عقولهم الباطنية التي تستجيب لهم، فإن حاولت أن تمتدحهم أظهروا لك امتعاضهم، وإن قوّيت من معنوياتهم أصرّوا على يأسهم وكآبتهم وكأن الدنيا قد أقفلت أبوابها أمامهم، وتلك طبيعة العقل المادي الذي لا يجد سوى الانتحار أمامه باباً لا العقل الإيماني الذي يرى الأمل في حسن الظن بالله، والفرج في الإيمان به، والحل في التوكل عليه، والسعادة في القربى منه. هؤلاء مثل الإعرابي الذي زاره النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: لا بأس طهور إن شاء الله، قال: قلتَ طهور؟ كلا بل هي حمى تفور أو تثور، على شيخ كبير، تزيه القبور، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فنعمة إذاً»^{٣٨}

ما أكثر الباحثين عن المشكلات والشكاوى، ما أكثر المتبرمين، الضجرين، المتذمرين، ما إن يلقوك وأنت تستفتح يومك حتى يغرقوك بالهموم والكآبة والقنوط، فإن استجبت لهم وأصغيت وتجاوبت فقد سمّموا عقلك، وإن وليت منهم فراراً واستبدلت بصحبته أناساً إيجابيين فقد نجوت من سلبّيتهم. بعض هؤلاء لا أكاد أسمع له حديثاً غير شاك فيه وباك...! يصدر السلبية إليك وقد فاضت من نفسه، يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه

٣٨ صحيح البخاري.

«جدّد حياتك»: «إن الرجل الضعيف قد يفزعه المصائب ويشتت أفكاره، وبدلاً من أن يختصر متاعبه بمجابهة الواقع والاستعداد لقبوله يسترسل مع الأحران التي تضاعف كآبته ولا تغير شيئاً».

إن داء السلبية هو داء أصله كلمات عقيمة، وأفكارٌ سقيمة، لا يعي البعض أثرها السلبي على عقله الباطن. فإذا بحياته تصبح نكداً مستمراً، وقلقاً مستقراً. وإذا به لا يرى إلا النقاط السوداء الدقيقة التي تتخيل أمام ناظره ويعمى عن منظر الطبيعة الرائع الشاسع...! وكمثال على هؤلاء فقد أجرى موقع «إيجابيون» الإلكتروني استبياناً شارك فيه ١٠٢٩ من الجنسين، فقال ٥٩ في المئة إنهم لا يرون أن التفكير أهم من السلوك، وأقرّ ٨٦ في المئة بأن ليس لديهم علم بأهمية التفكير وأنواعه وتطبيقاته...! هذه النسبة الغالبة تدل على أن الكثرة في مجتمعاتنا لا تعي أثر التفكير الإيجابي أو السلبي على السلوك، ولا تحفل بالكلمة وهي تلقيها إن كان لها أثر على نفسها قبل غيرها.

خلاصة الأمر: إن وجهاً لا يهش ولا ييش، ولا يعرف للابتسامة ملمحاً لا يزعمُ صاحبه أن ذلك من خلق الإسلام بل هو جناية عليه...! وأن فكراً عقيماً ينتج سلوكاً عقيماً، لا يحسبُ ذلك على دين سمح، لطيف الأسلوب، رقيق اللغة، فالمنتجات بقدر المعطيات. وإن قلباً يستنيرُ بالله ويتعطر بكلماته الزاكيات، ويوقن بالإجابة وهو يدعو، ويحسن الظن به، لا تعرفُ السلبية له منفذاً، ولا اليأس له مدخلاً. إنه الإيمان الواعي وحده القادر على إعادة تغيير الأفكار لتصبح نافعاً وإيجابية، وإعادة تشكيل التجارب والآراء والسلوك.



التدبّر



في تجربة مصوّرة عن مخاطر استخدام الهاتف خاصّة لكتابة الرسائل النصيّة أثناء قيادة السيّارة، لم يستطع الشباب المستخدمون لجهاز المحاكاة أن يقودوا وهم يستخدمون الهاتف في الوقت ذاته دون أن يرتكبوا حادثاً...! ويعقّب المذيع بقوله: لو نقلنا هذه التجربة لأرض الواقع لرأينا كثيراً من الناس يستخدمون هواتفهم ويعثون بالرسائل وأحد هذه الأسباب سيكولوجي (نفسى) بأنه كلما أرسلنا رسالة نقنع أنفسنا فنقول لم يحصل شيء، ونعيد العملية، وكلما أعدناها تعودنا على الشعور بأننا في أمان ولكننا لسنا كذلك!!

أنطلق في استهلالي بهذا المثل إلى الحديث عن «التدبّر» في العواقب، وهو ما ألاحظه سبباً في الكثير من نتائج أفعالنا...! و«التدبّر» هو فريضة إسلامية تقع في صميم الإيمان، تكاد تكون غائبة من ثقافتنا إلا من الخطاب الوعظي...! التدبّر معناه أن يتدبر الإنسان نفسه بالنظر في العواقب!

عاقبة الموت مثلاً وهو خاتمة الوجود الإنساني على وجه الأرض إن نطق به ناطق ألجم فمه على الفور، وقيل له: لا سمح الله، لا تذكر الموت...! لا سمح الله على ماذا والموت هو مآل البشر؟!، وتذكرهم للموت عامل مهم للتقوى بل واستغلال الحياة في كل منفعة سامية، ففي الحديث الشريف: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات، فقل: يا رسول الله فما هادم اللذات؟ قال: الموت، فإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم له استعداداً»^{٣٩}، لكن الموت يحضر اجتماعياً لأجل التحفيز في مجتمعات ماديّة تعشق مباحج الحياة...! إذ يخاطب الراحل ستيف جوبز Steve Jobs الرئيس التنفيذي

٣٩ رواه الترمذي عن أبي هريرة.

لشركة آبل طلاب جامعة ستانفورد بقوله: «عندما كنتُ في السابعة عشرة من عمري قرأتُ عبارة تقول: إذا عشتَ كل يوم كأنه آخر يوم في حياتك ، ففي يوم من الأيام ستكتشف يقيناً أنك على حق» (ويضيف: منذ ثلاثة وثلاثين عاماً وأنا أنظرُ كلَّ صباح في المرآة وأسأل نفسي: إذا كان هذا هو آخرُ يوم في حياتي، فهل ما أريدُ فعله هو الذي أنوي فعله هذا اليوم؟ فإذا أتاني الجواب: لا..! لعدة أيام عرفتُ أنني يجب أن أغيّر شيئاً ما...!)» ويقول روبين شارما Robin Sharma أحد مدربي التنمية البشرية في كتابه «دليل العظمة»: «عندما تستيقظ كل صباح وتسال نفسك: ما الذي كنت سأفعله اليوم لو كان هذا آخر أيام حياتي؟، فليس هذا تمريناً تحفيزياً تافهاً، ولكنه طريقة عميقة تضي بها على أيامك قدراً من الإلحاحية والالتزام».

ولو أننا فعلنا في أنفسنا قيمة التدبّر لسلمنا من الكثير مما أوقعنا فيه أنفسنا من أزمات ومشكلات؛ إذ يقال: «(من نظر في العواقب، سلم من النوائب»، لكنّ تجاهل التدبّر قد أنتج الاستهتار بالنفس فإذا بالسيارات تصبح أداة قتل لا نقل، لأنها حوّلت من وظيفتها الحقيقية لتيسير نقل الناس إلى قتلهم...! ولو تدبّر كل من يستخفّ ويستهتر وهو يستخدم الهاتف أثناء قيادة السيارة أو يُسرّع أو يخالف القوانين في العاقبة لتصور المآل الذي يكون عليه، فأوقع ذلك في نفسه الخشية من المصير، واستعاد زمام النفس بعد التمرّد والانفعال...! لكن التدبّر غائب!

ولو تدبّر كل من يعقّ والديه، أو يعامل الناس ببطر، وتعالٍ، وظلم، لارتسمت أمامه صورُ العاقبة فأرعبته النهاية...! لكن التدبّر غائب!

ولو تدبّرت الحكومات التي لا تراعي مبادئ العدالة الاجتماعية، ولا المساواة بين شعوبها، ولا سيادة القانون عاقبة أمرها لتفادت ثورات الشعوب المهانة، والطبقات المطحونة.

ولو تدبّر كلّ من يكتب كلمة، أو يتلفظ بها كيف هو مآلها، وما هي آثارها، لسلم من نتائجها، وتجنّب عواقبها، وهذا ما يحذّر منه النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^{٤٠} ولو تدبّر الناقل فيما ينقل إليه من كلام أو فيما يسمعه لما تهوّر فأوقع نفسه في إشكالات ومصائب..! يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» (الحجرات: ٦)، وفي العقيدة من النصوص ما فيها من الحث على التدبّر حتى أصبح التدبّر فريضة إسلامية لكننا أشبه ما نكون غائبين عنها..! ولو حضر التدبّر لما قاتل المسلم المسلم لدوافع عنصرية وعصبية وطائفية ومذهبية أغلبها لا تمت إلى أصل الدين في شيء إلا أن تضلّ فئة فلا تستجيب إلى الصلح..! ولو حضر التدبّر لما تلاعن مسلمين، وما تشاموا لأن الجامع أعظم، والموحد أعصم!!

ولو علّم التدبّر النشء منذ الصغر، لكبر وهو يتبصر في كل خطوة، وقرار، وكلمة، وما تهوّر لأنه ينظر في عاقبة الأمر قبل القدوم عليه، فلا يسرع مسرع في الطريق لأنه يوقن أن في السرعة الندامة، ولا يلهي عند القيادة بما يلهيه لأنه يدرك أن سوء المقدمات يأتي بسوء النتائج، ولا يوقد فتنة لأنه

٤٠ البخاري عن أبي هريرة.

يَعْلَمُ أَنَّهَا أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَا يُوْغِرُ بَغْضَاءَ لَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهَا تَقُتُّ مِنْ عَضْدِ الْمَجْتَمَعِ، وَلَا يَنْشُرُ الشَّائِعَةَ لَأَنَّهُ يَوْقِنُ أَنَّهَا تَزْعِزُّ اسْتِقْرَارَ النَّاسِ، وَتَقْوِضُ أَمْنَهُمْ. يُوْثِرُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَحَهُ لِأَحَدِهِمْ طَلَبَ النَّصِيحَةَ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: إِذَا أَنْتَ هَمَمْتَ بِأَمْرٍ، فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ يَكُ رَشْدًا فَأَمْضِهِ، وَإِنْ يَكُ غِيَاً فَانْتِهِ عَنْهُ.

إِنْ بَعْضُ مَنْ يَتَسَمَّوْنَ بِالْعُلَمَاءِ أَوْ الدَّعَاةِ أَوْ الْمَفْكَرِينَ وَغَيْرِهِمْ لَا يَتَدَبَّرُونَ فِي الْفَتَوَى أَوْ الرَّأْيِ أَوْ وَجْهَةِ النَّظَرِ، فَإِذَا بَهَا تَطِيرُ كَالشَّرِّ فَتَحْرِقُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْمَجْتَمَعَاتِ، يَحْسُبُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ قَوْلَهُ الْحَقُّ لَكِنْ لِلْحَقِّ طَرَقًا لَيْسَ مِنَ الْيَسِيرِ طَرَقُهَا، وَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا، بَعْضُهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَأْتِي بِالْأَنْفَعَالِ وَالتَّشْنِجِ وَدَفَعَ النَّاسَ إِلَى الْمَهَالِكِ وَلَا يَتَدَبَّرُونَ فِي عَاقِبَةِ هَذَا كُلِّهِ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْوَقَائِعُ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا هَرَبُوا هُمْ مِنَ الْمِيَادِينِ وَتَرَكَوْا ضَحَايَاهُمْ يُوَاجِهُونَ الْمَصِيرَ الْمَهْلِكَ...! أَوْ سَافَرُوا لِلنَّزْهَةِ وَالتَّرْفِيهِ عَنِ النَّفْسِ بَعْدَ أَنْ خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ آمَالًا مَطْوُوحَةً، وَأَرَامِلَ بَائِسَةً، وَأَطْفَالًا يَتَامَى، وَأَحْزَابًا مُتَقَاتِلَةً تَتَوَجَّهُ لِكَعْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي صَلَاتِهَا!

نَعْلَمُ «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ» لَكِنْ التَّدَبُّرُ هُوَ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ تَجَاوُزُهُ لِهَذَا الْعَذْرِ، فَاسْتَجْلَاءُ الْخَيْرِ مِنَ الشَّرِّ وَاجِبٌ، وَحَسُنَ التَّصَرُّفُ فِي الْأُمُورِ مُحْتَمٌّ، وَاسْتِنْبَاطُ الْعَوَاقِبِ مِنَ الْأَسْبَابِ فَرَضٌ، وَإِدْرَاكُ النَّافِعِ مِنَ الضَّارِّ مُلْزَمٌ.

لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، لَمَّا هَدَمَ إِنْسَانٌ بَيْتَهُ بِكَلِمَةٍ مَتَهَوَّرَةٍ لَا يَتَدَبَّرُ عَاقِبَتَهَا، وَلَمَّا خَاصَمَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا كَسَبَهُ أَوَّلَى مِنْ خَسْرَانِهِ، وَلَمَّا سَعَى الْوَاحِدُ مِنَّا لِلاتِّصَارِ لِنَفْسِهِ لَا لِلْحَقِّ، وَلَمَّا أَلْقَى الْقَائِلُ كَلِمَةً لَا يَدْرِكُ عَاقِبَتَهَا وَأَثَرَهَا عَلَيْهِ وَعَلَى السَّامِعِ،

ولما اتخذ قراراً لا يقود إلى نجاح، ولما قام بعمل ليس فيه توفيق. يقول سيدنا عليه كرم الله وجهه: «لَا مَالَ أَعُودُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا عَقْلَ كَالْتَدْبِيرِ» ذلك لأن سلامة الحياة معقودة في التدبير، وإدارتها السليمة مرهونة بالتدبير.

إن سؤال: ماذا لو؟! هو السؤال الجوهرى المتعلق بالتدبير، فلو سأل كل إنسان نفسه: ماذا لو اتخذت القرار الفلاني، أو قلت هذه الكلمة، أو أقدمت على هذا السلوك، أو عبرت عن وجهة النظر هذه، أو اتخذت الموقف المعين.. فماذا يحدث؟! هنا يبدأ التدبير في النتائج وتحليلها، واستنباط الخير والشر منها والتبين والاستيضاح، وعليه يكون الإقدام أو الإحجام.. فما فائدة العقل إن لم يتدبر ويميز، إنه إذن لثروة مهدورة..! يقول المتنبي:

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره .. إذا استوت عنده الأنوار والظلم.

إن سبب إغفالنا للتدبير في العواقب هو الوهم الذي نستسلم له بأن شيئاً سيئاً لن يقع، وسبب آخر هو الخدر الذي سرى في عقولنا بأننا بمنجاة عن الوقوع في أية مآزق أو محن بسبب الأقوال أو الأفعال الناتجة عنا وهذه إحدى الإشكاليات العويصة التي كانت سبباً في الكثير من معوقات التنمية الإنسانية في مجتمعاتنا. الواقعية تحتم تفعيل التدبير، أما مجتمعات الوهم والخدر فتهرب من الواقع، في حين أن مجتمعات المسؤولية تتحسب للعواقب؛ وذلك دافع الحراك الحضارى.



الجمود



حين تولّى رئاسة إحدى المؤسسات اقترحت عليه أن يقوم بعملية «حلحلة» فيها، أي إحداث تغيير لانتشالها من الجمود الذي سارت عليه في عهد سلفه، فقال: هذا لا يجوز في حق الرئيس السابق...!! وهكذا واصلت المؤسسة جمودها!

إن السؤال الشعبي المتداول بين الأفراد في مجتمعاتنا: ما الجديد؟! والإجابة الشهيرة عنه: لا جديد تحت الشمس...!! هذا السؤال وإجابته يختزلان واقع الحال إذ يخيم الجمود على الكثير من مناحي الحياة في مجتمعاتنا، وتلقي السكونية بثقلها على مواطن كثيرة، حتى قلب العقل المعايير في النظر فأصبح الجمود استقراراً والاستقرار علامة في الاصطلاح الاجتماعي على الرّخاء، لكنّه في الحقيقة مرادف للسكون والثبات...! وأصبحت القناعة في فهم الناس تعزياً عن الغنى والنجاح في حين أنها مثبّط عن العمل والجهد والكفاح ومرادفة للتواكل...! وصارت القدرية تسليّة للنفس، وجبراً لحاظرها عن المبادرة والمثابرة والتوفيق بحجة أنها من الإيمان في حين أنها استسلام وإذعان لتأثيرات القوى الخارجية وكأنه لا دخل للإنسان بكل ما يحدث له وهذا غير مفهوم القدر الذي يرتبط بعلم الله المسبق بالحوادث المقدرة للإنسان.

لقد اتسم هذا العصر بطابع الحراك المتسارع والتقلبات المتتالية والمتغيرات المتلاحقة، وهو ما يعني أن المجتمعات الجامدة تخرج من مفاهيم النواميس الكونية والطبيعة العصرية إن لم تحل بالديناميكية (النشاط والحيوية) اللازمة لمجاراة العصر، يقول د. على أسعد وطفة في كتابه «الجمود والتجديد في العقلية العربية»: «لا يمكن لأمة من الأمم أن تناهض اليوم عن وجودها

وهويتها إلا إذا استطاعت أن تحدث تحولات نوعية في العقلية السائدة نحو صيغة علمية جديدة قادرة على حمل رسالتها في عالم تحكمه العقول القادرة على الحركة والنفوس الطامحة إلى الإبداع والعمل. فالمضامين العلمية الابتكارية للعقل تشكل في عالمنا المعاصر مبتدأ وخبر الرسالة الحضارية؛ وذلك لأن الحضارة المعاصرة تتكون وتشكل على وقود العلم والمعرفة العلمية».

الإشكالية أنه ما لم تنتشل مجتمعاتنا نفسها من قيود الجمود لتنتقل إلى فضاءات الإبداع والابتكار بخفة وحيوية وذلك بتحرير العقل من مسلماته، ونسف رضائه بكفاف العيش، وطرد التفكير السلبي منه، وتنويره بأحدث العلوم العصرية، وإذكاء روحه بالقوى الدافعة في إيمانه وإرثه، ووعيه الدقيق بالزمن، ما لم يحدث ذلك فإن التغيير يأتي من الخارج وهو تغييرٌ مفروضٌ لغير صالح الهويات الاجتماعية، إذ يمضي بها في نسقٍ آخر يشكّل هو ملامحه وطبيعته وهذا ما يجري الآن..! ترى منى خويص في كتابها «الأبواب المغلقة: دراسة حول أزمة التغيير في العالم العربي»: «أنه إذا كان بعض مؤرخي الشرق الأدنى يعتبرون أنه انغلق على نفسه منذ القرن الخامس عشر الميلادي، حيث بدا متجمداً مرة واحدة وإلى الأبد، فإن هذا الانغلاق، وذلك الجمود لم يعودا حالة قابلة للصمود في وجه المتغيرات المستجدة على العالم. قلاع الجمود الحصينة أصبحت عرضة لتحولات كبيرة اليوم، إن لم يكن بالانهيار الداخلي فبالاختراق الخارجي».

إحدى أكبر الإشكاليات في مجتمعاتنا تقع حين يكون على رأس المؤسسات من لا يمتلك القدرة على التغيير لعدم كفاءته، وقدرته على إحداث التغيير،

لهذا يصيبُ الشلل المؤسسة التي يرأسها فتجمدُ وتتعلّطُ وفقاً لذلك حركة التنمية التي أُنيطت على كاهلها، لهذا فإن اختيار القيادات الأمثل والأكفأ هو المنفذ لعدم إغراق الأوطان في وحل الجمود...! في إحدى الدول العربية طلب بنك النقد الدولي من حكومتها التخلص من الموظفين بحجة الترهّل الذي أثقل كاهلها فسبب لها الجمود، فكان قرار حاكمها أن يعاد تأهيل الموظفين، فإذن يبدّد الجمود بتغيير الذهنية، واستبدال طرق التفكير، وإعادة توظيف قوى الإنسان لإنتاج ما هو أنفع لنفسه ولمجتمعه.

إن الجسد إذا تخثّرت دماؤه ثقلت حركتها في الأوردة فكان لزاماً على الأطباء إسعافها بحفّاتٍ من الإسبرين لكي تخف غلظتها فتنسب في الأوردة لتؤدي وظيفتها في الجسد، كذلك هي حال المجتمعات الإنسانية إن شابها الجمود أثقل حركتها، وأغاظ مسيرها وهي تحسبُ أن ذلك من رغد العيش وبحبوحته وهو في الحقيقة تقهقر وتراجع لأن العيش خالٍ من التجديد الذي هو أساس الحياة وركيزتها. وليس أصعب من أن تجد الجيل الشاب وهو يركن للجمود، فكم قرأتُ لشاب أو فتاة جامعيين قولهما: لمَ نغيّر؟ نحن راضين بالحال...! فتسأل نفسك: ما هي الحال؟ وهل هناك حالٌ ثابتة إلا التغيير نفسه...! هنا أقول: إن لم تتعزز قيمة التغيير في ذهنية الجيل الشاب فإننا نكون عرضة للقانون الفزيائي المسمّى بالعطالة أو القصور الذاتي Inertia ومعناه مقاومة الجسم المادي لتغيير حالته من السكون إلى الحركة بسرعة منتظمة وفي خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة تغير من حالته أي أن كل جسم مادي قاصر عن تغيير حالته (من السكون أو الحركة) ما لم تؤثر عليه قوة تغير من حالته...! هذا ما يحدث طوعاً أو كرها!

لا بد أن يكتسح التجديد كل شيء في حياة الأفراد والمجتمعات لأنه لا شيء يؤخرها ويرديها في ذيل الركب كالجُمود، فالعلم إن لم يتجدد قَدَم، والطب إن لم يحدث بَلَي، والتشريع إن لم يتوافق مع «المصالح المرسلَة» رث، والتنمية إن لم تقم على الاستدامة تعطلت، والإدارة إن لم تستر بعُلم العصر تبلدت، والسياسة إن لم تتغير وفق معطيات المتغيرات تلكأت...! الإنسان بصورة عامة إن جمَدَ تخلف، فهو كالماء إن ركد أسن، وإن سأل طاب. لهذا فلا تنمية بلا إنسان ولا إنسان بدون فكاك من أغلال الجُمود، وبراثن الجُمود. تقول الكاتبة السعودية «حصة آل الشيخ»: «إننا مجتمع بسيط يركن للجُمود لا التغير المستجيب لراهنية الواقع». وتضيف «إن التغير يُنظر له بعين التوجس بوصفه مشروعاً تغريباً للمجتمع، وهذه النظرة الوهمية ترسّخت بفعل التبعية المطلقة لأصحاب فكر الجُمود والتشدد».

ومرجع ذلك إلى المفاهيم والتصورات التي حُشي بها العقل الماضي المثقل بالقيود التي تسبب الكثير من الإشكاليات في الحاضر وتمنع العقل من الانطلاق نحو فضاءات المستقبل!

* * *

ولأجل الرغبة في التغير فقد أُجريت دراسة في إطار التغير الذاتي الإيجابي على طلاب جامعيين فكان من نتائجها أن عوائق التغير تكمن في عدم وجود الدوافع الداخلية، والخوافز الخارجية وهذا مردّه في ذهني إلى ضعف قيمة المبادرة في الثقافة الجمعية. والمتأمل هنا يقفُ أمام أمرٍ مهم وهو: كيف يمكننا أن نتوقع إحداث التغير من جيلٍ يفتقدُ هو ذاته إلى

المبادرة للتغيير؟! هذا سؤال يجب أن تقفُ الأوطانُ إزاءه لتسأل: ما هي مسببات فقدان قيمة المبادرة؟ ما هو الخلل الذي أدى إلى وجود جيل لا يملك دوافع نفسية ذاتية للتغيير، وينتظرُ الحوافز الخارجية كي تدفعه للتغيير وإلا نظر إليها كعوائق أمام مستقبله، وتحقيق آماله!

لا يمكن أن تعالج الدول والحكومات قضايا شائكة كالبحث عن العمل من جانب واحد بإيجاد وظيفة وحسب لأن القضية لن تحل..! فالبطالة المقنعة هي أدهى وأمر من القناعة المكشوفة..! وأعني بالأمر القول: إن إيجاد الوظيفة مع فقدان الدافع الذاتي للتغيير سيجعل صاحبها عبئاً على العمل، أي عبئاً على التنمية والوطن بأكمله..! القضية في أساسها ليست قضية إيجاد وظيفة براتب شهري وإنما نفع هذا الموظف للوطن بتشغيل قواه الذهنية والفكرية والجسدية لإدارة عجالات التنمية: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

يقول الشاعر:

لو لم يكن في المساعي ما يبين به .. فضل الرجال تساوى الناس في القيم
ولولا أن كان بين الناس من جعل التغيير له شعاراً، والمبادرة له مبدأً لفنيت
الحياة من أول نشأتها، لكن هؤلاء المبدعين هم قادة التغيير في الحياة أولئك
الذين لا تهدأ أنفسهم، ولا تسكن عقولهم، فهم يتنقلون كالطائر بين
الأفنان.

من الغرابة أن تسمع طالباً في مرحلة الجامعة يقولون لك: لا للتغيير فنحن راضون عن أنفسنا..! ولو علموا أن «الرضا الذاتي» هو الإعاقة ذاتها أمام الطموح لتحقيق الأهداف. لكننا لا نستغرب إن علمنا أن من يقول ذلك لا يملك أهدافاً في الحياة كأغلب الناس..! فكيف يسعى للتغيير من لم يضع أهدافاً للحياة يريد الوصول إليها. هذا درس أساسي يجب أن يُعلم الإنسان ويوجه إليه منذ نشأته ابتداءً بالسؤال الأول: ما هي مهمته التي خلقه الله سبحانه وتعالى لأجلها في الحياة؟ إلى أهمية وضع الرسالة والرؤية الخاصة بالإنسان. فالخطأ السائد أن الرسالة Mission والرؤية Vision تخصّ المؤسسات والشركات التجارية في علوم الإدارة العصرية، لكنها ليست كذلك، بل هي بالإنسان أكثر أهمية، وأشدّ تأثيراً لأن إنساناً يفتقد إلى الرسالة والرؤية الشخصية لا يمكن أن يكون ناجحاً ودقيقاً وموضوعياً في وضع الرسالة والرؤية الخاصتين بمشروعه التجاري.

إن السائد لدينا هو أن الأهداف العامة التقليدية تتمثل في: الحصول على شهادة جامعية، والحصول على الوظيفة، وبناء مسكن، والزواج..! وبتحقيق هذه «الأهداف» تتوقف الحياة، وكأنّها وصلت إلى نهايتها، ومعها يتوقف العقل عن التفكير، والقوى عن الإنتاج..! أنظر إلى الساعين إلى حمل شهادات الدكتوراة، وتأمل ما الذي يفعلونه بعد حصولهم على هذا «الهدف» أو «اللقب»..! تجذ أن لا تغيير في الواقع قد حدث في حياتهم قبل وبعد إلا القليل ممن جعلوها دافعاً للتغيير، ومحركاً لمتابعة تحقيق الإنجاز..! أنظر إلى أغلب الباحثين عن العمل بعد أن يتحصلوا على الوظائف ماذا يفعلون؟ تجذ أن معظمهم يُسلم نفسه لرتابة الحياة، لأنه قد نال حظّه وتحقق له المراد..! انظر إلى الساعين للزواج بعد زواجهم، تجدهم يذوبون

في ذات الأسلوب الحياتي الذي كانوا عليه قبل الزواج من رفقة أصدقاء، وسهر، ومشاهدة مباريات، ولا تجد أنهم تعاطوا مع الزواج كمشروع يحتاج منهم في المقابل إلى تغيير عاداتهم، ومفاهيمهم نحو الحياة، من أجل أن يعدّوا أنفسهم كـرعاة أكفء للجيل القادم، ومربّين للنشء تربية حميدة، ومحدثين للتغيير الإيجابي من خلال أبنائهم، معززين فيهم القيم السامية. لكن الأغلب ترك الناقة وتوكل، ولم يعقلها ويتوكل..! ملقياً الحبل على الغارب دون أن يدرك عاقبة الأمور، ونتائج المقدمات!

إن الإنسان إن لم يمعن التفكير في وضعه ملياً، ويحدد ماهية وظيفته، وأية أهداف سامية يسعى لها فلن يحقق شيئاً جديراً بوجوده في الأرض..! والمتأمل في هرم ماسلو للاحتياجات الإنسانية يجد أنه يشمل من الأسفل إلى الأعلى: الاحتياجات الفسيولوجية، واحتياجات الأمان، والاحتياجات الاجتماعية، والحاجة للتقدير، والحاجة لتحقيق الذات. وحين نصنّف الزواج والوظيفة والمسكن نجدها احتياجات تنتمي إلى المراحل الثلاث الأولى (من الأسفل) للهرم، أما الأهم الذي قصدت القول فيه حين تحدّثت عن الأهداف السامية فهو «الحاجة لتحقيق الذات» لأنها مرحلة الإبداع والابتكار. هذه المرحلة هي التي تتجلّى فيها مساهمات الإنسان في الحياة، ويضع فيها بصمات الآثار، ويحدث فيها التغيير الإيجابي، وفي هذه الدائرة يقع ما أسميته بـ «الأهداف السامية».

أغلبُ الناس توقّفوا عند المرحلة الثالثة التي تحتوي على (الصداقة، العلاقات الأسرية) وقليلون تجاوزها إلى المرحلة الرابعة التي تحتوي على (تقدير الذات، والثقة بالنفس، واحترام الذات، واحترام الآخرين)، أما المبدعون

وهم قلة قليلة فقد اعتلوا المرحلة الخامسة مرحلة (الإبداع والابتكار وحل المشكلات). لقد شاع في المجتمع مفهوم خاطئ للإنسان الناجح وهو الذي تخرج في الجامعة، ومتزوج، ويعمل في وظيفة، ولديه بيت..! هذا الوصف أحدث قصوراً في النظرة نحو النجاح، وعائقاً نحو التغيير، لأنه اعتبر هذه المتحققات إنجازات وقمم عليا، وأسساً للنجاح!

خلاصة القول: إن الجمود مقبرة الحضارات؛ فالحياة نفسها تعني النمو الذي هو عكس الجمود، وليس من أمر يدفع المجتمعات إلى الفاعلية والتنافسية والتسابق مع الأمم إلا خفة حركتها، وقدرتها على التغيير، وسرعة اتخاذها للقرار، وديناميكيته في إدارة شؤونها، ولا يصيب المجتمعات بالجمود إلا القيادات غير الكفوءة التي تقتل الأعصاب الحية في جسد الدول. ولا يصيبها بالجمود إلا تعطيل المورد البشري المؤهل، وتضييع الوقت، وتبديد الثروات. كما أن الحاجة ملحة لوضع الأسس الصحيحة لتحرير العقل منذ نشأة الإنسان ليفكر وينطلق ويحلل وينتقد ويخطأ ويصلح من أجل أن ينبذ العفن وينفر من الجمود ويحارب السكونية.. فيكون جديراً حينها بقيادة التغيير المؤثر إيجاباً في مستقبل الأمة.



السطحية



استأذنته لنصيحة بعد أن شاهدته وهو يقصف الصلاة قصفاً..! فلا استقام لها ركنٌ، ولا استقرّ لها في نفسه سكينَةٌ وطمأنينة..! سألته: أُنقبلُ النصيحة؟ قال: نعم. أضفتُ سائلاً: هل الصلاةُ عندك عبادةٌ أم عادة؟ قال: بل عبادة، قلتُ له: فماذا تقولُ في أدائك للصلاة؟ قال: أنا مستعجلٌ، وقد طلبتُ من أهلي أن يسرعوا كذلك في التسوّق..! قلتُ له: كيف تُقدّم غير المهم على الأهم؟! الصلاةُ هي رأسُ مالك في الحياةِ لأنها صلتكُ بالله فإن طابت هذه الصلة طابت العلاقة مع الله، وإن انقطعت فقدت العلاقة مع الله..! في الحديث الشريف: «لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ لَا يُقِيمُ فِيهَا الرَّجُلُ صَلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»^{٤١}

تخيّرْتُ هذا المثلَ لأبدأ به حديثي عن السطحية التي أصبحت سمةَ العيشِ لكثيرين في مجتمعاتنا، فإذا كان هذا حال العبادة التي هي جوهر الحياة الإنسانية على ظهر الأرض، وهدف خلقه فكيف يكون حال بقية شؤون الحياة؟!

أصبحت السطحية طابعاً لحياة الكثيرين. بمعنى أنهم لا يعيشون معاني الحياة العميقة، ولا يستشعرون نكهتها، ولا يتلذذون طعمها، وازداد ذلك مع سرعة رتم الحياة، وتسارع نبضاتها المعيشية، مصاحبةً بالقلق والتوتر نظراً لأن الإنسان أصبح مشتتاً تتنازعه الكثيرُ من المشاغل التي إما أن تفرض عليه التعاطي معها، أو أن يقحمُ نفسه في مناخاتها!

آثر الكثير أن يتعاملوا مع البشر والأفكار والأشياء بسطحية لأنهم لا يريدون الغوص في الأعماق، إنما يريدون الشرب من الماء المنسكب من

٤١ أخرجه الترمذي.

الساقية وإن كان ملوثاً بالشوائب ولا ينزفون من عمق البئر...! أما تعاملهم مع البشر فكثيرٌ من البيوت قد أصبحت العلاقات فيها بين الأزواج سطحية...! علاقةٌ لا توطّدها العواطف القلبية الرقيقة، ولا تعمّقها المشاعر الإنسانية الشفيفة. علاقةٌ أوامر ونواهي، وروتينية جافة، هي أقرب ما تكون إلى المعيشة وأبعد ما تكون عن الإرتقاء نحو سمو العلاقة من أجل الشعور بقيمتها، والإحساس بروعة التقارب الإنساني عاطفياً، والفهم العميق لمفهوم الزواج والأسرة وأثره في السعادة الإنسانية. والحال نفسه ينطبق على العلاقات مع الأبناء إذ هي الأخرى سطحية لا تغور في فهم النفسيات، ولا تحدث شيئاً من التقارب العاطفي؛ لهذا صار شائعاً ما يسمى بـ«الفراغ العاطفي»!

أما سطحية الأفكار، فتلك التي لا تريدُ الغوص في المعاني العميقة للرؤى والقضايا وإنما تريدُ «نشرة الأخبار» و«روؤس الأقلام» ولا تكلف نفسها عناء البحث عن التفاصيل التاريخية، والنظريات العلمية، والبُنى الفكرية، شاع الاختزال في الفكر حتى أصبح الـ«١٤٠» حرفاً هو العدد الذي يقاسُ به عمق الأفكار، وقيمة الطرح...! وأخشى أن يلغى ذلك العدد من الحروف ليتحول التغريد Tweeting بالحروف إلى صفير بالصوت فقط Whistling!

يقول الكاتب ياسر حارب في مقاله «نزعة السطحية»: «لدينا مشكلة في العقل العربي عند استيعاب الحياة ومفاهيمها. مشكلة هذا العقل أنه عقل متصفح، يظن أنه يعرف الحقيقة كاملة فتوقف عن البحث عنها، لهذا فإن شغف المعرفة وآليات البحث ليست من أدبياته. وأعني بالمتصفح

أي اللامبالي بالعمق، واللامدرك لمعاني الأشياء، واللامتأوّل لفحوى الحقائق». وسطحية الأفكار تكمنُ في المقولة السوقية التي يتخذها بعضُ ربّانة الإعلام حِجَّةً زائفةً وهي «ما يريدُه الجمهور» أي أنه يريد سطحية الأفكار، وهي حِجَّةٌ اخترعوها لكي يسوّقوا سطحية الأفكار ويصنعوا وعياً سطحياً، مزيفاً!

أمّا سطحية الأشياء فذلك الهوس الاستهلاكي الذي يتملّك بعض الناس فيشترون دون دراية بجدوى الشيء، ودون علم بأثره عليهم، فهم مخدرون يقودهم الوهم المصطنع الذي أثارته شهوةُ الاستهلاك، ونزعة التملّك فيهم؛ لهذا يكثرُ التكديسُ والشراء غير المبرر ولغير فائدة!

لقد أسهمت وسائل التواصل الاجتماعي في خلق رغبة جامحة للشهرة، فترتّب بعض «السطحيين» على قوائم الأعلى متابعةً رغم أنهم يفتقدون إلى أدنى معايير العمق الفكري مما يقومون به من أعمال...! المقياس السطحي فيما يسمى بالإعلام البديل هو الأكثر مشاركةً عبر الصورة أو التغريدة أو المقطع المرئي، فظهر نمط من الشباب والفتيات ممن يروّجون لسطحيّتهم دون أن يكون لهم قضايا ذات قيمة. وفي المقابل، فإن أصحاب الفكر النفيس، والمواهب الخلاقة لا يحظون بالقدر نفسه من المتابعة والشهرة الزائفة!

وأصبحت السطحية واضحة في الرّياء الذي يتخلّق به بعض «رؤّاد» التواصل الاجتماعي، حيث لا يكون همّهم الفعالية التي يحضرونها، ولا العمل التطوعي الذي يشاركون فيه، وإنما اقتناصُ صورة لأجل رفع رصيده المتابعين...! هذه الإشارة لا يقصدُ منها التعميم فهناك من أسهم بدور رائد

وجليّ في خدمة قضايا مجتمعه ولم يكن همّه الشهرة من وراء ذلك ولا الترويج لنفسه وهؤلاء هم من يستحق أن يطلق عليهم «رؤاد التواصل الاجتماعي» وإن قلت مشاركاتهم لكن أثرها عميق.

السطحية أصبحت ملمح بعض الشباب الذين لا يهتمهم الغياب الذهني والانشغال عن البشر الواقعيين لكي يظهروا في العالم الافتراضي، وهناك يفتقد هؤلاء إلى الحس الإنساني العالي بالآخرين، وعلى مدار الوقت ستختفي منهم القدرة على التواصل العاطفي مع من يتعاملون معهم.

وكمثال على أثر السطحية النفسية، كتبت صحيفة لوس أنجلوس عن تجربة إحدى المدارس في أمريكا باصطحابهم لعدد ٥٠ طالباً بعيداً عن الأجهزة الإلكترونية (الكمبيوتر، التابلت والهواتف الخلوية)، وأجروا لهم اختباراً فور وصولهم المخيم. بمشاهدة ٤٨ صورة واختباراً آخر بمشاهدة مقطع مرئي مع كتمان الصوت لتقييم معنى لغة الجسد؛ فكان متوسط الأخطاء ١٢,٢٤، ثم أعادوا الاختبارين بعد خمسة أيام من التفاعل المباشر بين الطلاب فكان متوسط الأخطاء ٩,٨١!.. وهو ما يعني تحسّن معرفة الطلاب بمعاني لغة الجسد بسبب التفاعل الاجتماعي المباشر، وهو ما يعني أنه كلما زاد الإنسان تقرباً وتفاعلاً زاد عمقاً في فهم نفسيات الطرف الآخر.

وللأسف الشديد فإن الكثير من وسائل الإعلام سوّقت للسطحية من خلال برامج «تلفزيون الواقع» (Reality Show) وغيرها على سبيل المثال «آراب آيدول» (Arab Idol) و«بيج برادور» (Big Brother) و«ستار أكاديمي»

٤٢ days away from computer screens boosts preteens' social awareness, Los Angeles Times
http://www.latimes.com/science/sciencenow/la-sci-sn-camp-no-screens-nonverbal-emotional-cues-20140821-story.html

«Star Academy» واستنساخ برنامج «العرض اليومي The daily show» السخيفة، تلقفتها وسائل إعلام مجتمعاتنا العربية مقلدةً في الطريق ذاته لإنتاج السطحية الفكرية التي لا تنتج إلا مجتمعاً سطحياً، لا يمتلك إلا عقلية سطحية!!

أما اهتمامات الكثير من الشباب فأغلبها سطحيةً، يجسدها الإغراق شبه الكامل في عالم كرة القدم حتى أضمر ثقافتهم، وأضعف نظراتهم للحياة..! يقول أحد الشباب في رسالة بعثها عبر الواتس آب وهو يعلق على مباراة بين ناديين أوروبيين: «أنا مشارك في أكثر من ٢١ مجموعة خليجية وعربية وما حدث بالأمس كان شيئاً غريباً لا يجب السكوت عليه. حدثت مشادات كلامية وشجارات وسب بين أعضاء المجموعات، ناهيك عن تصميم الصور بالآلاف وإرسالها في المجموعة..! للأسف اليوم الحملات الجديدة في العالم العربي هي المباريات فعلاً، فقط هزمتنا وبجدارة. ومن باب العلم فقط فقد اطلعت بالأمس بعد المباراة على موقع أوروبي وهذا الموقع في كل ساعة ينزل تقريباً ألف صورة حديثة، ولكن المفاجأة أنني لم أجد أية صورة أو تصميم لمباراة (الناديين)» انتهى كلامه.

هذا نموذج من إفراز ثقافة السطحية التي تشيع في مجتمعاتنا، والمراكز والمقاهي تعج بالسطحيين من الشباب الذين يزهقون أوقاتهم في الفراغ المدقع، بل يدفنون أعمارهم في الخواء اللامتناهي من الأحلام الوردية، والكلام المكرور الباهت..! هذه الثقافة تلمستها في كثير من الشباب السطحي في الجامعات والكليات والمدارس وذلك في مستوى التفكير، والكلام، والكتابات!

إن المجتمعات السطحية تعيشُ على النكتِ والثرثرةِ والإشاعةِ والوشاية...! أما المجتمعات العميقة فهي التي تعيشُ قضايا التنمية والتطوير والتقدم والتخطيط والعمل المتواصل. العالم يصغرُ كل يوم فتضيقُ معه العقول، وتسطحُ فيه الثقافات حتى يصبح الإنسان طافياً في السطح دون جذور، لا يُعرف التاريخ ولا الجذور، ولا القيمة الحقيقية له كإنسان...! هذا ما تريدُ أن تجعله العولمة: إنساناً سطحيّاً مهلهلاً تملكه نزعة شرهة للاستهلاك، وكأنّما هو روبرتُ آلي في جلدِ بشر...!! إنها السطحية ترفعنا كل يوم إلى السطح مبتعدين عن الجذور شيئاً فشيئاً، مدعين دون اعتراض، إلا أن ننتبه من غفلتنا فنستيقظ على هذا الطّفو اليومي بأن نتخلى عن السطحية بإدراك قيمتنا كبشر وقيمة اللحظات التي نعيشها ومعنى الإنجازات الأصيلة التي علينا أن نقوم بها لصالح الإنسانية.



الحديث



عرضت عليه صورةً مركّبةً من صورتين فقلتُ له: ماذا ترى؟ قال: أرى عجوزاً، كثيرةً التجاعيد، شعثاء الشعر، فسألتُه: ماذا لو قال لك أحدهم: إنّه يرى فتاةً في مقتبل العمر، ناعمة البشرة، منسدلة الشعر؟! أجاب على الفور: سأقولُ له إنك غبي. عندها بيّنتُ له أن الصورة مركّبة من صورتين لامرأة عجوز وفتاة شابة قائلاً له: كلاكما على حق في النظرة ولا غبي بينكما!

من أصعب الحالات التي تشكّل ظاهرة نفسية وثقافية وفكرية في مجتمعاتنا هي «الحالة الحديثة» التي هي تتأرجح بين طرفين متناقضين (إمّا أسود أو أبيض) وهي إشكالية وقع فيها البعض في الجانب الديني أو الفكري أو العلمي أو النفسي وغيرها!

أمّا الجانب الديني فيتمثل في الشخصية البعيدة عن الدين وفروضه، المرتكبة للمعاصي إلى حدّ الفجور، فإذا بها نتيجة لموقف ما أو حالة نفسية فجائية (تنقلب) إلى التدين المغالي..! كانت تجيزُ كل شيءٍ فإذا بها تحرّم كل شيءٍ حتى الذي أحله الله (والأصل في الدين الإباحة) ..! ويضربُ نقيض هذه الحالة مثلاً كذلك.

الإشكالية هنا أن هذه الشخصية قد تقع في التدين المغشوش الذي يصفه الشيخ محمد الغزالي بقوله: «إن التدين المغشوش قد يكون أنكى بالأمر من الإلحاد الصارخ»..! ذلك لأن بعض الذين يتلفعون برداء التدين يكونون في مقام حسن الظنّ والثقة من المجتمع لكنهم قد يستغلون ذلك بالتدليس وغش البشر وابتزازهم والنصب عليهم..! هذه الشخصية الحديثة

صاحبة التدين «الشكلائي المغشوش» هي التي عُنيَت - من وجهة نظري المتواضعة - في الحديث الشريف: «المُفْلِسُ مَنْ أُمْتُي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَصَدَقَةٍ، وَيَأْتِي قَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، وَشَتَمَ هَذَا، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^{٤٣}

أما الفكري فيجسدها بعض من تعلّموا في مؤسسات شرعية أو فقهية، فإذا بهم ينسلخون من جلدتهم ويتمردون على معلمهم وعلى العلوم التي اكتسبوها ليستقروا في الحدّ النقيض ليصفوا بأقذع الصفات من تتلمذوا على أياديهم، ويتهموهم بالخرف والجهل والتجبر ويصفوا هم أنفسهم بالتقدميين والعصريين والمفكرين والناشطين وغير ذلك من ألقاب متداولة في أدبيات العالم الحديث..! أما الجانب العلمي فهو بين ماديين يفسرون الأحداث وفقاً للعلم، أو إيمانين يفسرونها بغير ذلك وكأن العلم والإيمان نقيضان..! وهنا يقع الاثنان في إشكالية الحديثة. يعقّب على هؤلاء د. الشريف حاتم العوني بقوله: «ولن يربح من ذلك كله: لا الإيمان ولا العلم، ولن يغلب بذلك الطبيعيون ولا الماديون ولا الشرعيون. بل المنتصر في مثل هذا الطرح هو التفريق والتشردم والاحتقان الفكري والاجتماعي، وسينتصر فيه أيضاً الجهل والتعصّب وضيق الأفق»^{٤٤}.

لا يحسب أننا هنا نتحدث عن اضطراب الشخصية الحديثة ولا عن أعراضها، وإنما نأخذ عنها توصيفها المرضي لنصفَ به ظاهرة في مجتمعاتنا.

^{٤٣} رواه مسلم، والترمذي.

^{٤٤} إقصائية التفسير العلمي والديني... نماذج وآثار سلبية!
<http://www.dr-alawni.com/articles.php?show=26>

ظاهرة أنتجت إشكاليات كان لها أثرها السلبي في تنمية المجتمع، منها الشللية (وهي الجماعات ذات الميول الواحد)، شللية إمّا (معنا) أو (ضدنا) دون وجود مناطق رمادية في الوسط، ولا توجد تسويات ولا تسامح في اتخاذ مواقف معتدلة أو متوافقة مع الطرفين...! الشللية ذات النفعية التبادلية ضيّقت الأفق، وحجّمت النظرة نحو المصلحة الوطنية العليا ليكون بمقاس مصالحها فقط، فيما أن تكون (مع) أو تكون (ضد) مع أن (خير الأمور الوسط)...! والفضيلة كما يُعرف بين رذيلتين...! ومن المؤسف أن الوطن كان ضحية الحدية الإقصائية التي غيّبت من الكفاءات والكوادر الصالحة لأنها ذات رؤية ونظر وبصيرة لا تتوافق مع الشخصيات الحدية التي تتعامل معها فأقصتها، وأهملتها، وهمشتها حتى تذيبها ويلات الاستقلالية في الرأي، والاعتدال في التدبّر، والوسطية في النظر!

وأنتجت الحدية في مجتمعاتنا الشخصية المجاملة المتملّقة التي تدهن هذا المسؤول وتلهب له ألسنة المدح والثناء لمصلحة تروجوها، فإن لم يحققها لها انقلبت عليه ساخطة لاعنة انقلاب الجمل الحاقد على مروضه...! هذه الشخصية الحدية خطيرة في انقلابها إن هي لم تجد ما تصبو إليه من منفعة لأنها شخصية قائمة على الجشع والطمع، وإن كان ذلك على حساب كل القيم الرفيعة التي تتظاهر بها أمام الناس...! هذا النمط من الشخصية الحدية النفعية كثير، فإن كان أحدهم في منصب أو وظيفة نافعة صبّت عليه المديح صبّا، وإن خرج منها لم تقطع الصلة معه وحسب بل تنقلب عليه، تحيلة كل حسناته إلى سيئات!

وأنتجت الحديّة في مجتمعاتنا دُعاة الغلو من جانب، ودعاة التفسخ من جانبٍ آخر، فأصبح الفريقان يتنازعان الحقيقة ويتنافسان لاستقطاب المجتمع واستمالته وهما عدوان له بحكم حديّة الأفكار والتوجّهات.

إن الإشكالية التي يقع فيها الكثير هي الاندفاع إلى كلّ حدّ فإن مدحوا بالغوا في المديح فخلطوا فيه الصدق والكذب، والغث والسمين، وإن خاصموا فجرّوا في الخصومة، وقلّبو كل الحسّنات إلى سيّئات، فصدق عليهم المثل الدارج «كل شيء يزيد عن حدّه ينقلبُ ضده» وفي هذا يقول د. عدنان إبراهيم : «كل المواقف الحدية تجعل الإنسان عرضة للانتقال الدراماتيكي من النقيض إلى النقيض».

الحديّة في بعض مجتمعاتنا الإسلامية أنتجت النظرة الضيقة الأفق التي تُقدّم تفسيرها الأوحد عن الدّين وتصادرُ ما عداه من فهم لأصول الدّين، ومقاصد الشريعة، ومرامي العقيدة..! فإذا بها تجعلُ من الدّين قوالب جامدة، ونصوصاً حديّة، وهو عكس ذلك تماماً إذ هو دينٌ الوسطية والاعتدال والسّعة. هذا الفكر الحديّ شوّه الدّين وسمّعه وجعله رمزاً معادياً للتقدم والتطور في نظر أتباعه قبل الآخرين. هذه الحديّة هي التي فرّقت الأمّة إلى شيع، وحكمت بأمزجتها دخول الجنة أو النار، وفصلت الآيات والأحاديث بحسب منظورها. يحكي الشيخ محمد الغزالي هذه القصة التي نقطفُ منها جزءاً، يقول: «كنت يوماً أتحّدث في موضوع غير ذي بال، وفي المجلس رجلٌ موصوفٌ بالسلفية، وجرت على لساني كلمةٌ موهمةٌ لم أقصد إلى شيء بها! وتلفتُ فإذا الرجل يحسب في نفسه مساراً فكرياً، ويقدرُ أني سأتورط في كذا وكذا، وكشّر عن أنيابه واستعد للفتك!!

غير أن الحديث انعرج إلى ناحية أخرى، وشعرتُ بأن الرجل أسفَ لأنِّي أفلُتُ منه. قلتُ له: فلان! قال: ما تريد؟ قلت: رأيك متحفّزاً للنزال ثم كفى الله المؤمنين القتال. قال: نعم، حسبك ستقول ما لا أوافق عليه. قلت: إنكم تتربصون بالخطأ، لتأكلوا صاحبه، فإذا فاتكم شعرتُم بالحزن، ليست هذه يا صاحبي خلائق المؤمنين! إنكم تجمعون جملة من صفات العناد والتحدي والحقد وتلمس العيب للبرآء وهذا كله مرفوض في ديننا».

إن الحالة الحديثة التي تطبّع بعض جوانبنا الدينية أو الفكرية أو العلمية أو الأدبية قد انتجت إشكاليات تضرّ بالمجتمعات من خلال إقصاء الرأي المخالف، بل وتشويهه واتهامه بشتى الاتهامات، وافتعال التناقضات الحادة في المجتمع لدرجة أنه لا يلوح في الأفق ما يجمع بين الطرفين، وتقليص ثقافة الوسطية بل والنظر إلى كل وسطي بأن انهزامي!

والطريقُ إلى علاجها يكمنُ بتغيير المفاهيم التي استقرّت في العقل الباطن واستبدالها بمفاهيم بديلة ذات صبغة نسبية في نظرتها للأُمور، كما يقول المفكر الراحل علي الوردي: «كلّ شيء يحمل نقيضه في صميم تكوينه. وهو لا يكاد ينمو حتى ينمو نقيضه معه» والتخلّي عن الأحكام الحديثة الجاهزة المبنية على النوايا المبيتة والعواطف المنفعلة.

الاعتدالُ منهجُ حياة

أعشقُ الاعتدالَ، وأمقتُ الغلوَ؛ ففي الاعتدالِ اتزانٌ ومنصفَةٌ، وفي الغلوِّ جنوحٌ ومنقصة...! ولا يزيّنُ المرءُ شيءَ أعظم من كونه معتدلاً، ثقيفٌ

الرأي، شديد النظرة، حفيف الفكرة. ولا يشينه شيء أعظم من غلو النفس، وتهوّر اللسان، وقسوة الجنان..! هكذا شاء الله لنا أن نكون كأمة «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة: ١٤٣) والوسط العدل.

وإنك لترى الرجل فيعجبك فيه مظهره، فتحسب ذلك مما كساه به الأدب، وأفاء به عليه الفضل، فإذا عُرضَ عليه رأي، أو خاض في جدل، رأيته منتفخ الأوداج، محمّر الوجه، ممتقع الجبين، مزبد الشفاه، مشمر السواعد، يشبه الوحش المفترس في هياجه واضطرابه، فتقلب صورته التي كونتها في ذهنك رأساً على عقب..! وما كان من أمره ذاك إلا لأنه سريع الغضب، طائش اللب، لا يحتكم إلى هدوء العقل، ورزانة النفس، وبعد النظر، وسماحة الخاطر!

أما المعتدل فهو حكيم إن تكلم في مجلس، حليم إن نظر في الأمر، رشيد إن كتب في مسألة، سمح إن طلب في مشورة، لا يخوض في جدل عقيم، ولا يشترك في نقاش ذميم، مترفع في عباراته، نزيه في ألفاظه، لا يميل إلى الشدة الحمقاء، ولا يجن إلى الغضب الهوجاء. فإن عُرضَ له أمر، أو تعرّضَ له فهو الفرد الناضج الذي لا تثيره حماقة النفس، ولا تغويه دوافع الهوى..! يرى في الأمر الوسط فيه، والوسط هو مجمع الآراء، وناصية الحكمة، فيه يلتقي الفرقاء، وإليه يأنس كرام الخصماء، وإليه دعا نبي الأمة الوسط؛ حيث قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «الْقَصْدُ الْقَصْدُ، تَبْلُغُوا (أي الزموا التوسط في تأدية أعمالكم تحققوا ما تريدونه على الوجه الأتم)» (البخاري وأحمد).

والإنسان الحذق يتابع التراشقات التي تحدث في وسائل التواصل الاجتماعي؛ فيرى الغلو والتطرف من بعض الناس مدسوسين كانوا أم متقصدين فيرى أسطرهم ويكاد يرى الزبد وهو يفور منها، بل يكاد أن يرى الدّم القاني وهو ينفّر من بين أحرفها..! فيسأل نفسه: لم ذلك ونحن تحت مظلة دين سمح انتشر بالحكمة والموعظة الحسنة ولم ينزع الشهادة من الحناجر بوضع السيوف على الرقاب..؟! كيف لهؤلاء أن يدعوا المنافحة عن الدين، والدين هو في الأصل معناه الدخول في السلم..؟! كيف لهم أن ينجرّفوا إلى هوة التشدد بما غلظ في صدورهم من معتقد لا يمت إلى دين السماحة، واللفظ، والرفق «فبما رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩).

يُروى عن الإمام الشعراوي رحمه الله قوله: ناقشت أحد الشباب المتشددين فسألته: هل تفجير ملهى ليلي في إحدى الدول المسلمة حلال أم حرام؟ فقال لي: طبعاً حلال وقتلهم جائز. فقلت له: لو أنك قتلتهم وهم يعصون الله ما هو مصيرهم؟ قال: النار طبعاً.. فقلت له: الشيطان أين يريد أن يأخذهم؟ فقال: إلى النار طبعاً.. فقلت له: إذن تشتركون أنتم والشيطان في نفس الهدف وهو إدخال الناس إلى النار!

الاعتدال في كل شيء ما لم يكن فيه هوانٌ وذُلٌّ وإثمٌ هو فضيلة بين رذيلتين، وما أضرّ الأمة إلاّ تمللها بين قطبين..! تقول د. لطيفة الكندري في كتاب بعنوان (حوارات اللحظة الحرجة: قراءات عربية لتحديات الراهن)

: «إن العقلية الشيوقراطية والقبلية والعلمانية حجبَت العقل العربي من تحقيق المزاوجة الايجابية بين مقاصد الدين وشؤون الحياة فتبعثرت جهود المخلصين، وحرمت النخب الثقافية المعتدلة من فرصة بلورة مشاريعها الفكرية لإنتاج خطط شاملة أو مشروعات تربوية ميدانية».

ولو أن القيادَ في كلِّ أمةٍ قد سُلِّمَ للمعتدلين في الدين والفكر والأدب والإعلام والتربية والتعليم والاقتصاد والإجتماع... وغيرها من مجالات الحياة لنهجت الأمة منهجَ الوسطية، وارتقت إلى مقاصدها بتوازن واعتدال. ولكن بعض المغالين من أصحابِ النعراتِ لا ينفكُّون باحثين عن الثغور ليفقسوا فيها فتنهم، ويمرروا عبرها شططهم وغلوهم.

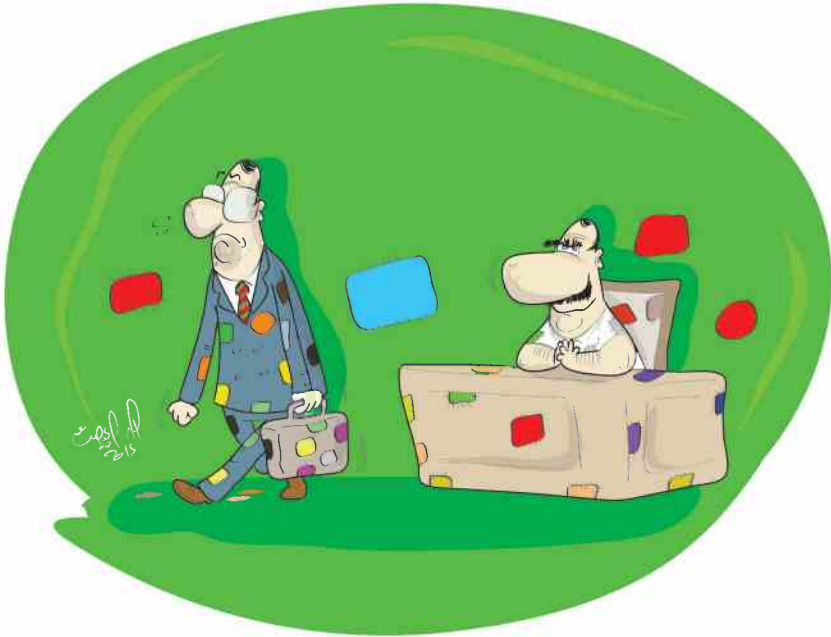
إن النفوس البشرية لا تخلو من ميل ولا تخلص من شوائب، فهي ليست مقدودةً من مادةٍ صلبة متحجرةً وإنما هي مزيجٌ من العاطفة والأهواء والعقلانية والتهوُّر، لكن الإنسان المعتدل هو الذي يستطيع الموازنة في نظره والتحكم في رأيه، وإنني لأتابع عبر وسائل شتى آراءً كثيرةً يدفعها الغلو، ويكتنفها التهوُّر، فإن كان فيها من المنطق شيءٌ فهو مندسٌ لا يكادُ يبين وراء طائش اللَّفظ، وقسوة العبارة...! وإن كان مبعثها نيَّةً صادقةً، ومقصداً حسنٌ فقد اكتنفه التطرُّف في الرأي، وغشاه الميلُ إلى هوى النفس...! فما يظهرُ الحجة سوى الحديث الهادئ الرزين، والكلام الأسر المؤدب البليغ.. وفي هذا فقد أعجبتني مقولةٌ قالها سماحة المفتي -سدد الله رأيه وأكرمنا برشده- حين عرضَ عليه مذيعةٌ إمكانية المناظرة: « بشرط أن تكون بدون تشنُّج ولا انفعال، وأن تكون مناظرةً علميةً مؤطرةً في إطار الأخلاق والآداب»، هذا هو الاعتدالُ بعينه...! الاعتدالُ الذي لا يشوبه التشنُّج،

وهو الانقباض في العضل بدافع من ثوران النفس، وهياجها وخلو من السّماحة والحلم، ولا يخالطه الأنفعال وهو التهور الذي تنقصه الحكمة، ويفتقد إلى سداد الرأي...! الاعتدال الذي لا يشذ عن الحجة العلمية ليميل الى هوى أو يشطح إلى زيغ...! كما أن غلافه الأخلاق ولبّه الأدب فإن خرج عنها أصبح رذيلة يأنف عنها المرء الشريف، والإنسان الحصيف.

نعم إن الاعتدال نسبيٌّ بقدر منظور الإنسان وخلفيته الثقافية، ونشأته وأفكاره ونظراته، لكنّ ما يقصده القول هو ما أخذ الهين اللين السهل الصحيح من الأمر المبني على قاعدة واضحة المعالم، رصينة الجذور، ساعياً إلى سمو المقاصد، ونيل الغايات.



الترقيع



كان الرَّجل القروي المسنّ معروفاً في القرية بإصلاح مضخّات المياه، وكان ماهراً في إصلاحها حتى بعد أن صار أعمى، فقد كانت المضخّات حاضرةً بتفاصيلها في ذاكرته، لكنّه وبعد أن صعبَ عليه «ترقيع» مشكلة إحدى المضخّات، تأوّه بيتٍ من أبيات ابن الصوفي فقال:

كم أداوي القلبَ قلّتْ حيلتي .. كلّما داويتُ جرحاً سألَ جَرَحُ!

الأمرُ الطبيعي: حدوث مشكلاتٍ في مناحي الحياة على اختلاف أهميتها، وأثرها في حياة الأفراد والمجتمعات والحكومات، فيقتضي ذلك القيام بإيجاد حلٍّ ناجع لها، غير أن الأمر غير الطبيعي هو إيجاد حلٍّ مؤقت لا يعقبه حلٌّ جذري، أي ممارسة سياسة الترقيع التي لن تنهي المشكلة بل تعيد ظهورها مجدداً، وربما بصورة أكثر حدةً، بحيث تستعصي عن الحل الجذري ذاته حين «يتسع الخرق على الرّاقع» كما يروي المثل!

هذه إشكالية ثقافية تقيسُ بعد النظر، وصواب القرار، وحسن التخطيط، وقوة الإرادة، وهي من الإشكاليات التي تنفّش في مجتمعاتنا إلى أن أصبحت مما توسّم به. وسياسة الترقيع وإن كانت صالحةً لتهدئة المشكلات لبعض الوقت، إلّا أنها لا يمكن أن تشكّل حلاً نهائياً لها، بل الإشكالية الأكبر استفحال الأزمة أو المشكلة تحت السطح ثم انفجارها في لحظة بلوغها درجة الفوران والاحتقان!

أغلبُ الأفراد، والمؤسسات يبحثون عن الترقيع لحل مشكلاتهم، وهذا أسلوب «التعمية» يمارسه الأفراد والمؤسسات من أجل «كبت» الشعور المنبّه على وجود المشكلة، كمن يفقأ عينَ لمبة جهاز الاستشعار ليوهم نفسه

بعدم وجود مشكلة...! لكنّه لا يغيّر شيئاً في وجود أصل المشكلة، بل إنها تتفاقم إلى الأسوأ، وحال ذلك كحال المسكنات التي تخفف الوجود لكنّها لا تقضي على المرض!

إن الخوف من مواجهة المشكلات مواجهة حقيقية تتسم بتقبّل الواقع والتسليم بوجود المشكلات فيه مما يستلزم التحلي بالشجاعة والإصرار هو خوفٌ يعودُ إلى ضعف الثقة بالنفس، والهروب من المشكلات اتقاءً للعمل السليم. وهذا وهمٌ يسيطرُ على الناس بأن المشكلة غير عميقة، وأنّها قد تحلّ نفسها بنفسها أو يأتي أحدٌ ما ليحلّها بدلاً عنهم!

ويستغربُ المرءُ وهو يرى الترقيعَ في بعض المشكلات المادية الظاهرية مثلاً أمامه في أمثلة كثيرة لا تُحصى، فإن كثرة الحُفَرِ في طريقٍ ما لا يمكنُ حله بالترقيع لأن الإشكالية أكبر من مجرد ردم حفرة هنا أو كبس حفرة هناك، وإنما الحلُّ الأمثل هو جذري يتلخّص في إزالة الطريق برمّته واستبداله بآخر، لأنّ ذلك هو بعينه ما ستفعله الجهة المسؤولة بعد أن يعيها الترقيع فتجد أنها أنفقت على الترقيع من أموال أكثر مما تنفقه على إقامة شارع جديد...! وقس هذا الأمر على المباني والمركبات والحدائق والأسواق وكل ما يخطرُ على نفسك...! يقول الملياردير وارن بافيت : «إذا وجدت نفسك في قارب يعاني من التسريبات، فإن الطاقة المخصصة لتغيير السفن من المرجح أن تكون أكثر إنتاجية من الطاقة المخصصة لترميم السفن».

لكن مع ذلك، يبقى ترقيع المشكلات المعنوية الفكرية هو الأسوأ لأنه يتعلق بوعي الإنسان، وتنمية قدراته الفكرية. على سبيل المثال فإن المشكلات

المتعلقة بالتعليم أو الصحة أو النقل أو الإسكان أو الخدمات العامة الأخرى لا يمكن حلّها بالترقيع وإنّما بسياسة عامة تضع لها أسساً جديدة تنطلق من المواجهة الواقعية للمشكلات، وترسّم بُعداً للآثار الإيجابية المتوخّاة، فإن الترقيع المستمر في هذه الخدمات لن يؤدي بها إلّا إلى تراكم المشكلات وعجز الحلول فيما بعد.

وفي نطاق أخلاقيات المجتمع وقيمه، فإنه لا يمكن الاكتفاء بخطابيات قاصرة، وعظات مستهلكة عن إحداث تغيير كالملتقيات والندوات والورش والخطب... وغيرها، إنّما تحتاج إلى مؤسسات راعية، وسياسات وطنية عامة، وبرامج مؤثرة، وقيادة فاعلة. أمّا في جانب التربية، فإن الحلول الترقيعية لا تنفع إذ يظنّ المربون أن كلمة «اسكت» أو «شراء هديّة» أو «تلبية المطالب» تقضي على إشكالية الفراغ العاطفي أو النفسي عند الأبناء فتبعدهم عن الضياع أو الانحراف أو الشعور بالاكئاب أو القلق من المستقبل... وما إلى ذلك، لكنها جميعها أساليب قد ينهاجها المربون لأجل «عدم تصديق» الأبناء لهم وعدم إقلاقهم بمشكلاتهم، وهذا تخلّ عن المسؤولية وهروب منها!

ثقافة الترقيع هي ثقافة تسكين وتخدير للمشكلات، وهذا يعني بقاء المشكلات المزمنة وعدم القضاء عليها، وهي ثقافة أفقدت مجتمعاتنا الكثير من الجهود والموارد الطبيعية والمالية، وهنا أستذكر مقولة قالها أحد المفكرين «إن ضربة على الجذور تغني عن ألف ضربة في الأغصان»، لكنك ترى الكثير من الناس يقطع الأغصان ظناً منه أنّه قضى على مشكلة تمدد الشجرة التي ما تلبث في الظهور ثانية..! فإن يُقدّم الفرد أو المؤسسات

على الترقيع فهذا يعني أنهم يوهمون أنفسهم بأن هذا هو الحل للمشكلة، لكنهم يعلمون في قرارة نفوسهم أن الحل لن يقضي على المشكلة، وإنما هي مشكلة يريد كل فردٍ توريثها لمن يأتي بعده، فالمسؤول قد يظهر بأنه صاحب حلول سريعة ومثالية وهذا ما يرفع رصيده، ويثبت من مكانته، لكن وبعد فترة من الزمن تكشف الأزمات أن تلك الحلول لم تكن إلا مؤقتة وأنها كانت مجرد ترقيع، حينها يُبتلى غيره بحلّها وربما يلجأ للترقيع ذاته وهكذا دواليك!

تحكي إحدى القصص الرمزية أن شخصاً مات وهو يحاول إنقاذ ضحايا يقعون في النهر واحداً تلو الآخر، وهو يقفز لإنقاذهم حتى كَلَّت أعضاؤه فسحب النهر معهم، ولو تفكّر ونظر لرأى أن السبب فتحة في جسر يسقط منها الناس، حينها سيوفر على نفسه الجهد لو اختار الصعود إلى الجسر ليحذر الناس من مغبة السقوط فيها..! هذه القصة تحيلنا إلى «فقه الأسباب» وضرورة العلم به، يقول د. عبدالكريم بكار: «نحن كثيراً ما نعقد الحماسة للبحث عن الأسباب؛ لأن البحث فيها مجهد ومضن، ونتائجه ليست مضمونة، أو لأننا لا نعترف بأهمية ذلك البحث وجدواه. واعتقد أنه قد آن الأوان لمغادرة هذه الوضعية، والبدء في الحفر في الطبقات العميقة لحياتنا الاجتماعية بكل أبعادها».

نعم علينا مغادرة هذه الوضعية والبدء في الحفر في الطبقات العميقة لحياتنا الاجتماعية، فميلنا تجاه الترقيع في حياتنا - أفراداً ومؤسسات - قد أضاع علينا جهوداً وأوقاتاً وأموالاً، لو أننا استثمرناها في الحلول الجذرية لكان أوفر لنا وأجدى نفعاً، لكن استسهالنا للعلاج، واستعجالنا للحل - بعد

أن كنّا نملك الوقت الوافر - وضيق أفقنا في الإصلاح دفعنا إلى الحلول الشكليّة، والعلاجات الظاهرية، والمهدّئات الوقتية، فكان ذلك باعثاً على تفاقم الأزمات، وتراكم المشكلات. قلتُ لنفسي وأنا أتفكرُ في إحدى المشكلات: «لم يكن لهذه المشكلة أن تظهر بهذه القوة والقسوة إلا بسبب التراخي عن حل المشكلات الصغيرة، وتراكمها ثم تحوّلها إلى مشكلات كبيرة، أعطاها الاحتقان قوةً هائلةً في الظهور كمثل الغاز على خفّته حين يحبسُ في كبسولة يتحوّل إلى قنبلةٍ خطيرة».

هذه الثقافة بحاجة إلى تغيير الأسس ليس بـ«الترقيع» وإنما بتغيير المفاهيم والمبادئ التي نشأ عليها الإنسان في مجتمعاتنا تماماً كتغيير الأرض للغراسة، وتقليب التربة لنثر بذور جديدة، وتهيئة مناخات مختلفة، هذا التغيير يقومُ على تحمّل المسؤولية، وتفهم معنى الرعاية، والقيادة، وتدريب النفس على سعة الأفق، وتحفيز العقل على التفكير لما وراء المشكلات، والتخلّص من الحل الانفعالي، والعلاج المهدئ، ونبد الحلول السلطوية القائمة على الإقसार والإذعان. لا يمكن أن ترمم البيوت والأسس متقوّضة، كذلك لا يمكن إصلاح الأنظمة في المؤسسات، وأساليب التفكير في المجتمعات إن كانت المفاهيم الراسخة في العقل واهية، لا تقبل النقد الإصلاحي، ولا تستوعب التغيير الإيجابي.



الخوف !



تغلغلت مفردة الخوف إلى ثقافتنا حتى أصبحت صفةً من الصفات المكوّنة للشخصية ظاهرةً أو باطنةً بحسب الظروف...! فهي على أطراف الألسن بمناسبة أو غير مناسبة، بشعور أو لاشعور...! وهي مما يثبُط الإقدام، ويشجّع على الإحجام في تحقيق الطموح والمرام.

فإذا تحدّث أحدنا عن منجز يريد إنجازهُ قال: «أخاف» الفشل...! وإذا أراد المضي في أمرٍ تردد قائلاً: «أخاف» أن لا يتحقق، وإذا فكّر في القادم قال: «أخاف» من المستقبل، وإذا ذكر الأب أو الأم أولادهما قالاً: «نخاف على أولادنا»، الخوف مزروعٌ بإيجابيته وسلبيته في النفس، فإن كان في معاني الخوف ما هو إيجابي كقوله سبحانه وتعالى في التنزيل العزيز «واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً» فهو وسيلةٌ لطمأنينة النفس بخضوعها لإرادة خالقها وطاعته، أمّا الخوف السلبي الذي نحن بإزائه فهو الذي يزعزع النفس، ويصيبها بالتوتر الدائم، والقلق المؤذي، والهلع من القادم المجهول مثل الخوف من المستقبل والفشل والفراق والفقدان والتغيير.

وإذا كانت مفردة الحبّ ضعيفة، أو تطلّ على استحياءٍ - لأنها ارتبطت في الفهم الجمعي بمعانٍ غير تلك التي تتقصدها في جوهرها - فإن مفردة الخوف حضرت بقوة...! زادها في ذلك الاعتقاد بأن الخوف وسيلةٌ للخضوع والإذلال الذي هو بدوره يروّض النفس، ويجلب الطاعة، ويُسهّل القياد...! فعلمنا الخوف من الله أكثر مما علمنا حبه...! فإذا ذكر الله اقترن في الكثير من الخطابات والمواعظ والنصائح بالخوف منه، والزجر من معصيته، والوعيد من عذابه، ولم يقترن بحبه سبحانه، والرجاء في مغفرته!

وإذا كانت النفس تحتاج إلى زاجرِ الخوف الإيجابي لصونها من الغفلة والانحراف، وأثره في إصلاحها فقد أبان الله ثواب الخائف (الإيجابي) في قوله سبحانه: «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» وقال تعالى: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ».

إنما محبة الله هي أيضاً دافع لرضاه، والانتهاز عن معصيته، فمن واجب المحبوب على الحبيب أن يبرّ به، وأن يجري في مجرى رضاه، ويسعى في مساعي طاعته.

الخوف السلبي هو خلل النفس، واهتزاز ثقتها بإرادتها الحرة، وتعلمها في اتخاذ القرارات، وذلك مبعثه التربية الزاجرة، المتوقعة التي تفرع بالعصا، وتجلد بالسوط، وتقسو باللفظ، وتغلظ بالتهديد والوعيد.

فإذا قال قائل: أخاف من المستقبل، فإن مبعث الخوف عدم البناء السليم من أجل مستقبل واضح المعالم، بين الطرق، جلي الأهداف والمرامي، كمثل القائل: أخاف على البيت أن تهدم أركانه، ويهوي سقفه، فذاك الذي شكك في رصانة القاعدة، وقوة الأركان وصلابتها.

وإن قال قائل: أخاف من الفشل فذاك هو الذي يمضي «مكباً على وجهه» لا يرى أمامه لأنه لم يشأ أن يؤسس للنجاح تأسيساً صحيحاً، ولم يكلف نفسه عناء التخطيط، فهو يريد أن يجازف بغير هدى، ويمضي دون دليل دون وسائل تعينه على تحقيق النجاح فكيف لا يراوده الفشل، ولا يتخايل أمامه شبح التراجع والهزيمة...! أما من يؤسس للنجاح، ويستعين بوسائله، ويستحضر عوامله، فإن الخوف أبعد ما يكون عن نفسه التي يملؤها التفاؤل بتحقيق المراد.

لقد كان الخوف السلبي في مجتمعاتنا سبباً في بقاء التنمية والتطور الإنساني فيها، فالخوف على المناصب الوظيفية أنتج التسلُّط وممارسة النفوذ، وهذا ما تؤكّده دراسة بعنوان «السلوك التنظيمي وإدارة الموارد البشرية-الدافعية والقيادة» قام بها د. عبدالسلام أبوقحف (٢٠٠٥) ووردت في كتابه «إدارة الأعمال الدولية» حيث جاء في محصلتها أن «نتائج الدراسات الميدانية التي أجريت في معظم الدول العربية أظهرت أن نمط السلوك القيادي المتسلط هو النمط الأكثر شيوعاً في الإدارة العربية حيث تتم عملية اتخاذ القرارات في أعلى المستويات الإدارية كما تتمركز السلطة والقوة في هذه المستويات ويتصف الهيكل التنظيمي بالبيروقراطية الشديدة وتتم الرقابة الداخلية بشكل روتيني فضلاً عن الاعتماد على العلاقات الشخصية وصلات القربى لشغل المناصب الإدارية العليا».

والخوف من المستقبل سائد في مجتمعاتنا وقد أشارت لذلك دراسة الأبعاد الثقافية لجيرت هوفستيد Hofstede، G. بمؤشر ضعيف للعالم العربي في «بعد تجنب المجهول Uncertainty Avoidance»، وهذا ما يجعل الأغلب في مجتمعاتنا يرفع شعار «عمل واحد في الحياة» فهو يخاف من الإقدام على تجربة قد يكون مصيرها الفشل، راضحاً للمثل السائد «إصبر على مجنونك حتى لا يأتيك من هو أجن منك»!.. ولو رُبي وعلم على الجرأة والإقدام، والشجاعة والمبادرة، والأخذ بالأسباب، وتهيئة العوامل الدافعة للنجاح لحاض غمار التجارب تجربة تلو أخرى، ولما رضح لما يقتل مواهبه، ويوهن قواه، ويبدد طاقاته لغير فائدة.

والخوف على/ومن الأبناء يسود التربية في مجتمعاتنا، وهو خوف عاطفي منه ما هو مبرر ومنه ما هو سلبي لهم، فالخوف على الأبناء يقيّد حريّتهم ويلزمهم ذات الأفكار والعادات التي نشأوا عليها حتى وإن كانت لا تصلح في زمانهم، إلّا أن الخوف يدفعهم للحصانة من الزلزل والخطأ بالتمسك بها، وفي هذا يذكر تقرير مركز الدراسات المستقبلية بباريس إلى «أن الشبيبة لم يعد لهم أن يصبحوا على نحو ما كان آباؤهم، أن عليهم أن يكتشفوا عالماً جديداً، وأن يحكموا عليه، لكي يبنوا منه عالماً أحسن في أثناء حياتهم»^{٤٥} وهو ما يطابق قول سيدنا علي كرم الله وجهه: «ربوا أبناءكم لزمان غير زمانكم».

وأصبح الخوف من تمرّد الأبناء وإبقائهم في ربقة السلطة الأبوية هو الزمام الذي يقاد به الأبناء بسلاسة ويسر...! فانتشر التخويف من الساحر والطبيب والإبرة والشرطي من أجل ديمومة السيطرة على الأبناء، وقتل روح التمرد لديهم.

والخوف في مجتمعاتنا أو من قيمة المبادرة؛ فجاءت الأمثال الشعبية معبرة عن ذلك، يقول إحداها: «العين بصيرة واليد قصيرة».

والخوف من المعلّم والمسؤول وكل صاحب سلطة ومنفعة هو المقدّم على محبته وتقديره في أكثر الحالات، وهذا يدل على خلل في الثقافة سائد، وإشكالية لا يمكن المضي قدماً دون معالجتها وفق معادلة متوازنة تأخذ البعد الإيجابي والسلبي للخوف.



الشكلانية



في أحد المطارات الخليجية، صليتُ الفجرَ في مصلى؛ فزحفَ إليَّ بعد الصلاة مُصلٌّ من قطرٍ عربيٍّ وسألني: لماذا لم تضم يديكَ إلى صدرك؟ قلتُ له: أنا أباضي، وأتباعُ هذا المذهب يسبلون أياديهم ولا يضمّون، قال: لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضمُّ يديه. فسألته: هل رأيته؟ فأجاب: لا، ولكن قيلَ لنا، قلتُ وقيلَ لنا أيضاً إنّه كذلك أسبلَ يديه. وأضفت قائلاً: اسمع يا أخي العزيز، كلانا مسلمٌ نتوجّهُ بنيةٍ سليمةٍ إلى الله فاطرِ السموات والأرض، وكلانا يُصلي بالطريقة التي يرى فيها خشوعاً وسكينةً، هذه هي الغاية الكبرى، فلماذا نُشغل أنفسنا بهذه التفاصيل ونترك وجهتنا لقبلّةٍ واحدة؟!

هذا الموقف تعرّض له البعضُ منّا - نحنُ الأباضيّين - خارجَ عمان، وهذه إشكاليةٌ تتعلّق بما يجمع وهو العِماذُ والركيزة والانشغال بما يفرّق وهي تفاصيلٌ لا يجدرُ ذكرها. المصيبةُ أن بعضَ الذين يُحسبون قدواتٍ في الأمة هم المسؤولون عن هذا الإشكال بتضخيمهم للفوارق بين المسلمين وهم الذين يعوّل عليه جمعُ الأمة تحت رايةٍ واحدةٍ وتحقيق أمرِ الله «واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرّقوا» (آل عمران: ١٠٣). والمذهبُ الأباضي لمن لا يعرفه هو مذهبٌ سنيٌّ. بمعنى الاقتداء بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أي هو خامسُ المذاهبِ عدداً وأولها نشأةً...! فإذا كان كل مذهبٍ تسمّى باسمِ إمامه فالمذهبُ الأباضيّ تسمّى كذلك باسمِ إمامه عبد الله بن أباض وإن كان مؤسسه الإمام جابر بن زيد رضي الله عنهما. وما كان نشوء المذاهبِ إلّا لاختلافِ الفقه وهذا أمرٌ طبيعي في الجبلّة البشرية، فالإختلافُ في أمورٍ لا تتعلّق بثوابتِ العقيدة دليلٌ على سعة الدّين، وعمقه، وسماحته. ووالله إن أمرَ الأمة الإسلامية والعربية منها خاصّةً لعجبا...! ما رأت لها

قضية تفرق فيها سوى الخوض في الدين وهو في الأصل «عروتها الوثقى» وحبلها المتين، وعمادها الرصين. وما ضرّها سوى هؤلاء المنتمون على منابرها، المدّعون بالعلم وهم من الجهلاء، المتخرون بما لا يعرفون فهم «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (الانعام: ١١٦).

فخلطوا في الحقائق إمّا عن جهل أو حقد؛ إذ منهم من نسب الأباضية إلى الخوارج دون أن يعلموا شيئاً!! وما بين الأباضية والخوارج كبعد المشرقين كما قال سماحة الشيخ مفتى عام السلطنة!

هذه هي إشكالية يثيرها بعض المتعصبين لمذهب معين أو فكر دون آخر...! أمّا لو رفعوا أبصارهم لرأوا الحقائق الجامعة الشاملة، وهي أن المسلمين قد وحدتهم شهادة واحدة، واجتمعوا على أركان واحدة للإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج، وآمنوا بأركان واحدة فكيف أشغلتهم الصغائر عن عظام الموحّدات، وكيف فرّقتهم الغيبات عن الشواهد؟! هل يُعزى ذلك إلى حكمة وعقلانية يدّعيها البعض؟!

إن الأمة اليوم بحاجة إلى مراجعة شاملة - أكانت هذه المراجعة في موروّثها الفقهي لتنقيته، أو التوقّف عند بعض المسلّمات فيه - وإلى تفعيل الاجتهاد الحنيف، ذلك المراعي لظروف العصر غير الباني على القياس بحذافير حوادثه - في الغالب - وإنما بمثله ومنطلقاته ومبادئه.

إن الأجيال الحالية لا تريد من ينشئ لها في الماضي عن الخلافات وإثماً عن الاتفاقات؛ فأئى منفعة تُرجى من خلاف رميم يبعث فيجدد الضغائن، ولا من تأرٍ قديم يثير الفتنة، ويوغر الصدور...؟! أئى حكمة هذه؟ وأئى

حصافة..؟! العالم اليوم يمضي قدماً في سباق العولمة ومنتجاتها سعيًا إلى امتلاك زمام القيادة، وتحقيق السبق في مجالات مختلفة. أمّا نحن فنتصارع حول أمر غيبي أو فتنة لا تُجدي نفعاً...!! وليس في الأمة سوى قلة يمزجون بين روح العصر وثوابت الأصل فيبدعون فكراً عصرياً خلافاً.. أما الكثرة فمنهم من حسبوا أنفسهم عصريين ينادون بفصل الدين عن الحياة، وهل الحياة سوى الدين في إطاره العام وفي نظامه وقيمه...؟! ومنهم من لا يفهم طبيعة العصر فيعرب «التليفون» بكلمة «المسرة» ومنهم من اقتصروا على ما ورثوه من تراث فقهي فلم يراوحوه ولم يقتربوا منه سؤالاً أو ظناً وهو في الأصل مُحصل بشري، واجتهاد عقلي يقبل التغيير والتبديل بحكم تغير العصر، وتبدل أحوال الناس ومصالحهم. يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه «مائة سؤال عن الإسلام»: «الاجتهاد التشريعي خاصة فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية»^{٤٦}.

ويقول في كتابه «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»: «أما الاجتهاد في آفاق المعاملات، فكما أسلفنا القول، هو ضرورة إسلامية إنسانية، ولن نملك زمام الحياة العامة، ولن نثبت صلاحيتنا للقيادة وصلاحية ديننا لنفع العالم إلا إذا أجدنا في هذه المجالات، وبهرنا العيون في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ومن قبل ذلك في النواحي العبادية»^{٤٧}.

وفي كتابه «الملل والنحل» يقول الشهرستاني: «وبالجملة، نعلم قطعاً وبقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدّ، ونعلم قطعاً أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك أيضاً، والنصوص

٤٦ محمد الغزالي، «مائة سؤال عن الإسلام» نهضة مصر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤، ص ٢١٢.

٤٧ محمد الغزالي «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»، طبعة دار الشروق، ١٩٩٧، ص ١٠٣.

إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية، وما لا ينتهي لا يضبطه ما ينتهي، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار، حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد»^{٤٨}.

ومن المؤسف أن أصحاب بعض المذاهب لا يقبلون مراجعة إرثهم المذهبي جرّاء اعتقادهم يقيناً بأن بعض الموروث لا غبار عليه بل ومقدس لا يجوزُ التحاورُ فيه أو النقاشُ حوله..! لهذا يقع بعض الأتباع ضحايا هذا الموروث مما ليس من الدين في شيء..! ألا يستوجب ذلك تحكيم العقل، وتدبر النفس فيه..؟! الإشكالية الأخرى أن البعض ممن ينتمون إلى مذاهب معينة أو تيارات أو حركات يتظاهرون بالتسامح الديني، والنظرة السامية فوق الخصومات والاختلافات بينما يتبنون في الباطن خطابية التشدد والتطرف، بل الغلو في التطرف!!

يجب على الأمة أن تستفيق من غفوتها، ومن تديراتها الخفية، وتناى بنفسها عن حياة المؤامرات والدسائس بين بعضها البعض ثم ترمي باللائمة على الأجنبي!

علماء يجتمعون في ندوات ومؤتمرات فتشعر بأن الأمة موحدة بهم وهي كذلك في الظاهر، بينما تقولُ ألسنة بعضهم ما لا تخفي ضمائرهم!

وساسة يجتمعون في قمم ولقاءات فتظن أن الأمة بخير لأن قادتها بخير، لكن هبة الحضور وقُبَل التّحيات وابتسامات الشفاه لا تعكس الخصومات الماثرة!

٤٨ د. وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط ١٩٩٦، ص ١٠٨٦-١٠٨٧.

ومثقفون يتظاهرون بأنهم فوق النعرات المذهبية، لكنهم متمذهبون حتى النخاع!

وشعراء يلعلون في فعاليات واحتفالات بقصائد العروبة والوحدة ويسخرون من ساسة، وبهزؤون من قادة، لكنهم يقولون ما لا يفعلون!

ذلك لأن الأمة مصابةٌ بداء الانقسام...! انقسام القول والفعل.. انقسام الجوهر والمظهر.. فلا شفاء إلا بعلاجها من هذا الداء.. وأول ذلك هو الصدق مع الذات، والتحرر من النعرات، والتخلص من القيود والتبعيات، والتنصل من التقليد الأعمى والعصبيات.. «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١).. فكيف يحدث التغيير في الأمة وهي لم تغير نفسها؟!

ومن المؤسف أن تعامل بعض المسلمين مع بعضهم البعض يشوبه الشك والظن والريبة؛ ذلك لكثرة التدليس، والخداع، والغش، والابتزاز الذي يحدث ممن يدعي الإسلام، ويحلف بالله أمامك ثم يسب الدين خلفك...! في حين أنهم قد يثقون بالأجنبي الذي لا يعرف ديناً لأنه لا يكذب ولا ينكر حق الغير...!! هذه حقيقة نعيشها، وتجارب خبرناها، وإن كان في قولها مرارة لأنها مصيبة أصبنا بها...!! أين المسلمون المدعون اتباع سنة نبيهم الهادي عليه السلام القائل: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»^{٤٩}؟! لقد أصبحنا بدلاً من الشد يفك بعضنا بعضاً، فأين نحن من الوحدة التي نرمي إليها أبصارنا؟!

٤٩ البخاري: المظالم والغصب (٢٤٤٦)، ومسلم: البر والصلة والآداب (٢٥٨٥)، والترمذي: البر والصلة (١٩٢٨).

الوحدة التي لا يراؤ منها - كما يقول أ.د. محمد علي آذرشب - «المساس بكراسي ومناصب الحكام القائمين، ولا بأشكال الحكم في البلاد الإسلامية أو العربية؛ فلكل بلد نظام حكمه، وإنما المراد تحقيق منهج التجمع الموحد أو الاتحاد المجمع في مظلة واحدة: هي أحكام الإسلام وشعائره، وعبادته وعقائده، ومقاصده وأهدافه، لإيجاد وجود إسلامي قوي ومتميز، له قراره المستقل وشخصيته المستقلة، النابعة من الحفاظ على المصالح الإسلامية الكبرى».

إن العقل إذا غابَ حضرت بدلاً عنه الشهوات والأهواء، وإن الحق إذا طمس ظهر الزيفُ بديلاً عنه، وإن النور إذ خبا تخبط الناس في الظلام، وإن الدين إذا ضعف في القلوب ظهرت الفتنة...! وإن الاجتهاد إذا توقّف تحجّرت العقول فأصبحت كالصخرة الصماء...! حينها لا تفكر الأمة بل تعيد ماضيها في حاضرها.. فهل يأتي فينا من يسأل: لم نلوك القضايا ذاتها طوال قرون؟!

الشكلانية في العبادات:

هل فهمنا ديننا؟ سؤالٌ صادمٌ للبعض لكنّه في نظري مهم...! أقول مهم لأنه يوقظ النفس من قناعات ومسلّمات ليست عرضةً للجدل والشك. كما تأتي أهمية السؤال في كونه باعثاً على التفكير في ذواتنا؛ قيمنا وسلوكياتنا...! فحينما ترى رجلاً تحسبُ فيه الصلاح والتقوى ثم تراه يبصقُ في الطريق.. تقول: هل فهم هذا الدين؟! وحين تسمعُ عن شخص بما حسبه في الأوّل ثم تعلم أنه قد تمّت مخالفته لمجاوزته الخط الأصفر في

الشارع سيفرض عليك السؤال ذاته... وكلّنا في حياتنا نرتكب مخالفاتٍ سخيفةً هي من أولى شروطِ المسلمِ النقي الطاهر النفس، الزكي القلب، النبيه العقل: إمطة الأذى عن الطريق...! وحين كنتُ أجلسُ برفقة زميل في أحد المقاهي، قدم شخصٌ ذو مظهر وقور وبصق أماننا، ثم رأى الامتعاض بادياً في وجوهنا وقال: عذراً لم أراكما؟! قلتُ له: كان يجبُ أن ترانا...! وكنت أقصدُ أعمق من الرؤية البصرية التي قد تغيمُ عن ناظر الإنسان...! أقولُ عن هؤلاءٍ لأنّهم في نظري أولى الناس بتطبيق أبسط قواعد الإيمان: سلوكيات الحياة البسيطة التي تعكس القيم الرفيعة للدين. ويعلمُ الله أنني أودّهم قدوات طيبة للآخرين في زمن ندرت فيه القدوة...! ومع ذلك، فكلامي هذا ليس مقصوداً على فئة معينة، وإنما عن المجتمع المسلم الذي تظهر سلوكيات وأخلاقيات كثيرة من بعض أفرادهِ منافيةً لمسعى الدين ورسالته السامية. الدين الذي يبدأ من «شهادة أن لا إله إلا الله» وينتهي عند «إمطة الأذى عن الطريق» مروراً بـ «ابتسامتك في وجه أخيك صدقة».

يحسب بعض الناس أنّهم إذا أحسنوا أداء العبادات لا يضرهم معاملة الناس معاملةً سيئة...! وهذا ما يفعله أحدهم حيث يطيل الخشوع في الصلاة والدعاء بعدها وهو يظلم الناس في عمله ويحقّرهم...!! فكم هم الذين يصلّون بقلوب فارغة من التأمل وإدراك مغزى الصلاة، وأنها وسيلةٌ لغاية أكبر «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» (العنكبوت: ٤٥)، ففاعلية الصلاة تكمنُ في كلمة «تنهى» فإن لم تكن «تنهى» فليس لها فاعلية في حياة المسلم...! أمثلة لا تعدُّ ولا تحصى عن أناسٍ يحرصون

على أداء الصلاة، وحين تراهم وهم يصلّون ركعاً سجداً تحسبهم ممن فاقوا
الناس في أربعة كما يقول البارودي:

وَقَارَ بِلَا كِبَرٍ، وَصَفَحَ بِلَا أَدَىٍّ.. وَجُودَ بِلَا مَنٍّ، وَحِلْمَ بِلَا ذُلٍّ

ثم تقودك مشاهداتك إلى ممارساتهم الرعناء مع الخلق فتجد أن الصلاة لا
فاعلية لها في حياتهم؛ إذ لا تنهاهم عن ظلم الناس ولم تنزههم من الأضغان
والأحقاد...! هل يدرك أغلبنا قيمة الصلاة، ومعانيها الروحية، وآثرها
الأخلاقية، وأبعادها النفسية.. أم هي عادة نتقرب إلى الله بها؟! الزكاة هي
أيضاً وسيلة أخلاقية عالية القيمة لتطهير النفس من أمراض الشح والجشع
والأنانية، وتفعيل قيم الفضيلة والرحمة والمحبة بين أفراد المجتمع، يقول
الله عز وجل: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» (التوبة: ١٠٣).

الصوم هو ركنٌ أساسيٌّ من أركان الدين قال الله تعالى: «يا أيها الذين
آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون»
(البقرة: ١٨٣). إذن فالصيام وسيلةٌ للتقوى، وفي الحديث الشريف «اتق
الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».
إذن فالتقوى هي أساس الأخلاق، وجوهرتها اللامعة. والصوم في نظر
البعض ومفهومه شهرٌ واحد أو بالأحرى نهارات محدودة الساعات...!!
فقد يمسك عن الطعام والشراب والكذب والغيبة فيها ثم ينطلق لسانه بعد
إفطاره.. أو بعد انتهاء الشهر دون جماح: يسبُّ هذا ويغتأبُ ذاك...!
غير مدركين أنه يأتي لتصفية القلوب من أدرانها، والعقول من تكلساتها،

والأجساد من تخمتها ..! « فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم.... »

والحج شعيرة أساسية في الدين - لمن استطاع إليه سبيلاً - وهي وسيلة لسمو الأخلاق فالله عز وجل يقول: « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة: ١٩٧). فكم من حاج يدرك ذلك؟! وكم من حاج يعرف معنى مناسك الحج؛ معنى الطواف والسعي ورمي الجمرات والوقوف بعرفة وغيرها؟!

ديننا في مجمله أخلاقيات عظيمة (الدين الخلق) والفرائض فيه وسائل لتفعيل هذه الأخلاقيات، فإن لم تكن فاعلة بطلت قيمة الفرائض وإن كان أداؤها حسناً في الظاهر .. يُستشف ذلك حينما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن امرأة تقوم الليل ولكنها إذا أصبحت آذت جيرانها قال: هي في النار! ..! قراءتنا للقرآن هي الأخرى لا تدل على أننا نقرأ بمعانيه بل أحرفه .. وهذه إشكالية، فالقرآن ليس كأي كتاب يُقرأ فهو كلام الله، والوعي به حين قراءته أمر لا غنى عنه، كما أن الاستشعار بمعانيه ومعايشة صورته شرط من شروط القراءة فيه كي يتعظ الإنسان به، ويدرك أثره على النفس، والعقل.

إننا إذن نحتاج إلى مراجعة ممنهجة، مراجعة في طرق ممارستنا للفرائض، باستشعار آثارها في أعماقنا وحياتنا، مراجعة في طرق اعتقادنا، وفي طرق تفكيرنا، وفي إدراك أثر الإيمان السليم على أنفسنا ومعيشتنا في الحياة.



الحرية



من الذين دعموا احتجاج المجتمع على الفساد المالي المتحقق بالرشاوى التي نظرت قضاياها المحاكم، وبرروا تداول الرسائل في أوساطه على أنه وعي المجتمع بقضايها، قوم انتقصوا وعيه حين احتج على الفساد الأخلاقي...!! فكيف ذلك وفساد المال فرع، أما فساد الأخلاق فأصل...!! كيف تستقيم هذه المعادلة إلا لدن هؤلاء الذين يريدون جر المجتمع إلى الانحلال الأخلاقي بحجة حرية التعبير، واحترافية الأدب...!! أسفي على هؤلاء الذين يؤكدون حق المجتمع في فرع، وينكرونه في أساس...!! أسفي عليهم لأنهم حملة أقلام تعول عليهم الأمة صلاح أمرها، ورفعة وعيها، وصون شرفها، وحفظ عرضها. أسفي عليهم لأنهم يتناولون القضية من منظور فكرهم أو أهوائهم لا من المنظور المنطقي البعيد لصلاح المجتمع، وعلو شأنه، وعزة نفسه.

سوخوا التصوير الفاضح على أنه مهارة للوصف، ودقة في التعبير...!! وصوروا كل ابتذال وفحش على أنه نقل أمين للواقع...!! ثم قالوا منبهين المجتمع من يقظته: أفيقوا فتراثكم مليء بهذه الصور السافرة، وتلك التعابير الماخنة...! فعم تحدثون؟ ولم تستنكرون...!! ثم وثبت فكرة المؤامرة إلى نظر بعضهم، وتهيج الرأي العام وإشغاله عن «كبريات» قضايها بالاحتجاج على فساد أخلاقي!

أسفت على هؤلاء لأنهم يؤيدون حقاً لا يبنى على أساس؛ يدعون حرية، ويروجون لديمقراطية دون قاعدة، وما الأساس ولا القاعدة لأية أمة إلا الأخلاق.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت . . فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تلك المملكة المتحدة (أم الديمقراطية) قد وصلت بها «حريتها» و«ديمقراطيتها» و«أخلاقها» لتقرّ قانون الزواج بين الشواذ المثليين الذين افتخروا بتاريخ بلادهم الديمقراطي..! لم يكن لها سوى أن تقرّ هذا القانون وغيره، لأنها فقدت -في جانب الأخلاق- قاعدتها الأساسية التي كان الدين أساساً لها، فكان أول شاذّ يعلن زواجه من شريكه -بعد اعتماد القانون- قسّ كنيسة!

وها هو البعض يقع في شرك ما يتشدّد به: أن يعي المجتمع بقضاياه المصيرية في السياسة والاقتصاد والاجتماع، ثم يسقط الحقّ عنه في وعيه الأخلاقي..! فأصبح -في نظره- كلّ من يذود عن الأخلاق «رجعياً»، وكل من يعبر عن غيرته «حارس فضيلة» وكل من ينشدّ الصلاح والخير للناس «واعظاً»، وكل من يرفض الابتذال «غير متسامح».. إذن فليفتخر بالرجعية والتجبر كل إنسان حرّ، شريف، نزيه ينافح عن شرفه، وعرض مجتمعه!

هي تهمة ألصقها البعض بكل إنسان دافع عن العفة، ونافح عن السمو، وكافح ضد عبودية الشهوات فأصبح متحجراً يعيد إلى القرون المظلمة، والعصور السالفة، تلك العصور التي ينتقي منها ما يشاء ليطعم به حججه، ويطرّز به ألوان شهاداته..! وحين قلت: أن لا حرية بدون إطار أخلاقي، رد عليّ أحدهم: لقد أعدتنا إلى الستينيات، فقلت له: إذن فأنت المتحرر ونحن الرجعيون..! نعم أصبحنا رجعيين لأننا نتحدث عن أخلاق يجب السمو بها لأنها مرمى السهام السامة.. رجعيين لأننا نريد

إنقاذ جيل تغرقه المؤثرات الحسيّة، ويطارده الصيادون كفريسة مذعورة.. رجعيين لأننا نلبي نداء مدرسة أو كلية أو جامعة تريد منا أن نتحدث عن القيم الرفيعة لأبنائها.. الأخلاق قد أصبحت تهمة العصر، وعدوّة الحرية، وخصم الديمقراطية، والعقبة الكأداء أمام حقوق الإنسان..! أما الشعوب التي «تحررت» من الأخلاق فوضعت الانحلال، والفحش تحت بند حقوق الإنسان التي لا يجوز انتهاكها ولا ضبطها..! فإذا بالأخلاق تتمرّغ بالحضيض تدوسها الأقدام!

إن الدور الذي يمارسه بعض حملة الأقلام الداعين إلى «حرية بلا قيود» لا يقلّ عن «منغلقى الفكر» في الجانب الآخر..! يريدون أن يحيوا المجتمع في الجوانب التي تتواءم مع اتجاهاتهم وميولهم، ويميتونه في الجانب الآخر وهو الجانب الأسمى؛ جانب الروح التي تزهر به الأخلاق.

وها هو من يسوّغ في الأدب المآرب الفنية، والإسقاطات المبتكرة، واللقطات المبتسرة، والتفاصيل الدقيقة، فيجد لها سعة، وعذرا..! وأقول أن للأدب شقين: الأول فني؛ فإن نظرنا إليه من هذه الناحية المجردة من الأخلاق فقد نبرر ذلك له. وإن نظرنا إليه من المنظور الأخلاقي فإننا لن نجد له العذر في أنفسنا لأنه يدغدغ الأحاسيس، ويثير الشهوات بدل أن يخاطب العقل، ويسمو بالمدارك..! ثم كيف سمّي الأدب أدباً إن لم يُعلِ شأن العقل، ويرقى بالذوق، ويشرف بالنفس..؟! والشاهد على ذلك أن تعريف اللآدب في المعاجم هو «ما يجرح الحياء ولا يلتزم فيه بحدود اللياقة والأخلاق»!

تساوق على المجتمع المؤثرات الخارجية، وكأني به يمسكُ درعَه التي هي قيمه الأصيله ليتقي به السهام المرسله إليه من كل مكان، ثم يفاجأ في عرينه بالسهام تأتيه من داخله لتزيده إرباكاً نفسياً، وإقلاقاً أمنياً على هُويته التي تتأسس على خُلُقهِ. إنني هنا لا أتحدثُ عن قضيه بعينها، وإنما عن مبدأ، فأبني مجتمع يتخلى عن مبدأ الشرف، والعفة، والنزاهة والطهارة يدفع نفسه نحو الغرق في مستنقع الغوايات والخزاية...! وأي مجتمع يتسامح مع أسباب الانحراف فلا يرفع رأسه ولا صوته معترضاً، فإنه لا يستطيع فيما بعد كبح أقدامه من السقوط في مهاوي الخطيئة، قال تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (المائدة: ٧٨-٧٩).

لا يمكنُ حرية أن تكون بلا ضوابط ولا قيود وإلا فلت الزمام، ولا يمكنُ حينها كبُت جماح الهياج الإنساني، وتقييد السعار...! وهذا ماثلُ أماننا في الغرب بأنصع ما تراه العين؛ فإنتاجاته شاهدةٌ عليه؛ حيث لا تخلو من أيقونات الشر الثلاثة: العنف والجنس والإدمان!

وإذا كان الواقعُ يكتنفُ من المصائب والبلاءات الشنيعة، فإنه لا يسوِّغُ للفن -أخلاقياً- أن يحاكيه بدقائقه، ويصفه بتفاصيله فهو إذن يسوِّقُ له؛ إذ كم من رسالة أراد الفنُ إيصالها عبر محاكاة الواقع جاءت بعكس ما يريد، فأساءت بدل أن تحسن، وكان ضررها على الناس أكبر من نفعها!

أفهمُ قيمة الأدب الفنيّة وأثرها على الحق والجمال والخير، ولكنني مؤمنٌ

بأن الأدب إن لم يُبنَ على أخلاق سامية فليس بأدب. وأفهم أن الفنان أو الشاعر أو الأديب ذو حسّ رفيف، ونظرٍ دقيق، ولكن أوّمن أنه إذا انحدرَ برسالته إلى أوضار الغواية، وانزلقَ إلى حضيض التهتك فلا يستحق أن يكون صاحب رسالة سامية..! ففي اللغة مترادفات قيمة، وفيها كنايات راقية تُغني عن الابتدالِ والمباشرة علّما إياها ربُّ العزة المتعالى.

وإذا تسامح المجتمع مع كتابات هي في الفن روائع، وفي الخلق شنائع، فكيف الحال إذا تحوّلت تلك الكتابات إلى مشاهد درامية تجسّد بذات التفاصيل التي وردت في النص المكتوب..؟! ماذا ستقولون عنها حينئذٍ أيها المؤيدون؟!

بيننا والغرب فوارق يعتنقها البعض تفسخاً، وتحلاً، وإعجاباً فالمغلوب -كما يقول ابن خلدون- مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. فإن لم يوافقهم المجتمع نظرهم للأمور، وتعشّقهم للميول رموه بشتى الصفات، وأدنى المعايير..! والمرء الأريب يقتضي منه العقل أن يميّز الفوارق؛ ففرق بين علمك بوجود الضرر وبين تسامحك نحوه..! فرق بين حرية تعليق مقاما، وحرية تردك اتضاعاً..! فرق بين شهرة أنتجها الغلط وبين شهرة بناها الشرف..! فرق بين وخزة الغيرة وبين نغزة المشي وراء القطيع..! فرق بين نفاق اجتماعي مزدوج وبين ضميرٍ نقيٍّ، أبي..! يقول المتنبي:

وَوَضَعَ النَّدى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَى .. مَضْرُوكُضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ
النَّدَى

إن المجتمع ليرزح تحت وطأة الغوايات التي تتساقط عليه من الخارج والداخل؛ فهو يناضل من أجل إبقاء ضميره حياً وسط الأمواج الهوجاء المتلاطمة؛ فمن مدافع عنه مغالٍ في دفاعه حتى ينكر عليه كل أسباب المدنية والتطور...! ومن مغر له ليسوقه إلى مراعي دون ضوابط «لِيُفْسَدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ» (البقرة: ٢٠٥) ومن ثالث بينهما يريد له ثبات النفس، وقوام العقل، ووضوح الهدف، وسمو الغاية.

منذ عامين طلب مني وزير الشؤون الرياضية أن أتحدث إلى رؤساء الاتحادات والأندية عن القيم، فكان ضمن ما حذرتُ منه قصّات الشعر للاعبين، وقلت إنهم يمثلون وطناً له تاريخه وثقافته المعروفين، لكن الأمر ترك حتى حدث ما حدث من بعض اللاعبين لفقدان الضوابط، فإذا بالاتحاد يسارع بعد الحادثة إلى إصدار الأنظمة والقوانين فشكرت رئيس الاتحاد على ذلك رغم ندائي من زمنٍ لهذا الإجراء.

هي الخطيئة إن تطل برأسها فلا ترتفع الرؤوس لها، ولا تعلو الأصوات محذرةً منها ستستبدُّ بالمجتمع، وتنتشرُ كالمريض الخبيث في أجزائه. أما أولئك المسوغون لها فإنهم لا يدركون منتهى أمرها، ومآل حالها، ولو نظروها في مجتمعاتٍ تسامحت مع الخطيئة لرأوا العجب العجيب، ولن يغفروا لأنفسهم إن كانوا ذوي ضمائر صادقة...! فقليل من الرحمة بهذا الجيل الناشئ المتلمّس طريق الطهر والعفة، قليل من المسؤولية نحو براعم تبحت عن النور لتمضي مطمئنة تحت هالته الوضيئة.

الخداعُ باسم الحرية

ما أصعبَ الإلتباسَ على من لا يفرّقُ بين ضدّين: الحرية والابتذال، والحرية والإباحية، وهذه الأخيرة والأدب، فالحرية في معناها الطاهر سموً، والابتذال انحطاط، الحرية رفعة والإباحية وضاعة، وبين هذه والأدب ما بين النبع الزلال والمستنقع الآسن!

إن من المصائب أن يعلو صوتُ منادٍ واهم بالحرية حين يعلو صوت المجتمع الرافض لما يחדشُ حيائه، ويهتك عفته من كتابات رافعا عقيرته: لا تصادروا حرية الرأي، لا تخدعوا المجتمع، وهو ذاته الذي هاجم أعمالاً قصدت صلاح المجتمع ورقّيه... أليس هذا انفصاماً في شخصيّة المنادي الذي يشحذ همته للدفاع عن الرذائل بحجة حماية حرية التعبير، ثم يهاجم الفضائل لأنها في نظره خطايات تجاوزها الزمان؟!!

ثم أي تباين هذا الذي يمارسه هؤلاء الذين يحلون لأنفسهم الرأي، ويحرّمونه على غيرهم؟ أوليسوا بهذا يبرهنون على أنهم لا يحترمون مبادئهم إن كانوا صادقين؟! لقد نصبوا أنفسهم أوصياء على المجتمع وهي التهمة التي يلصقونها على غيرهم، أوليس من حقّ أي أحد أن يكون له رأي ما في كتابة مضللة، أو مشهد وضعي، أو صورة دنيئة...؟! أم أن ذلك يوصف بأنه مُشكّل في طرق التفكير لأنه دافع عن الفضيلة...! أي تكالب على المجتمع الذي تنهاوى عليه السهام المسمومة من كل ناحية...!

إن إبداعاً أدبياً بلا ضابط زعم مدحوض، ووهم مرفوض لأن الأخلاق الإنسانية هي منطلق الإبداع الذي إن تملك السطوة المطلقة على الأخلاق، انتفت غايته الجوهرية وهي الرقي بالإنسان: ذوقاً، وحساً، وفكراً، وعاطفة.

ثم إن الادّعاء بأن لا سقف يحدُّ الإبداع من الناحية الأخلاقية هو ادعاءٌ مخادعٌ ويكمنُ خداعه في صحّته الظاهرة، ونواياه الباطنة...! الإبداع هو الإتيانُ بغيرِ المألوفِ وهذا لا اعتراضَ عليه، ولكن أن لا يضبطَ الإبداع في ذات المبدع ضابطٌ يراعي فيه الفطرة الإنسانية، والأخلاقيات الكريمة فإنّه يشكّل انتهاكاً، وتجاوزاً، وتعدّياً، وعلى المجتمع أن لا يكون إمعة لا مبدأ له، بل عليه أن يُعلي صوته رافضاً، ومنافحاً عن مبادئه العليا.

الأمر الآخر أن الوجدان والضمير الجمعي هو الذي يشكّل المرجعية الأخلاقية التي يقاسُ عليها المرتضى من الإنتاج البشري في جوانب الأدب والفن والفكر والعلم، وعلى ذلك فإن اتّهام أصواتها بأنها خداعٌ للمجتمع هو عدم صدقٍ مع الذات، ومكرٌّ زائف!

وأعجبُ العُجب أن يحتكم البعض إلى الماضي فيقول: كيف لكم أن تعارضوا هذه الإباحية وفي موروثكم ما هو أشنع من هذا وأبينُ تصريحاً؟! وفي هذا كأنما احتكموا إلى القرآن العظيم تعالى وجلّ كلامُ الله، وليس لمنتوج بشري فيه نقائص ومثالب، فالموروث ليس مقدساً كلّهُ حتى تحتكموا إليه، وليس مرجعاً حتى تقيسوا عليه، هو في الأخير منتوج إنساني فيه من الغثاثة والنفع ما فيه. وليس ما سبق مسوغاً لما يأتي فالأتمّ تمرُّ في تاريخها بمراحلٍ تضعُّع ورقّي، وعلوّ وانخفاض، وتماسك وانفراط.

إن دسّ السم في العسلِ مصيبةٌ ودهاءٌ يمارسه بعضُ من نصّبوا أنفسهم دعاةَ حرّيةٍ في المجتمع؛ ذلك لمزجهم مفهوم الحرية بالإباحية دون التصريح بها، فماذا يعني أن يدافع إنسانٌ عن إباحيةٍ مطلقةٍ بحجّة الدفاع عن الحرية..؟

أَيُّ حُرِّيَّةٍ يا هذا؟! أَيُّ حُرِّيَّةٍ تنتهكُ الشرفَ الإنساني، وتحطُّ من الذوق الحسِّي، وتهبطُ بالنظرة نحو الجمال؟!!

كما أن الالتواء على الحقيقة مصيبةٌ أعظم حين يخرج الدين من المعادلة، ومن شرف القول، ومن نصوع الحقيقة حين التمازج، ويحضر الرجال دون الحق وهنا نكالٌ بالمقولة الحليفة لسيدنا علي كرم الله وجهه: «عرفت الرجال بالحق، ولم أعرف الحق بالرجال» فكيف لمسلم أن يغيب عنه الحق - وهو لب الدين - ولا تحضر أمامه سوى الشهوات التي تتنازعها، والنزوات التي تتغامزها وهو يجادل في أمر أبانه الدين وأوضح لذي بصيرة مقدّماته ونتائجه؟!!

إن من الأهمية جلاء القول لكل ملتبس أن الأصل في الدين الإباحة، والأصل في الأدب والفن الإباحة وهذه أبوابٌ مؤصلة في الموروث الإسلامي، لكن التحريم هو في الفساد والشذوذ والانحراف، فكيف تقبله الفطرة الإنسانية السليمة؟ وكيف يرتضيه الذوق الطاهر السامي باسم الحرية والإبداع...؟! وإذا كانت المجتمعات الغربية نفسها صادرت إنتاجات ذات اتجاهات عنصرية في ألمانيا أو ابتذالات جنسية لغواية الأطفال في بريطانيا، أو حظر ما يتعارض مع معتقدات كنسية في فرنسا... وغيرها، أفليس من حق مجتمعاتنا الإسلامية أن تصادر ما ينتهك القيم والأخلاق؟!!

الأدب والفن غيرهما من قوالب الإبداع البشري إن لم تكن ذات غايات راقية، وتحليلات سامية، تتحقق عبر فضاءات صافية، انقلبت إلى سموم مدسوسة لأن الكاتب أو الفنان قد استسلم لنوازع الشهوانية وأهوائه المنحرفة، ملقياً بكل حاجز اجتماعي أو أخلاقي دون غضاضة وهذا هو الشذوذ والانحراف الذي يبجله البعض على أنه حرية...!! وهكذا

تساقطُ الحواجز واحداً تلو الآخر، وتفلُ القيود، وتبطلُ الضوابط حتى يشيعُ الانحلال، وتنتشرُ الرذائل، وترسفُ الأمةُ في غيِّها فترى في المنكر فضيلة، وفي الخساسة تحضراً، وفي الدناءة رفعة، وفي الانحطاط حقاً مدنياً مشروعاً..! وليس بعيد نداء هؤلاء باسم الحرية ما قاله أحد المستشرقين: إنك إذا أردت أن تهدم حضارة أمة فعليك بثلاث وسائل: هدم الأسرة، وهدم التعليم، وإسقاط القدوات والمرجعيات، وأضيفُ إلى ذلك: الخط من قدر القيم السامية، وقلبُ المبادئ والمفاهيم، وكل ذلك باسم الحرية والإبداع والتقدم والتحضر!

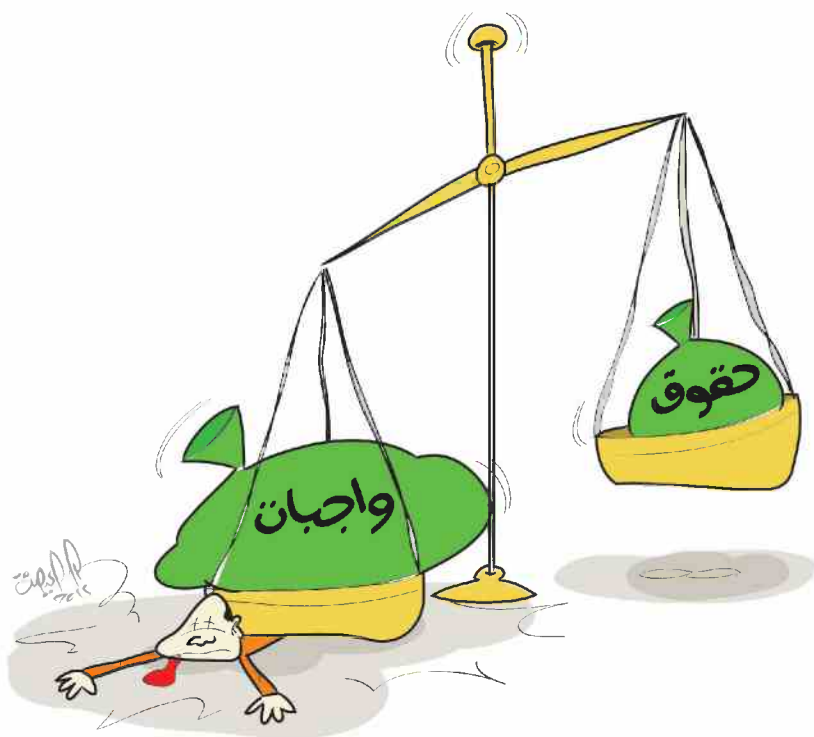
وليس من تفسير أوضح للذين ينادون بهدم الحواجز القيمة للمجتمع في أنهم يسعون إلى تدجين المجتمع وقبوله بصورة تدريجية أنماط الانحطاط الأخلاقي والثقافي بل وحتى الجمالي، واعتبارها قيماً إنسانية راقية تشكّل عناصر أساسية في حقوق الإنسان والتحضر، وهذا ما حدث في العالم الغربي حتى اتسع الحرق على الراقع، فلم تستطع السلطات حتى تقنين الفواحش والموبقات!!

ليصرح من شاء بمعارضته الصريحة لقيم الدين الفضلى، وأخلاقيات المجتمع العليا فذلك خيرٌ له من الالتواء على نصوص، أو الالتفاف على موروث، أو الحوم على زائف القول، وواهم الادعاء؛ لأنه يخون مبادئه، ويحتال على صدقه مع ذاته..! وليكن منطقياً مع نفسه من أنه إن كان مدافعاً عن الرذائل فلا يصادر حق غيره في الدفاع عن الفضائل.

إن قلماً بلا فكر كقنديل بلا زيت، وإن إبداعاً بلا أخلاق كأعين بلا أحداق، وإن أدباً بلا غاية رفيعة كشجرة حاسرة دون ثمر، وإن فكراً بلا نفع كسراب ماء بلا نبع، وإن حرية دون معاني الرقي زيف وانكفاء.



ثنائية الحق والواجب



سَلَّمَنِي ابْنِي عَرِيضَةً أُرْسَلْتُ لِي مِنْ مَدْرَسَتِهِ تَحْوِي جَمَلَةً مِنَ الْإِشْطِرَاطَاتِ، يَبْدَأُ كُلَّ سَطْرٍ فِيهَا بِفِعْلِ الْأَمْرِ «يَجِبُ عَلَى الطَّالِبِ» وَمَطْلُوبٌ مِنِّي تَوْقِيعُهَا كَوَلِيٍّ أَمْرٌ...! تَوَقَّفْتُ مَلِيًّا عِنْدَهَا، وَرَأَيْتُ فِيهَا وَاحِدَةً مِنْ مَشْكَالَاتِنَا الْحَضَارِيَّةِ الَّتِي سَبَّبَتْ لَنَا كَثِيرًا مِنَ التَّعْقِيدَاتِ...! أَلَا وَهِيَ «ثَنَائِيَّةُ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ». بَعْدَ تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ وَقَعَّتْهَا مَعَ تَدْوِينِ مَلاحِظَةٍ أَقُولُ فِيهَا: «كَنتُ أَتَمَنَّى عَلَى الْمَدْرَسَةِ أَنْ تَذَكِّرَ حَقُوقَ الطَّالِبِ كَمَا ذَكَرْتُ الْوَاجِبَاتِ الْمَطْلُوبَةَ مِنْهُ، حَتَّى تَرْبِّيَهُ عَلَى ثَنَائِيَّةِ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ».

أَقُولُ إِنَّ «ثَنَائِيَّةَ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ» وَاحِدَةٌ مِنْ أَعْقَدِ الْمَشْكَالَاتِ الَّتِي نَشَأَتْ عَلَيْهَا مَجْتَمَعَاتُنَا وَانْتَسَبَتْ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْخِلَافَاتِ؛ ذَلِكَ لِحُضُورِ «الْوَاجِبِ» وَغِيَابِ «الْحَقِّ»...! لِإِيضَاحِ «الْوَاجِبِ» وَإِغْفَالِ «الْحَقِّ»...! وَهِيَ ثَنَائِيَّةٌ تَبْدَأُ مِنَ التَّرْبِيَةِ، وَتَعْمُّ كُلَّ مَفَاصِلِ الْحَيَاةِ، وَتَعَامَلَاتِهَا فِيهَا بَعْدَ الْإِبْنِ الَّذِي يَنْشَأُ عَلَى «يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ...» وَلَا يُدْرِكُ فِي الْمَقَابِلِ «مَنْ حَقَّكَ أَنْ...»، يَنْشَأُ وَهُوَ يَعَانِي مِنْ عَدَمِ الْإِتْرَانِ فِي نَظَرَتِهِ الْمَوْضُوعِيَّةِ نَحْوَ الْحَيَاةِ...! فَيَتَأَثَّرُ الْمَجْتَمَعُ فِيهَا بَعْدَ بَهَذَا الْخَلَلِ النَّاتِجِ فِي هَذِهِ الثَّنَائِيَّةِ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ عَقَّبَ قَائِلًا: «إِنَّ الْخُطَابَ الْمَتَسَلِّطَ فِي دَوْلِنَا بَلْ فِي مَجْتَمَعِنَا لَا يَنْفَكُ يَجْلِدُ الْفَرْدَ «بِوَاجِبَاتٍ» لَهَا أَوَّلٌ وَلَيْسَ لَهَا آخِرٌ بِحَيْثُ يَكَادُ الْفَرْدُ يَظُنُّ أَنَّ مَجْتَمَعِنَا هُوَ مَجْتَمَعٌ فِيهِ وَاجِبَاتٌ وَلَيْسَ فِيهِ حَقُوقٌ!».

يَنْشَأُ الْإِبْنُ إِمَّا عَلَى وَاجِبٍ دُونَ حَقٍّ أَوْ حَقٍّ دُونَ وَاجِبٍ...! وَهَذَا خَلَلٌ فِي التَّرْبِيَةِ، ثُمَّ إِنَّ النَّتَائِجَ الْمُرْتَبِةَ عَلَيْهِ يُمْكِنُ رَدُّهَا إِلَى أَسَاسِ التَّرْبِيَةِ، وَنَسْتَذَكِّرُ هُنَا قِصَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي أَتَى سَيِّدُنَا عَمْرُ بْنُ الْخُطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْتَكِي عَقُوقَ ابْنِهِ لَهُ، فَلَمَّا سَأَلَ سَيِّدُنَا عَمْرُ الْوَلَدَ عَنْ سَبَبِ عَقُوقِهِ لِأَبِيهِ قَالَ:

لقد عقّني أبي قبل أن أعقه، قال عمر كيف؟ قال: لم يعلمني حرفاً واحداً من القرآن، ولم يختر أُمّي من نسب فقد كانت أمةً (أي عبدة)، ولم يختر لي اسماً جميلاً فقد سمّاني جعل (حيوان كالخنفساء)، فقال أمير المؤمنين للأب: جئت تشكو عقوق ولدك وقد عققته قبل أن يعقل. وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك، اذهب فقد عققت ولدك قبل أن يعقل.

تعودُ أسباب إشكالية «ثنائية الحق والواجب» في مجتمعاتنا إلى العُرف الاجتماعي الذي يقرُّ بالتسليم في منح التسلُّط والنفوذ للطرف الأقوى: الأب -على سبيل المثال- وما ساد في هذا من فهم غير سديد للحديث الشريف «أنت ومالك لأبيك» فحُسبَ على أساس التملُّك التّام وليس وفق اشتراطات عقلانية..! والرئيس لا يحمّل الخطأ ولا يحاسبُ على التقصير في مقابل المروءوس المستضعف..! وشيخُ القبيلة الذي يملك وحده حق «المذهب» و«التوجيه» وهو إلزام الأمر لغةً وعرفاً الذي يعدُّ الخروج عليه تمرداً على المشيخة والوجاهة الاجتماعية حتى وإن كانت كلمته على باطل..! والزوج الذي ينسى واجباته نحو زوجته ولا يعترفُ لها بحقوقها بالرّغم من أنه أقرّ بقبول صيغة العقد النَّاصِ على «حكم كتاب الله المنزل وسنة نبيه المرسل صلى الله عليه وسلّم، وعلى حسن العشرة عندها وجميل الصحبة لها ورفع الإساءة عنها وأداء اللازم والواجب لها، وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.. إلخ».

إذن؛ فالواجبُ يذكرُ الطرف «المستقوي» ويغيّبُ الحق..! انظر لصيغة إعلانات الوظائف تجدها تشملُ الحقوق «أن يكون حاصلاً على، وأن يقوم بكذا..» ولا تشمل «أن يحصل على..» تذكرُ الواجبات (متطلبات الوظيفة) ولا تذكر الحقوق (الرواتب والامتيازات)!

إشكالية «الحق» تعدُّ أزمةً في حدِّ ذاتها في مجتمعاتنا؛ ولهذا نشأ الخلل في نواح كثيرةٍ فأضّرَّ بالكثير حتى شاع المثل القائل: «القانون لا يحمي المغفلين» من هم هؤلاء المغفلون؟! هم الذين لم يعرفوا حقوقهم التي يكفلها لهم القانون...! في الغرب (أمريكا وبريطانيا تحديداً) حين يلقي الشرطي القبض على مرتكب مخالفةٍ أو جريمةٍ يُملّي عليه حقّه قائلاً: «لديك الحق في التزام الصمت، أي شيء تقوله سوف يستخدم ضدك في المحكمة. لديك الحق في الحصول على محام، وإذا كنت لا تستطيع توكيل محام، فسيتم تعيين محام لتمثيلك».

إن ثنائية الحق والواجب لدليل على نضج المجتمع ووعيّه وتحرّيه العدل والإنصاف، يقول الفيلسوف مالك بن نبي: «لقد غاب عن الأذهان أن الحق ملازم للواجب، وأن الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغير ما في نفسه»، ويضيف قائلاً: «لقد أصبحنا لا نتكلّم إلاّ عن حقوقنا المهضومة ونسينا واجباتنا، ونسينا أنّ مشكلتنا ليست فيما نستحقّ من رغائب بل فيما يسودنا من عادات وما يُراودنا من أفكار...».

هذه الإشكالية خلّفت آثاراً عكسية، فالابن الذي نشأ على «الواجب» لا يعرف معنى «حقوق» لهذا يطالب بـ «الواجب» من الأب غافلاً عن حق الأب عليه...! والموظف الذي يرزح تحت طائلة «الواجبات» التي تثقل كاهله، لا تستغربُ منه عريضة «الحقوق» التي له حين يقومُ بفعلٍ مضاد...! والابنة التي تُرغم أنف والديها على الموافقة قسراً على مَنْ تختاره هي زوجاً لها لم تنشأ على ثنائية «الحق والواجب»، وقس على هذا كثيرٌ من

الأمثلة الناشئة عن اختلال ثنائية الحق والواجب في المجتمع التي تسبب بكثير من أزماتنا..! يقول ابن عطاء الله السكندري: «اجتهادك فيما لك، وتقصيرك فيما طُلب منك؛ دليل على انطماس البصيرة منك».

لقد بُني ديننا الحنيف على ثنائية الحق والواجب، يقول الحق سبحانه وتعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» (آل عمران: ١٤٢)، وحين تولى سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر المسلمين، قال خطبته التي اشتملت على هذه الثنائية: «أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

إن أس العدالة الاجتماعية يقوم على التوازن بين الحقوق والواجبات؛ إذ لا يمكن أن تتحقق العدالة في طغيان واجب على حق ولا رجحان حق على واجب، إنها ثنائية متلازمة بل هي تنبع من بعضها، يقول غاندي: «الحقوق التي لا تنبع من الواجبات لا قيمة لها». ومن هنا، فإن تصحيحاً جذرياً لثنائية الحق والواجب أصبح لازماً كي تتأصل فكرة العدالة الاجتماعية، وينضج وعي التعامل الإنساني، ويصبح لمفهوم «الحرية» معنى أكثر وضوحاً، وأبين دلالة.



ردّة الفعل



من الطبيعي أن يكون لكل فعل ردّة فعل، إنّما ليس من الطبيعي أن تكون الأفعال في غالبها مبنيةً على ردّات الفعل، كالرّاصد على الثغور حراك الظلال! أو المهادن الذي لا يتحرّك إلا بناءً على حراكٍ مقابل!.. أجد أن هذه إحدى مشكلاتنا المغيقة التي تحتاج منا إلى إطالة نظرٍ، وطول تدبّرٍ في الحال والمآل.

إن الأمم التي تقدّمت هي التي لم تبّن أفعالها على ردود الأفعال كمبدأ تبني عليه حراكها، وإنّما هي الأمم المبادرة التي أتت «بما لم تستطعهُ الأوائل». هي الأمم التي استثمرت في البحوث والابتكارات والاختراعات دون أن تخالجه لائمة على ضياع مالٍ في هذا المسعى، أو تخبو لها عزائم في هذا المنال، أو تستعجل نتائج جهدها فتسارع إلى القطاف دون أن يبلغ الحصاد موسمهُ!.. الأمم التي تقدّمت هي التي نظرت جلياً في حال أمرها، ومآل مصيرها، فإذا بها تنتفض مبادرةً إلى ما يسعف جسدها إلى الشفاء، ويعين نفسها على صحيح الدواء، ويدفعها إلى السبق والنماء.

أمّا أن تكون «ردّة الفعل» هي الغالبة، فتلك مشكلةٌ تحتاج إلى سبر أغوارها، وتجلية أسبابها؛ فإنك إن لم تتحرّك لإصلاح طريق أنت تعلم مخاطره مسبقاً فلا تبادر إلا بعد وقوع الحادث الجلل فتلك ردّة فعل مُلامة!.. وإنك إن لم تشرع في بناء سدّ أنت تعي مسبقاً أن عدم إقامته ستكون له نتائجه المدمرة فتلك ردّة فعل غير مبرّرة!.. وإنك إن لم تسرع في إنقاذ مؤسسة من المؤسسات، أو مرفقٍ من المرافق أنت تعلم أنّه قد يتعرّض لفيضٍ أو غرق فتلك ردّة فعل لا تقبلُ أعذارها!.. وإنك إن لم تسدّ الثغرات في قانون من القوانين، أو نظام من الأنظمة تعلم ما فيه من الخلل والخرق ما يمكن المتلاعبين والمخترقين منه فتلك ردّة فعل غير مسؤولة!

وإنني لأجد كثيراً من الأمور تُبنى على ردّات الفعل التي تأتي متأخرة، وغالباً ما يصاحب ردّات الفعل سرعة في التنفيذ، وإرباك في المعالجة، وضعف في تحديد العيوب، وإصلاح مواطن الخلل... فإذا بالجهود تذهب سدى، وإذا بالأموال تضيع هدراً، وإذا بالإصلاح يصبح مشكلة في حدّ ذاته!

إن ثقافة «ردّة الفعل» متفشية وعميقة في المجتمع، فنادر ما يكثرُ أحدٌ بطرق الإسعافات الأولية وهي إحدى أهم وسائل الإنقاذ السريع للإنسان...! وقلّما نسمع عن خطة أو ورشة أو دورة في إدارة الأزمات...! وقليلاً ما يكون التحرك تحسباً لضرر حادث، أو تنبؤاً لصدع متوقع، أو تحرّزاً لخرق في القانون مقدّر...! التحرك في غالب الأحيان بعد «وقوع الفأس على الرأس»، وحينها فإن ثمن الإصلاح عظيم، وخطر الواقعة جسيم!

وإذا نظرنا فينا كأفراد، نجد أننا لا نجد للمبادرة فينا عزماً، ولا همّة، إنّما مجرد نيات مسوّفة - في أضعف الإيمان - وأقربُ مثل هو الفحص الطبي الذي يتجاهله أغلبنا، ويسوّف فيه أو لا يكاد يكثرُ به، وهو من أعلى المهام أولوية، وأرفع الواجبات منزلة، مصداقاً للمثل القائل: «درهم وقاية خير من قنطار علاج» إنّما ننتظر - لا سمح الله - للمرض أن يفرض وجوده، ويعلن عن حالته، وما استفحال نسبة ١٢٪ من مرض السكري في مجتمعنا إلا نتيجة لعدم الأخذ بزمام المبادرة في الكشف المبكر الذي يقي الإصابة به في أغلب الأحيان.

في يوم من الأيام، اقترحتُ مشروعاً لإنشاء «مركز التثقيف الصحي»؛ حيث كنتُ عضواً متطوعاً بلجنة الصحة في الولاية؛ لإدراكي بأهمية المبادرة التثقيفية للتوعية من العادات الخاطئة، وطرق تجنب الأمراض، فتبنت اللجنة المشروع وكونت لجنةً ثلاثيةً كنتُ عضواً فيها، قابلنا بعدها مسؤول في الوزارة المعنية فقال إن الوزارة لديها النية لإقامة المركز فلم تقمه الوزارة ولم تُسند اللجنة في عزمها على إقامته...! وفي دراسة أجريتها منذ عشرة أعوام عن حوادث المرور وأسبابها أوصيتُ ضمن ما أوصيتُ فيها بتشكيل لجنة فنية لرصد النقاط السوداء في الشوارع والتحرك سريعاً لإصلاحها قبل الفواجع، فلم أسمع عن إنشاء لجنة كهذه...! ومنذ فترة، قابلت رئيس جمعية طب الطوارئ والكوارث (قيد الإنشاء) فعلمتُ منه أن طلب الإشهار مضى عليه عامان في الوزارة المعنية...! وفي جانب الفكر علمت من صاحب مشروع مجلة للأطفال أن طلبه قد مضى عليه عامٌ في الوزارة المعنية دون رد!

هذه الأفكار والتصورات والجهود هي مبادرات تهدف إلى الفعل لا ردّة الفعل؛ من أجل تفادي حدوث ما غُفل عنه، أو سُهي عنه، أو أهمل فيه، أو أُخلّ بتخطيط فيه!

فكم من قرارٍ جاء كردّة فعل جعلك تتساءل: لمَ لم يكن من قبل وقد كان مبرراً لتفادي مشكلة؟ وكم من تحركٍ ساقته ردّة فعل كان ليكون أجدى لو سبق وقوع العلة؟ ويسأل السائل: أذلك من عجزٍ وتلكؤٍ، أم من خلل في التخطيط والتنبؤ...؟! والإجابة هي ثقافة متفشية فيها من هذا وذاك!

كثيرة هي مشاريع المبادرات التطوعية وغير التطوعية تجهض دون سبب يذكر، وهي لو قامت لكانت تسهم في التحرك المسبق لمنع كارثة، أو التنبيه لإيقاف خطر وشيك، أو منع مرض خبيث. فلا تُرك لها المجال لتفعيل الجهود وإطلاق المبادرات النافعة، ولا حلت محلّها البدائل، ولا قامت الجهات المعنية بدورها المسؤول، بل بقيت الأحوال على ما هي عليه تجري بوتيرة رتيبة، في حين تقطع الأمم المبادرة مسافات فارقة.

وبإزاء ذلك، تجد ضعفاً في نشر ثقافة المبادرة في المجتمع؛ لذلك ترك الكثير الأمور تسيرُ كيفما اتفق دون الأخذ بالأسباب؛ ومن ذلك: توليد الأفكار، وتحديث الاجتهاد، واستمرارية العصف الذهني، والتخطيط وإبقاء العزائم متوقدة، ومراجعة السياسات، وتبني المبادرات، واستبدال نظم العمل، وطرق التطبيقات.

صحيح أن الحياة تسيرُ في بعض مناحيها بناءً على ردة الفعل، ولكن أن يكون أغلب سيرها -ومعظم تحركها- مدفوعاً بردة الفعل، فذلك يعني إشكالية متجذرة يجدرُ النظر ملياً في طرق حلّها دون تباطؤ وتقاوس!

إن الجمودَ في الفكر والخمودَ في الهمم لا يقودُ إلا إلى الوهن والضعف، وإن التسليمَ بصحة كل شيء -عدا القطعي في العقيدة- لا ينتج عنه سوى التحجّر والتأخر، وإن عدم المبادرة أو إعاقة الجهود، ووأد الطاقات الخلاقة في كل ما من شأنه إعلاء شأن الوطن، وازدهار المجتمع ستكون عواقبه وخيمة.



الماضوية



يبدو أننا أمة تعيش الماضي أكثر مما تعيش المستقبل، ومعيشة المستقبل تعني أن يكون الحاضر أرض الفلاحة للمستقبل، بمعنى أن انتقاء الأفكار، وتشذيب المفاهيم، وتصفية المسلمات يخضع لعملية «غربلة» مستمرة، أما أن نعيش الحاضر ونتطلع إلى المستقبل بكل أفكارنا وتصوراتنا ومعتقداتنا وطبائعنا التي توارثناها أباً عن جد، فذلك ما لا يمكن أن يسهم في صناعة مستقبل مختلف، متميز عن الماضي..! إذن نحن نكرر الماضي، وما التغير الذي نشهده سوى ما تفرضه متغيرات العصر علينا من أطماع معيشة، وانفجار تقني، وثورة اتصالات، إنما ظللنا متشبثين بالأفكار ذاتها بحجة أنها مسلمات، فدخلنا عصر القرن الواحد والعشرين كما يقول نزار قباني:

خلاصة القضية

توجز في عبارة

لقد لبسنا قشرة الحضارة

والروح جاهليّة

صحيح أن الماضي هو أساس الهوية، وأصل الجذور، وسلسلة التاريخ، ولا غنى عنه كإرث وتجربة، ومنجز إنساني متراكم، ممتد، لكن أن يكون الماضي قيوداً ثقيلاً، أن يكون حنياً دائماً، أن يكون جليساً شاغلاً فذلك غير صحيح البتة. انصت للأسر وهي تجتمع، فإذا بها تجترُّ الذكريات جرّاً، وتعيد الصور الماضية كراً، يؤلمك مسمعك من كثرة تردد كلمة الماضي، بينما لا تطرق سمعك كلمة مستقبل!

إذا كان المستقبل هو الذي نخطو له فكثيراً ما نفكر فيه، وقليلاً ما نعمل له...!! إننا نكرر الحكاية مرّات ومرّات، نفعل قدرتنا على التذكر، ولكن قدرتنا على الخيال شبه معطّلة...!! كثيراً ما نعيد حكايات الصبا والطفولة، وهي وإن كانت ذات علاقة عميقة لها وقعها اللطيف في أنفسنا إلا أننا أشبعناها طحناً وعجناً...!! وكلّ ما نتحدث عنه هو الماضي...!! نتوق لكل شيءٍ ماضٍ لأنّ له نكهةً حتى لو كانت مرّةً لأنه فعلٌ منجز!

أما حين يأتي الكلام عن المستقبل، فحديثنا عنه غائمٌ، مشوشٌ، عامٌّ، مشّت .. بينما المستقبل هو الأرض التي سنضع فيها أقدامنا في اللحظات المقبلة...!! المستقبل!! يحسبُ البعض دائماً أن المستقبل هو القادمُ البعيد .. يحسبونه هو السرابُ المرئي، لا يوقنُ به غير ظامئ...!! في الوقت الذي يعني فيه المستقبل الساعات المقبلة إن لم نقل الثواني!

* * *

راقب قاموس اللغة اليومية عند الناس، بل حتى في وسائل الإعلام، لن تسمع من الكلمات الجديدة، والكلمات ليست مجرد رموز فارغة بل هي وسائل فكر، ومحامل وعي، يقول الفيلسوف هاملتون: «الألفاظ حصون المعاني» ويقول الفيلسوف هيجل: «إننا نفكر داخل الكلمات». فإن أضفت كلمات جديدة إلى مقالك أو قصيدتك، قال لك إنك تكتب لغة جاهلية لا تفهم في العصر...! نحن نعيش إذن لغة لا تتجدد، لذلك تتقهقر وتراجع لأننا لا نجد قاموسنا بالكلمات الجديدة، فأصبح تعبيرنا سطحياً لا يوغل في أعماق المشاعر، لأنه لا يملك من الإمكانيات اللغوية للبوح

العاطفي والنفسي..! أمّا اللغة التي نقرأ بها فهي رهينة الكتب ليس لها وظيفة في حياتنا اليومية الاعتيادية، وهذا ما يصيبنا بالانفصام الحاد بين لغة نقرأها، ولهجة نتحدثها!

انظر للحكايات التي تلوّكها مسلسلاتنا التلفزيونية والإذاعية حين تدور حول محور واحد .. قضايا لا تخرج عن إطار الماضي، قصة تلو أخرى ، قصص مغلقة لا تشرع أبوابها نحو المستقبل ..!! واسمعنا حين نتحدث، فإننا نقلّب الماضي تقليباً مملأً..!! أجل نقرأ بأن الماضي هو منبع للكثير من الحكايات ، فهو مطويات التجارب، وسلسلة الأحداث ، ومخزن الصور ، ولكن ما فائدة الماضي إن لم يكن مُلهماً؟! يقول المسرحي سعد الله ونّوس «ما فائدة التاريخ إن لم يسمح لنا بالتنبؤ» .. نعم ما فائدته إن لم يفتح للعقل أبواب الخيال .. الماضي قاعدة ، الماضي تجارب استدلالية يمكنها أن تؤسس لقادم آت .. لأن طبيعة الإنسان - مهما تغيّرت العصور ، وأنماط وسلوكيات المعيشة - ستظلّ محافظة على طبائعها الجوهرية وإن تغيّرت بعض النظرات والآراء والتوجهات!

* * *

كم من المعتقدات غير صحيحة وغير بريئة التي ورّثت في ذهنية شباب القرن الواحد والعشرين، جيل الهواتف الذكية، وثورة التكنولوجيا، وعصر الفضاءات المفتوحة، معتقدات فكرية أو دينية أو اجتماعية، فما ذنب هذا الجيل حتى يحمل إرثاً مئات القرون بما فيه من الثأر والبغضاء والأحقاد والظلامية؟! سألت هذا السؤال لصديق، فقال: نحن مرتبطون بنسبة ٩٠ بالمئة بالماضي!

يقول مصطفى الفقي: «نحن العرب أمة «ماضوية» تنظر قليلاً أمامها وتُنظر طويلاً وراءها، لذلك ظلت علاقتنا بالمستقبل محدودة، وقراءتنا لما هو قادم نادرة، وأنا أتحدث عن ضرورة السعي لاستشراف المستقبل، واستكشاف ملامحه، والسعي منه إلى غدٍ أفضل للأجيال القادمة، فلقد أثبتت تجارب الأمم وخبرات الشعوب أن من يضع عينيه على المستقبل يصل إليه، أما أولئك الذي يلوكون الماضي ويقبلون في شعاراته فهم واهمون لا يصلون إلى غاياتٍ محددة أو أهدافٍ مطلوبة».

ها أنت ترى عقليات قديمة لا تتجدد فكرياً، ولا تعيش المستقبل بأبعاده التي تحمل الخيالات، تقوّد أجيال القرن الواحد والعشرين بعقلية العصور الماضية..! يقول د. نبيل طعمة: «إن لم نمتلك فكراً حاضراً، ندير به أزماتنا، نستنبطه من جوهرها، لا الاكتفاء بتدويرها، لتعود علينا بعد حين، فكيف بنا ننتقل إلى المستقبل بفكر الماضي؟».

أنماط من الإدارة القديمة، ورقيات، رسائل مستهلكة، بيئات عمل لا تتغير، نفس القرارات، نفس التصورات، حياةً مكرورة..! كيف يمكن لذهنية العصر الحديث أن تعيش واقعاً ساكناً، والسكون مصدر الأفن، وأساس العفن..؟! أغلب الأشياء تشدُّ للماضي؛ متاحف، صروح جامدة، ذكريات، لغة، رموز، أسماء شوارع، بعض الهيئات الشكلانية، حتى طرق الطهي، ونظام الوجبات..!! أين هو المستقبل منا؟! كيف نتطلع إليه إن لم نعش له؛ علماً وحلماً؟!

لقد سعدتُ وأنا أقرأ عن إمارة دبي ذات التوجّهات المستقبلية وهي تنشئ - على غير الدارج المعتاد - متحفاً يحمل اسم «متحف المستقبل»

سيكون مركزاً حاضراً للاختراعات الجديدة إلى جانب الأفكار المبتكرة، ومنتدى يضمُّ ألمع العقول في العالم تجتمع للتفكير في التقنيات المتطورة والاكتشافات العلمية، ووضعها موضع التنفيذ. هكذا إذن يعادُ صنعُ المصطلحات الجامدة، واستبدال وظيفتها، فالمتحفُ لم يعد هو مكان الماضي الجامد الصامت، إنما هو ميدانُ الابتكار الناضج بالحياة، ومضمار الأفكار التي تصنع الزمن القادم، ومعبّر الخيال إلى الواقع المفترض.

إن أمة ترهن نفسه للماضي بكلمة «كنا» هي أمةٌ تحكمُ على نفسها بالتفوق، بل بالتفوق. الفخرُ بالماضي المشرف هو جزءٌ من مكونات التاريخ والهوية والوطنية الأصيلة، لكن أن يتحوّل ذلك إلى تمجيد مقدّس، وتبجيل مخدّر؛ فذلك إغراقٌ للعقل في زمن بائد، في الوقت الذي نريدُ لهذا العقل أن يفكر في حل معضلات الحاضر بما يثقله من تبعات ماضوية. يقول سمير حباشنة في مقاله «ماضوية العقل العربي» «حتى لا نعزز الرأي القائل بأن العقل العربي ماضوي بالفطرة، كمفهوم أو تهمة ألصقت بنا كعرب، علينا أن نتوقف عن معالجة الحاضر بأدوات الماضي أو التطلع إلى المستقبل وكأنه استنساخ للماضي التليد، أو اللجوء إلى صفحات من الانتصارات التاريخية للعرب، لنعزّي النفس بما نحن عليه الآن من هوان وانكسار، هذا دون أن نهمل لجوئنا إلى تبرير حاضرنّا البائس بإلقاء تبعاته على الغير، وتناسي أهمية العامل الذاتي الرئيسية بنهوض الأمم أو تراجعها».

إن مقولة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : «علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» هي مقولةٌ مستقبليةٌ، فيها حثٌّ على تجنب التربية النمطية التقليدية، بل إدراك المتغيرات المستقبلية وإعداد الأبناء لهذه المتغيرات، وهي مقولةٌ توجّهُ للدول وليس للمربين فحسب. لذلك فليس

من الغريب أن تجد الشاب العربي وهو يحمل صورة غائمة عن المستقبل في ذهنه مما يولد لديه الخوف والقلق والتوتر من المستقبل..! لهذا فهو يتجنبه، ويتحاشى ذكره، فيعيش حاضره لاهياً لاعباً غير مدرك بأن الحاضر إنما هو مزرعة المستقبل..! يقول الكاتب منح الصلح وهو يعلل تفوق الغربي على الشرقي في مقاله الموسوم «الماضوية ومعوقات بناء الإنسان العربي»: «لو تعمقنا في درس تفوق الانسان الغربي على الشرقي لوجدناها في وضوح صورة الغد عنده وحرصه على نوعية هذا الغد واهتمامه بمتطلباته وعمله على توفيرها منذ اليوم. ذلك أن المستقبلية الغارقة في الطريق إلى تحقيق ذاتها هي سمة الإنسان المتحضر، إذ لن يكون المستقبل إلا إذا عاشت متطلباته وبدأت تؤمنها منذ الآن».

لا حل إذن أمام العقل العربي كي يتحرر من «حالة الارتهان» للماضي، ونزعة الافتتان بسحره، سوى الانطلاق إلى فضاءات العلم والإبداع والابتكار والبحث والعمل والإنتاج. لقد كتبتُ هذا للأجيال في درس لي ضمن كتاب «المؤنس» المقرر للشهادة العامة بعنوان «صناعة المستقبل» قائلاً فيه: لا يمكن للمرء أن يفكر في المستقبل أو يرنو إليه وهو محاصر في فكرة جامدة، أو طاقة معطلة، أو رؤية مبتسرة، لا يمكنه أن ينتظر كي ينطلق نحو فضاءات المستقبل لمسة الفضل الإلهي كي تحيل سكونيته البليدة إلى التفاتات سماوية تغير التاريخ دون أن يغير من نفسه «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١). على العقل أن يشغل نفسه بالمستقبل لا بالماضي، فإن انشغاله بالمستقبل سيدفعه إلى التفكير الخلاق، والعمل الجاد في الحاضر.

* * *

لقد أعجبتني فكرة أحد المعاهد اللوجستية البريطانية وهو معهد تشارترد للدعم اللوجستي والمواصلات the Chartered Institute of Logistics and Transport، ففي «عام ٢٠٠٦ حان احتفاله بمرور ثمانين عاماً على إنشائه، ولكنه - وهذه هي الخطوة المحفزة للخيال - أثر ألا يذكر إنجازات المعهد خلال ثمانين عاماً ماضية - كما تفعل أغلب المؤسسات والناس - وإنما أن ينظر إلى ثمانين عاماً قادمة!! فأصدر تقريراً بعنوان مثير هو «العودة إلى المستقبل Back to the Future»، وقد كانت فكرة رائعة أن يفكر في المستقبل بالنظر بصورة فوقية من عام ٢٠٨٦ إلى ثمانين عاماً مرت وهي لم تمر بعد...!! نعم «التنبؤ صعب جداً، خاصة عندما يكون حول المستقبل» كما يقول يوجي بيرا، ولكننا أفرطنا إذ تركنا الحبل على الغارب، فأسلمنا قيادنا لقول الشاعر «دع الأيام تفعل ما تشاء...!!»، وهو إذا كان يفصح عن مقصده في عجز البيت حين يقول «وطب نفساً إذا حكم القضاء» فإننا اتبعنا الأول أكثر من اتباعنا للثاني!!

منذ أكثر من ثلاثة قرون، كتب إسحاق نيوتن «أبدو لنفسني كما لو أنني صبي يلعب على شاطئ البحر، تلفت انتباهي من فينة إلى أخرى حصاة أنعم أو صدفة أجمل بينما يمتد محيط الحقيقة أمامي ناظري دون اكتشاف»، ذاك كان في عصر قصي، لا تتوافر فيه وسائل المعرفة الحديثة كمثّل هذا العصر، ولكن بالرغم من توافرها في مجتمعاتنا العصرية فإننا نفتقد إلى الروح التي تتوقّد حماساً إلى صنع جديد، أو ابتكار حديث.

* * *

إن العيشَ في الماضي هو ما يعرقلُ حركة المجتمعات ، ويثبّط تقدّم الأفراد ، وبلادة العقول ، وفي ذلك يقول ديل كارنيجي : «إن العيش في الماضي من أهمّ أسباب الشيخوخة المبكرة»، فالشيخوخة هنا ليست مقرونةً بهرم الجسدِ وإنما ببلادةِ العقلِ ، وسكونيّة التفكير ، وجموديّة الهمم!

من ممّا الذي يمضي يومه/أسبوعه/شهريه/عامه وفق مخططٍ مستقبلي واضح الأهداف...؟! مخطط ليس مبنياً على الرغبات فحسب وإنما على الإمكانيات والوسائل التي يمكن الحصول عليها...!! نعم هو تحدٍّ ، ولكنها ليست مهمّة مستحيلة في الوقت ذاته...!! وذلك لو استطعنا توظيف الأوقات المهدورة من أعمارنا، واستثمرناها في هذا التخطيط بدلاً من هدرها بلا طائل...! هل نفتقدُ إلى الحماس، أم للطريقة؟!

إننا كلّما افتتحنا مشروعاً من المشروعات، أو احتفلنا نظرنّا إلى الماضي في كلماتنا، وسطرنا الإنجازات التي مرّت والتي أتينا على ذكرها مرّاتٍ ومرّات...!!، فلماذا لا يكون للماضي ثلث - لأرضاء أنفسنا - والمستقبل الثلثان في كلامنا...!! لقد تقدّمت الأمم لأنّ أفرادها يفكرون في المستقبل بجديّة عمليّة .. ولذلك أنتج تفكيرهم العمل من أجل تحقيق الأهداف التي خطّطوا لها، بينما يسكننا نحو صوت شاعرنا الجاهلي وهو ينوحُ على الأطلال!!

أقول إن لم نتحرّر من التّوح على الأطلال ، واسترجاع الماضي مرّةً بعد مرّة، فإننا لن نتقدم .. كما أن الإنسان إذا ظلّ يدور حول ماضيه دائماً وأبداً ، فلا جديدَ في قوله ، ولا حديث في فعله ، ولا جدّة في طرحه ،

ولا مبتكر في فكره ، ولا مُبهر في أسلوبه فإنه إنسانٌ منته ، خرج من دائرة الحياة اليومية المعاصرة؛ فالتجديد في الفكر ، ومتابعة ما يحدث من حولنا ، ومراقبة تغيّرات الطبيعة ، وأحوال الاقتصاد ، وتبدّلات السياسة ، وطروحات العلم ، وسلوكيات البشر ، وفرص المعيشة ، هي المرتكزات التي يبنى عليها الإنسان تخطيطه ، ويضع عليها تصوّراته ، للمستقبل ، والمستقبل هو الساعة المقبلة ، اليوم/الشهر/العام/الأعوام المقبلة!!

وهذا الكلام لا ينطبق إلا على إنسان حيّ ..! يريد أن يكون يعيشه معنى ، ولحياته قيمة ، ولا سمه أثر ..! أمّا ذلك الذي يحبّ العيش في دُجن الظلام ، وأرصفتِ الهوامش ، وصناديق النسيان فهو يعيش لكي يأكل ، لا يأكل لكي يعيش..!! وهو ينام لكي يحلم ، لا يحلم لكي ينام ، وهو يجمعُ الأصداف والحصى لكنّ نظره قاصرٌ عن النّظر إلى محيط الحقيقة الذي امتدّ أمامه كما رآه نيوتن ..! يجمعها ليصوّبها نحو البحر ثانيةً لأنّه ساخطٌ على كلّ شيءٍ ، منهزمٌ من كلّ شيء .. ولعمري ما عاش ولا بقى إنسانٌ ساخطٌ ، منهزمٌ على ظهر هذه الأرض .. إنّما العيش لمن جعل المستقبل منارته ، فحفّز لها خياله ، وأعمل لها فكره ، فهو مستمتعٌ بكل لحظةٍ يحيها لأنّها من نتاج فكره ، وليست من فتات الآخرين!!

* * *

نرهنُ أنفسنا للماضي أكثر مما ندفعها للتطلّع للمستقبل ..! مكبلين بأغلالٍ ما حدث من وقائع مضت وأحداث مرّت، نجرحها ثقيلة الأحمال، دون أن نتوقف برهةً لنسأل أنفسنا: علامَ نفعل ما نفعل وكأننا أسرى مسيرين،

جُبلت أنفسهم وطبعت على احتمال ما لا يطيعونه، وما لا يجديهم نفعا...! لو سألت من سألت عن تفضيل الأزمنة لقال لك: الماضي أحلى...! وهو حين يجيب عن السؤال فإنما لا يقصدُ الماضي لمعيشته وإنما لزمن طفولته وبرائها...! أما حين يستحضرُ ضنك المعيشة وقسوتها، فإنه يتنفسُ بعمق فيحمدُ الله على أن أبدله راحة العيش، ورغد الحياة...! حين تجتمع الأسرة، فإنها لا تجد رابطاً يسليها، ووصلاً يؤنسها سوى استرجاع الأحداث الطفولية البريئة مرات ومراتٍ دون كللٍ أو ملل!

هي الطفولة إذن ولحظاتها العفوية الساذجة التي بقيت ورودها متفتحة في القلوب، نضيرة الأفنان، ريانة الجذور.. أما الماضي فلا يقتصرُ على الطفولة وحدها وإنما يشمل كل حدثٍ وواقعة، وموقفٍ ولحظة.

تطلعنا للمستقبل ضعيف لهذا ضعف تخطيطنا له، وتصورنا لوقائعهِ وفق الأسباب التي تنسبها، والأفكار التي تنبأها...! كما نعيش الحاضر بـ«البركة» وليس باستشعار كل لحظاته، وإدراك أنها خطوات تبني ما يأتي...! لهذا فكثيرٌ من أوقاتنا أو أموالنا أو طاقاتنا تتبدد بلا أثرٍ يذكر...! نستلذُّ بذكر الإنجازات التي مضت، ونبالغ في تكرار الحديث حولها فنتسبب في ضياع قسطٍ كبيرٍ من أعمارنا ونحن لا نذكر سوى ماضٍ فات لا يأتي ثانية.

رهنت الأمة نفسها للماضي، وقيدتها بقيودٍ ثقيلة حتى لم تعد تقوى على الانطلاق، فأنى لأرجلها أن تسابقَ الريح، وتجاري الأمم إلى علم يفتح عليها مغاليق، أو ابتكارٍ يعيدُ لها مجداً...؟! وكم هي المرجانات والفعاليات

التي يحضرُ فيها الماضي بطغيانٍ جارف، يقابلهُ شحٌّ للمستقبل رغم أنَّ الإنسانَ في حراكه التاريخي مُقبلٌ لا مُدبرٌ..! فلكيف ارتضى الكثير أن يعيشوا رهائنَ ماضٍ ولَّى وفات، ولا يدفعون أنفسهم لمستقبلٍ مقبلٍ آتٍ..؟! وكيف ارتضوا أن يعودوا القهقري إلى الوراء بدلاً من أن يحملوا من الماضي ما يعينهم على البناء؟!

أخبرتني ابنتي ذات العشرة أعوام أنها بحثت في محرِّك البحث العنكبوتي (جوجل) عن مستقبلِ عمان..! فسررتُ أيَّما سرور لأنها تريدُ أن ترى وطنها في القادم من الأيام لتشعرَ بكل كلمة تكتبها، أو كلَّ حرف تتعلمه، أو كل درس تعيه.. فعدتُ إلى محرِّك البحث لأحصرَ عباراتها البحثية فوجدتُ الطفلة قد كتبت (عمان في ٢٠١٤)، مستقبل البناء في عمان، عمان- مسقط أفضل مستقبل، عمان في المستقبل، وأخيراً: مستقبل سلطنة عمان الجميل!).

المشكلة أننا نتجنَّى على أبنائنا بما نعتقده نحن، وبما تربينا عليه وتلك مثلبة من مثالب التربية أخفقنا في إصلاحها حتى بانَّ على الأمة تخلفها، ووضعَ فيها تراجعها ونحن نسأل متغافلين: لم يحدث هذا؟! لم نربَّ أبناءنا على نصيحة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بقوله: «ربُّوا أبناءكم لزمان غير زمانكم»، وإمَّا ربيناهم على «انفق ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب» ولم نقل لهم إنها للصدقة فحسبوها لكل شيء فبذروا وأسرفوا!

المستقبلُ صناعةٌ لم نحسن صنعها، ولي في كتاب المؤنسِ درسٌ لطلاب الثاني عشر بعنوان «صناعة المستقبل» أقولُ فيه: التَّوجيه الأريب الذي يدفع

الإنسان إلى الوعي بعدته اللازمة للحراك الاجتماعي هو الجدير بوضعه على سكة المستقبل، إذ المستقبل هو نتيجة الفعل المتأتية منه. المستقبل هو إفراز اللحظة الفائتة، ناتج الحركة التي سكنت أو التي تستمر أقراسها في الدوران!!.

يقول الأديب الإيرلندي أوسكار وايلد Oscar Wilde : «إنَّ توقُّع ما لا تتوقَّعه دليل على الفكر الحديث تماماً» لهذا فقد أعجبتني مبادرات بعض المعاهد والمؤسسات التي تتطلَّع إلى المستقبل في احتفالياتها أكثر من ذكرها لما حققته من إنجازات. إحدى هذه المبادرات قامت بها شركة DHL وهي شركة تعمل في مجال الخدمات اللوجستية؛ إذ كلَّفت مجموعة من الاختصاصيين لعمل سيناريوهات مستقبلية تتنبأ بصورة النقل اللوجستي مع حلول العام ٢٠٥٠م وأصدرتها العام ٢٠١٢م في كتاب حمل عنوان «النقل غداً» كتبَ رئيسها التنفيذي في مقدِّمته قائلاً: «إنَّ من الأهمية القول بأنَّ هذه السيناريوهات لا تعكس بالضرورة نظرتنا ولكن إدراك حدودنا لا يجب أن يمنعنا من إطلاق خيالنا لمعرفة ما قد يحدث في المستقبل».. هذا هو ما يجب فعله: التنبؤ بالمستقبل دون المراهنة على حصوله ولكن لرسم السياسات، وتعديل المسارات، والتزوّد بالمعارف والمهارات. لكن واقعنا مختلف فقد نشأنا على أن نعيش يومنا، لهذا فليس غريباً أن نسمع عبارة «عش يومك» وهي تعني في أحد مقاصدها: لا تكثر بما سيأتي!.. وليس عجباً أن نسمع «ما نعرفه أحسن مما لا نعرفه»!.. وهذا ما تؤكده نتائج عالم الاجتماع الهولندي هوفستيد Hofstede الذي قاس درجات أربع. معايير ثقافية لشعوب العالم؛ حيث حصل العرب في بحثه على درجة ٦٨ في معيار (تجنّب غير المتوقع Uncertainty Avoidance) وهو معيار

يرتكز على مدى تغذية أية ثقافة لمتسببها لمواجهة الأحداث غير المتوقعة، والأوضاع المفاجئة، والمتغيرات الطارئة. وارتفاع الدرجة يعني إشكالية ثقافية تساند الفكرة التي أبسطها هنا.

إنَّ الأمم لا تتقدّم إن كانت ترهنُ نفسها للأمس الفائت، ولا تتحفّزُ هممها، وتقذح خيالاتها للغدِ المقبل. كما أنَّ الأفراد لن يضيفوا شيئاً إلى خبراتهم، ومعارفهم، وعقولهم إن هم تعلّقوا بالماضي بكل ما فيه من آلام وهموم، ولم يتألّفوا في حاضرهم، أو يتصوّروا مستقبلهم.. لهذا حدثت الثورات الزراعيّة والصناعيّة والمعلوماتيّة بيد أفرادٍ أطلقوا العنان لخيالاتهم كي تشطح، ولعزائمهم كي تتحفز، ولخطاهم كي تثب. يقول أبو الطيب المتنبي:

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي

مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ

مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ

فَمَا يُدِيمُ سُرُورٌ مَا سُرِّرَتْ بِهِ

وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ

ويقيناً أنه لو لم يكن يملك هذه الروح الوثابة لما عاش هو وغيره من أصحاب النفوس الخلاقة بيننا اليوم..! هي إذن فكرة «المستقبل الآن»، تلك التي لا تتحقق سوى بالتخفف من التبعية للماضي باستثناء ما تقتضيه لوازِم الروح والعقل والنفس والتاريخ، حينها يمكن للأفراد - وبالتالي للأمة - أن تدفعها خيالاتها للبحث والابتكار والاكتشاف، وهو ما يعنيه جوهر «التطور» و«التقدم» اللذان نرددهما دون فهم عميقٍ لهما!

صحيح أنه لا يمكنُ الانعتاق من الماضي؛ فالماضي إلى جانبِ أنه جذرُ الحاضر فهو أيضاً نبوءةُ المستقبل، يقول الفيلسوف الصيني كونفيشيوس: «ادرس ماضيك إن أردت أن تتنبأ بالمستقبل»، بيد أن بعض تركّات الماضي ثقیلٌ حملها، أسهمت في البطء الحراكي الإنساني، في حين أننا في عصر التقدم السريع الذي لا يمكن أن ينافس فيه سوى رشيق الحركة، سريع الانتقال، والقرار.

الأمة التي تعيش أغلب أوقاتها في ماضيها تخسر أوقاتاً ثمينة في حاضرها، فيضّر مستقبلها ولا ترى أثر التبدّل والتغيّر فيها إلّا بالكاد، إذن إذا كان «المستقبل هو الذي ينبغي أن يكون مدار تفكيرنا وتخطيطنا»، فلا بد لنا أن نوسّع للمستقبل مساحةً شاسعة من أوقاتنا وتفكيرنا، وتخطيطنا وأن يكون بالفعل مصدر اهتمامنا وإلا فلن نحرك ساكناً، كما لن نتقدم خطوة، وكي نفعل ذلك لا بد أن نرتقي معرفياً من خلال التزوّد بالمعارف والمهارات وتفعيل قوة التفكير، وأخيراً قوّة الخيال والتصور، فهي القوّة التي أنتجت الإبداع الإنساني الذي نعيش ثورته المعلوماتية اليوم.



الواقعية



استشارني في مشروع ما، فطلبتُ إليه أن نجلس لنناقش التفاصيل، فهرب ولم يعد، وبدأ مشروعه فواجه فيه العثرات، واصطدم في الواقع بالمعوقات!

الهروب من الواقع سمة تفشت في الكثير بيننا، وهي تتباين في صور متنوعة، وأنماط مختلفة، ذلك لأن البناء الشخصي لم يُنَّ على التعامل مع الواقع من الصغر، وإتْم بُني على مثاليات ليس لها في الواقع موضع، أو أنه أُسس على الخوف من الواقع لأنه صعبٌ ومستحيلٌ فكّرستها الأمثال الشعبية «العين بصيرة، واليد قصيرة»، و«ليس في الإمكان أبدع مما كان»، فترى ذلك الشاب الحالم وهو يهرب من واقعه كلما ناقشته فيه، وترى الآخر لا يقرُّ له قراراً في بيته لأنه يواجه فيه واقع أسرته والتزاماته نحوها..! وتجذُّ ثالثاً وقد اتَّخذ له من مقاهي الشيشة وكرّاً لا يحولُ عنه، يفرُّع إليه من واقعه المرير، فيخدّر نفسه بالدخان الكثير، والإغراء المثير..! وتجذُّ واحدةً وقد زوّقت حياتها، ولمّعت مظهرها، وهي زائفة المظهر، متحيلة على حقيقة الواقع..! وترى ثانيةً وهي تحيا بروح كنيبة، ونفس يائسة!

يقول باتلر: «للشباب أجنحة تطير بصاحبها سريعاً إلى بلاد الخيال فلا يرى أمامه إلا الأفراح والمسرّات ولا يعلل نفسه إلا بالآمال والأمان» ويقول وجر فريتس: «الفرق بين الواقع والحلم هو كلمة من ثلاثة أحرف (عمل)».

شبابٌ يهرب من الواقع .. فقد وزّع وقته بين لعبٍ دائم، ومشاكساتٍ مستمرةٍ حول المباريات الرياضية، ومشاهدة الأفلام، ووجبات الطعام، ونزوع نحو كلّ ما يُلهي النفس عن الواجب في الحياة ومواجهة الواقع،

فإن حصل وواجهته معضلة في واقعه تكسّر وخضع، ويئس وقنط، ولام وعاتب، واستنجد وتوسّل..! هذا لأنّه لم يعود منذ صغره على تقبّل الواقع كما هو، كما لم تحمله نفسه لاحقاً على تطبيع نفسه على التعامل مع الواقع، يقول رالف امرسون: «افعل الأشياء التي تخاف من فعلها وسوف يموت الخوف الذي بداخلك».

الطفل منذ الصغر يُعامل على أنّه طفلٌ جاهلٌ لا يعي، وصغيرٌ لا يدرك، وضعيفٌ لا يستطيع، يدلّل حتى ينشئه التدليل على الهُنة والكسل، ويقسى عليه حتى تنشئه القسوة على البغض والكراهية وكلا الأمرين يدفع به إلى الهروب من الواقع. يكبرُ وفي نفسه إحساسٌ بالضعف والتفاهة، يحتقرُ نفسه، ولا يجد لها قيمةً بين الناس إن قارنها بهم، فلا يرى نفسه إلا خارجَ الواقع.

أما في المدرسة فيغيّبُ الواقع عن الطالب؛ فلا يعرف كثيراً عمّا يقع خلف جدران المدرسة، في شوؤن المجتمع، وقضايا المصيرية، وجوانبه التنموية، وقطاعاته الصناعية والتجارية والزراعية والسياحية... وغيرها. تحضّرُ المناهج الظاهرة في شكل كلماتٍ وصور وتغيّبُ المناهج الخفية (Hidden Curriculum) التي تتكوّن كما أشار لها فيليب جاكسون (Philip Jackson) مما تعلمه المؤسسات التعليمية للمتعلّمين من سلوكيات اجتماعية، واتجاهات، وقيم، ومعارف خارجة عن نطاق الكتاب المدرسي، واللوائح المكتوبة؛ فالمدرسة ليست أداة لنقل المعلومات فقط، وإنما هي واقع مصغّر يتعلّم منه الطالب طرق التماثل والتلاؤم. يقول النبي عليه أفضل الصلاة

والسلام: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ». والمُعَايَنَةُ هي المشاهدةُ بالعينِ، ونزول الميدان، والاستفادة من الخبرات.

الانغماس في الملذات هو هروبٌ من الواقع، لأن الواقع يتطلبُ الاعتدال والترشيد والموازنة، والنفسُ تغريها المغريات فلا يضبطها ضابط!

والإفراط في قضاء الوقت على الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي هروبٌ من الواقع، لأن في ذلك عيشاً في عالم افتراضي غير واقعي، وهو ما ليس له تأثير إيجابي ملموس في حياة الإنسان.

والإكثار من مشاهدة الأفلام هروبٌ من الواقع لأن الأفلام لا تصوّر الواقع، بل تخلق عوالم افتراضية لا ترتبط إلا نادراً بعالم الواقع، يقول Chris Kattan: «في هوليوود تقوم صناعة الفيديو على الهروب من الواقع بالذهاب إلى مشاهدة الأفلام».

التسكّع في الشوارع والمراكز لغير هدف مرسوم وغاية نبيلة هروبٌ من الواقع، وعيش في حالة زائفة، هي مزيجٌ من المتعة المؤقتة والشقاء المستمر!

تعاطي المؤثرات العقلية وإدمان المخدرات هروبٌ من الواقع إذ تخدّر العقل فيغيب عن واقعه في عالم خرافي مؤقت، يصاحبه فتورٌ مقيت، واسترخاءٌ مميت!

لا قيمة للإنسان إن لم يكن واقعياً، يواجهه الواقع بحصافة عقل، وعزيمة نفس، واتزان رأي، وحسن تدبير. ولا تقدّم للمجتمعات إن لم تكن واقعية في معالجتها للقضايا التي تتعلق بنمائها، وتطورها، ومصيرها. فأكثرُ

المؤسسات في مجتمعاتنا حساسة من نقد الواقع؛ فإذا نقد مواطنٌ جانباً ما في نطاق عملها تدمرت واغتازت، وتحوّل التفكير لديها عند النقد في كيفية كبح جماح الناقد بدلاً من كيفية التعامل مع الواقع المنتقد!

إن الإشكالية تكمن في طرق التنشئة ومنهجية التعليم في مجتمعاتنا؛ حيث تغيب أسئلة (لماذا؟) و(كيف؟) التي تسعى إلى اكتشاف الواقع، وسبر جذوره، والتعرّف إلى أسبابه. لهذا ظهرت السطحية في معالجة الأمور، والجمود في التفكير والاجتهاد، والتواكل والاعتماد على الغير، وضيق الأفق في الاختلاف والتسامح، والشكلائية، والحدّية، وغير ذلك من العيوب. يغيب الفكر الناقد الذي هو أساس مكيّن لمعرفة الواقع، وأداة حكيمة للتعرف على أسبابه.

قد يأتي من يقول بأن في الهروب من الواقع إيجابيةً بإصلاحه، فأقول: إن الهروب من الواقع لا يقصدُ به بعض الاسترخاء والتفكير، والترفيه والتدبّر، والخيال والتأمّل فذلك من مستلزمات الواقعية، وفي هذا يقول ريلكه: «أنا لا أعيش في الأحلام، بل في تأملات الواقع الذي ربما يكون المستقبل»، إنّما حالة الهروب من الواقع يقصدُ بها شعوره بالامتناع من واقعه، والزراية من معيشته، واحتقار حالته، والخبيل من حياته، فيستقرّ هذا الشعور في عقله الباطن فيسيطر على تفكيره وتصوّراته وعواطفه، ولا يستطيع الفكّك منها إلّا بالهروب كليّةً من واقعه بشتى الوسائل.

وفي المقابل، فإن العيش في الواقع لا يعني الإذعان له، والخضوع لنمطيته، وإنّما بذل المحاولات لتغييره، واستمرار الجهود لتطويره، يقول المفكر

عبد الوهاب المسيري: «الإذعان والقبول بالأمر الواقع هما جوهر الجمود والرجعية». ويروي أيمن جمال المنتج التنفيذي للفيلم الكرتوني «بلال»: إنه كان كثيراً ما ينتقد في الجامعة بالولايات المتحدة الأمريكية أفلام هوليوود، فاستدعته المحاضرة ذات مرة وقالت له: ليس من حقك أن تنتقد لأنك لست بصانع، والصانع هو المؤثر، وعندما تمتلك القدرة على الصناعة تستطيع حينها التأثير، فجاء من الغرب وفي ذهنه أن يغيّر هذا الواقع لا أن يذعن له ويسلم له حتى أنتج هذا الفيلم العالمي عن شخصية إسلامية بارزة.

لا نقصد بالواقعية أي مذهب من المذاهب، أو صنف من الصنوف، إنما هي بإيجاز التحلي بالمسؤولية الواعية للتعامل مع واقع الإنسان وما تنشأ عنه من قضايا ومواقف وأزمات، ومشاعر ونزعات، بإدراك الطرق المثلى التي تضمن معيشة حرة، كريمة للإنسان، ينشأ به مستقل التفكير، سليم النظرة، في اتزان بين رغبات النفس، وحكمة العقل. الواقع في حد ذاته حال متغيّر ولا يمكن أن يكون ثابتاً وإلا كان جامداً، يقول ألبرت أينشتاين: «كلما اقتربت القوانين من الواقع أصبحت غير ثابتة، وكلما اقتربت من الثبات أصبحت غير واقعية». هذا الأمر يعني أن الواقع متحرّك، وبحاجة للتغيير؛ الأمر الذي يستلزم المعرفة الكاملة بعوامل التغيير ودوافع الحراك، فإن لم ينشأ الإنسان في مجتمعاتنا مدركاً كيفية التعااطي مع الواقع بحسّ عالٍ من المسؤولية هرباً بعيداً إلى ما يخدّر نفسه، ويريح عقله مما يعتبره مصدر إزعاج، وتصديق فعطل نفسه، وجمّد حركة المجتمع معه!



صناعة الكلام الكبير



في إحدى الجامعات، وبعد أن فرغت متحدثاً عن الفكرة الأساسية التي دار حولها كتابي «قيم معطّلة في المجتمعات العربية» ألقى (معلّم) سؤاله الساخر: من هو محمد عبده الذي استأنست بقوله: وجدت الإسلام ولم أجد المسلمين؟! ولم ينتظر مني جواباً، فقد كان في حماسة لا يوقفه معها عاقل، فأردف: الغرب كله فسادٌ وبغيٌّ وانحرافٌ ورذائل، أما القوة فهي هنا في قول لا إله إلا الله، وقد لاقى كلامه استحساناً من بعض الحضور فصفقوا له...!! علمتُ لاحقاً أن هذا هو ديدن الرجل وهو لا يزال على تسفيهه لكل متحدث بمقولة حق يراؤ بها باطل!

أقولها للأسف إن ما أعمانا هو رؤية قبائح الآخرين وعدم رؤية نواقصنا بسبب الكلام الكبير...!! كما ورد في الأثر: نبصرُ القذاة في عين الآخر ولا نرى الجذع في أعيننا...! وليتنا رأينا الصورتين في كل طرف. فمع اتفاقي لما قال في الغرب، وما قال عن مصدر القوة فينا إلا أنه أجحف في حق الأول، وجنّبنا الوزر التاريخي الذي ارتكبهنا...! لقد ذكرني قوله بما رواه الفيلسوف مالك بن نبي - رحمه الله - حين قال: «وإننا نتذكر بكل أسف مأدبة أقامها طلاب الجامعة في الأشهر الماضية، وتكلّم فيها أحد الطلاب فقال: إننا نريدُ حقوقنا ولو مع جهلنا وعربنا ووسخنا، ولقد كانت هذه الكلمة موضوع استحسان من جميع الحاضرين!» ويعقب ابن نبي: «ألا قاتل الله الجهل، الذي يلبسه أصحابه ثوب العلم، فإن هذا النوع أخطر على المجتمع من جهل العوام لأن جهل العوام بيّن ظاهر يسهل علاجه، أما الأول فهو متخفّ في غرور المتعلمين... نعم لدينا القوة، والقوة هنا... ولكن هل ارتقينا إليها؟! هل عرفنا كيف نوظفها لصالح تطورنا وتقدمنا وعلومنا وعطاءاتنا؟! لقد كانت قوة حقيقية حين عرف الأوائل كيف

يضعونها في المسار التاريخي الصحيح..! ولهذا تجلّى الصدق في الحديث الشريف «الإيمان ما قرّ في القلب وصدّقه العمل»، وأعتقد أن مشكلتنا في الكثير من المناحي أن الكلام الكبير هو الذي ملأ حيّز قلوبنا فلم يوقر الإيمان لهذا لم يصدق العمل!

الكلام الكبير الذي اتخذناه شعاراً لنا شغل الحيز الذي كان من المفترض أن نشغله بالإيمان، والإيمان قوة لا يمكن أن تقهر، حتى في الأم التي تظن أنها تقدّمت دون دين فوراء كل عمل نافع قيم دينية دافعة دون أن تشعر، ذلك لأن الإنسان مخلوق ربّاني مفضّل على القيم الفاضلة في أصله!

خطابية ظلّت معشّنة في عقولنا، وكأنّها قدر علينا لا نستطيع الفكّك منه لا لقصد التحرّر من محوره وإنما بقصد تصحيحه، وردّه إلى الأصل..! الأصل هو التوازن في النظرة إلى النفس المطمئنة والأمانة بالسوء.. الأصل في النظر إلى أنفسنا بواقعية تستلزم منا التسليم بموضوعية النظرة للتناقضات فيها. أمّا أن ننظر إلى جانب دون آخر.. وأن نعمي أنفسنا عن مصادر ضعفنا بما نراه من مصدر قوّتنا فتلك ليست بواقعية!!

هذا النوع من الخطاب أوجد فينا حساسية مفرطة تجاه الالتفات إلى نقائصنا، وعيوبنا، وجهلنا الذي يحتاج إليه نمونا - كما يقول أحد المفكرين - وفي الكثير من النقاشات التي دعيت لها أسمع من يتحدث عن «أن المشكلة تكمن هناك».. في المجتمع (مثلاً: في المؤسسة، في الأسرة، في المدرسة) .. ولكن لم أسمع من يقول أنا أخطأت..! وأستذكر هنا مقولة سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: «إن أصبت فأعينوني وإن أخطأت فقوموني».. ويطرق

آذاني من يقول: سئمتنا من الحديث عن مشكلاتنا، نريد التنفيذ...!! أقولُ نعم نريد التنفيذ...! ولكن ما لم تتوافر الإرادة النفسية، والشجاعة الذاتية، والرغبة العتيدة للتغيير فلن نحرك ساكنا...! لا بد لنا من استنهاض الضمائر «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» (الذاريات: ٥٥)، وما لم يقل كل إنسان سأبدأ مع نفسي فلن يتحقق شيء «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الرعد: ١١).. فذلك الذي يقول: نريد التنفيذ قد يكون أول الناس تقاعساً...!! وكم رأيتُ من هؤلاء وشهدتُ عليهم؛ ينق بالتغيير وهو خامد الفكر، هامد الجسد...! أخبرني أحد الأصحاب عن أحد (صناع الكلام الكبير) الذين كانوا ينادون بالإصلاح حتى وضعوا في محل المسؤولية فحينها أصبح خطابه ينبئ عن تنصله عن المسؤولية، ويلقيها على غيره!

إن صناعة الكلام الكبير لا تتطلب شيئاً من الوعي والثقافة والبلاغة فذاك واحد ليس له حظٌ من هذه الذخائر المعرفية كلما تحدثتُ إليه يستهل خطابه معي بأنه اتصل بالرئيس الأمريكي باراك أوباما لأن الأخير يستشير في أمور السياسة، وأنه يقدم المشورة للرئيس الفلاني وأن لديه اجتماعاً مع ملكة بريطانيا.. وهكذا...! صناعة الكلام الكبير تحتاج فقط إلى خطابة، وفي كثيرٍ من الأحيان لغو وهرج وثرثرة...! يقول نزار قباني:

إذا خسرنا الحرب لا غرابة

لأننا ندخلها..

بكل ما يملك الشرقي من مواهب الخطابة

بالعنتریات التي ما قتلت ذبابة

لأننا ندخلها..

منطق الطلبة والربابة

وصناعة الكلام الكبير هي التي تحملُ بعض خطبائنا على تجميد الدماء في عروق الأعداء أكثر من تحريك الدماء في عروقنا...! ودعائه لشلّ أركانهم أكثر من دعائه لإقامة أركاننا...! والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم عليه السلام: «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» (ص: ٢٠١).

وصناعة الكلام الكبير هي التي جعلتنا نهتم بتنميق ديباجة الأقوال أكثر من اهتمامنا بالتقديم للتخطيط والتمهيد للأفعال...! حتى تستهلك العبارات الطنّانة أوقاتنا، والألفاظ الرنانة جهودنا...! بينما يغيبُ البُعد العملي عن الصياغة البديعة، فنعجبُ بلفظ الرسالة ولا نكثرُ بما تحمله من أفكارٍ عملية، واقتراحات تطويرية...! تقول Virginia Woolf: «إذا لم تقل الحقيقة عن نفسك فلن تستطيع أن تنقلها عن الناس الآخرين».

صناعة الكلام الكبير حاضرة في كل مفاصل حياتنا، وقاموس لغتنا اليومية، وعناوين وسائل إعلامنا، وأثرها بالغٌ، عميق لأنها مخدّرٌ يعمل على تغطية عيوب، وتجسير هلامي لمشكلات؛ فجبلُ الجليد الطافي على الماء لا يظهر سوى ثلثه، أما الثلثان فتحت الماء وهو ما يعني وجود مشكلة عميقة ينخدعُ بها من يحسبُ أن القسم الأكبر لجبل الجليد فوق الماء وما تحته مجرد قاعدة مسطّحة تجعله عائماً!!

إن نقد الذات والصدق مع النفس والتصالح مع المفارقات الحاصلة داخلها، والتخلي عن بهرجتها ونزقها ووجاهتها وتسيدها وتحملها للمسؤولية الإنسانية والتاريخية هي أمور لا بد منها لإعادة النظر في صناعة الكلام الكبير وتحويلها من صناعة كلام إلى صناعة فعل بإرادة قاهرة، وإيمان جبار، تقودها نفس ذات شكيمة تتحلّى بالروح التواقة التي يصفها عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - بقوله: «إن لي نفس تواقّة ما حققت شيئاً إلا تآقت لما هو أعلى منه».



اختلال الأولويات !



الناظر الأريب لحال مجتمعاتنا وما تعانيه من إشكاليات حضارية لا يعييه السبب الكامن وراءها وهو اختلال الأولويات..! هذا الاختلال يبدو واضحاً في الكثير من التفضيلات والخيارات والمسالك مما جعل المعايير والمقاييس معكوسة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى..! صورٌ نعيشها في حياتنا، وقراراتٌ نتخذها، وتفضيلاتٌ نتسابق عليها أسهمت في بطلان تحرّكنا، وقلة منتوجنا، وضعف إنجازنا!

سوّق من أراد الربح الماديّ فنجح في تسويقه..! إذ لم يكن بحاجة إلى حجة مقنعة، وبرهان ساطع بل إلى إبهار وإثارة وإغراء..! حرّك الشهوات لا العقول فعرف كيف يجذب النفوس الأمارّة بالسوء..! انقلبت الموازين في الكثير من الأمور الأساسية فصارت ملهيات النفوس مقدّمة على مشغلات الأذهان، وصارت وسائل الترفيه أولى من وسائل الإفهام، وصار كل ما لا يرهق العقل بالتدبّر والنفس بالتفكّر هو المروّج له وهو المبسوط بين أيدي الجمهور.. لهذا كان التضييع في الأمور الجادّة واضحاً في مقابل ذلك كنتاج له، يقول ابن المقفّع: «ما رأيت إسرافاً إلا وبجانبه حق مضيع».

أما ناتج الترفيه فأولها ضياع أوقات شباب الأمة في المقاهي وليتهم يجتمعون على أمر فيه صلاح الأمة، بل هم في أمرٍ مريع..! لا يريدون إرهاق أنفسهم فيما يكد العقول بل فيما يحدّرها، ولا يريدون إذكاء جمر العزيمة الوقادة، والهمة الوثابة، بل يريدونها جمرّة تملأ الذهن بدخانٍ قاتم، وتحرق الجسم بلهيبٍ غائم..! تلك هي أولوياتهم التي قدّموها على تربية الأبناء، والبقاء إلى جانبهم، وجعلوها سبّاقة على تحقيق منافع لهم ولأمتهم، أو المشاركة في مشروعٍ خيري، أو التطوُّع بجهد فيه صلاح العباد!

وكم هم أولئك الذين يسعون لخدمة الجسد تاركين خدمة النفس مهملة،
والنفس هي ربانة الجسم، وصاحبة السلطة عليه، يقول أبو الفتح البستي:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته .. أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها .. فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وكم من شباب الأمة من يضيّع وقته في ما لا يرقى من عقله ولا يعلمو من
شأنه وهو منكبٌ على جدلٍ غير مجدٍ، أو نشر شائعةٍ مؤذيةٍ على هاتفٍ أو
من خلال مواقع مختلفة!

كم منهم من يسهرُ لأجل مشاهدة مباراة كرة قدم فإن شاهدها جثم على
أجفانه النعاس فجأة ففوّت الصلاة .. وكأنّ المباراة قد أصبحت مقدّمة
على الصلاة، أو أن ذنب الصلاة مغتفر أمّا ذنبُ تفويت المباراة لا غفران
له !

وفي مثل آخر، فمنذ أيام كنا نمر بالسيارة عند أحد المساجد فإذا بسيارة
تعترض سيرنا وقد أوقفها صاحبها فأغلقت الطريق فلا مناص من تجاوزها
في الشارع المعاكس .. تركها صاحبها وذهب للصلاة ..!! تساءلت حينها:
أيعرقل مصالح الناس بإغلاق الطريق وإن كان من أجل الصلاة ..! ماذا لو
فعل آخر فعلته في الشارع المعاكس فسدّوا الطريق وأعاقوا مسعفاً لجريح،
أو منجداً لمرضى؟!!

والأمثلة كثيرةٌ نجدها في حياتنا حاضرةً بكل وضوح .. فقد اختلت
الأولويات في الكثير من أمور حياتنا حتى إن الإنسان الرشيد ليحتار فيما

يرى..! قلب القنوات تجد أن أغلبها تنحو ناحية الترفيه المجاني المسفّه بالعقول.. تجدها تقدّم للناس ما يدغدغ حواسهم، لا ما يغذي عقولهم، تقدّم لهم ما يضيّع أوقاتهم، ويبدد طاقاتهم، لا ما يحرك إبداعاتهم ويحفّز همهم، ويرقى من أخلاقهم!

وفي نظرة الناس بعضهم لبعض اختلت الموازين، فقدّم ناسٌ على ناس وهؤلاء الآخرون هم أحقّ بالتقديم «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الزمر: ٩)، حتى في العبادات تجد أن بعض الناس يكثر من العمرة أو حج التنفل، وفي المقابل لا يتصدق ولا يعين محتاجاً، ولا يُحسن إلى جار فقير..! وفي إطار الشكليات والمظاهر تراه وقد حرص عليها وألزم أهل بيته بها، وفي المقابل هو غير بارٍ بوالديه، قاطع رحمه، يؤذي الناس بلسانه، وأفعاله، متكبر، مغرور!

اختلت موازين الأولويات في كثير من الجوانب في مجتمعاتنا، أفسأل بعدها عن الأسباب؟ كيف نريد لمجتمعاتنا أن تستقيم شؤونها ونحن لم نحدد أولوياتنا؟!

لا تستقيم دولة ولا يتحقق شأن ولا يسعد إنسان ولا ينجز مشروع بلا تحديد سليم للأولويات، تحديدٌ مبنيٌّ على الحاجة لا على الرغبة، مبنيٌّ على الأسس لا على الهوامش.. فإذا عاش إنسان دون تخطيط، ودون أهداف واضحة، ودون مبادئ راسخة ضيّع أولوياته.. فإن ضاعت الأولويات أصبحت حياته مجرد حلقة مفرغة!

ضياغ المبادئ قلب المعايير

الشرفُ سُمُوٌّ في النَّفسِ، وعلوٌّ في العزمِ، ونُبْلٌ في الخُلُقِ، وشهامةٌ في القلبِ، وصدقٌ في الكلمةِ، وطبعٌ في الكرامةِ، لا تخفيه المظاهر، ولا تسترّ عليه المناظر، وليس محصوراً في رجالٍ دون نساءٍ، ولا في شُيْبٍ دون شبابٍ، ولا أغنياءَ مالٍ دون فقراءٍ، ولا رؤساءَ دون مرؤوسين.

ولقد يتوهم البعض أنهم قد بلغوا ذروة الشرف وما هم إلا بين وسائد الترف..! ذلك أنهم نالوا أعلى الأوسمة، وحازوا أعلى المراتب. أمّا الشرف الحقيقي فهو في نزاهة اليد عن الفساد والإفساد، ونقاء السريرة عن لوثة الخساسة والدناءة، وهنا قد يعلو كناس الشارع بشرفه على من يحسب نفسه في عالي الرتب إن كان وضعياً..! الوظيفة لا تصنع شرفاً بل قد تكون باباً للوضاعة إن خبثت النفس، وفسدت النوايا..! إنما الإنسان بحسن خلقه، وصفاء نفسه هو الذي يصنع الشرف. وفي هذا فقد يتجلى شرف الرجل وإن كان في أبسط المهن، وتسفر خساسة المرأة وإن كانت في أرفعها..! فالشرف ليس تاجاً على كرسي الوظيفة، بل هو خدمة في الميدان، وتضحية للأوطان. الشرف قد يكون حبات عرق تتلأأ على جبين عامل أو مزارع قبل أن تكون في عمل لا يليق بصاحبه وإن كان مصدراً للثراء، ومبعثاً للوجاهة الاجتماعية الظاهرة، فذلك ترف مبین!

يحكى أن الجنرال الإنجليزي «جورج جوردون» لما انتهت مهمته في قيادة حملة بالصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كتب قائلاً: «إني أعلم أنني سوف أترك الصين فقيرة كما دخلتها، ولكن ضميري مرتاح لأنني

استطعت أن أنجِّي نحو مائة ألف نفس من الموت وهذا عزائي»، ولما منح لقب الشرف على عمله قال «إن هذه الألقاب والنعوت كلها لا تساوي عندي (بنسين) ولما منحه إمبراطور الصين ميدالية ذهبية صهرها وباعها وتصدق بثمانها على فقراء الصين!!

إن الشرف كلمة يعقدُ بها صاحبها اسمه، ويُعرِّفُ بها كُنْههُ وسمعته، فإذا أضاعها من أجل هوى أو ميل أو مال أضاع نفسه معها، وإن حفظها حفظ بها نفسه. يقول الشاعر عمر أبو ريشة:

بدوي أورك الصخر له .. وجرى بالسلسيل البلقع
فإذا النخوة والكبر على .. ترف الأيام جرح موجه

وذات مرّة شكرتُ أحدَ الوجهاء لأنّه قال كلمةً لم يجد عنها مصرفاً حين عقدَ نفسه بها، قلتُ له: إن فلاناً ليذكرُ دائماً كلمتك التي قلتها في حقّه دون أن تكثرث لما تجرّ وراءها من نتائج عليك، فقال: علمتُ أن الله سيحاسبني وأن ضميري لن يرتاح إن لم أفلها. أمّا الذين أضاعوا شرف الكلمة فقد أسرفوا على أنفسهم، حين كان شرف الكلمة معقوداً بالمجد، والعزّة والكرامة، فأثروا أن يحتقروا أنفسهم ويهينوها من أجل مرضاة أناس، أو حفنة من المال!.. لقد أخذ الإنجليزُ عنّا كلمة (شريف) فأطبقوها على عمدة المدينة أو المقاطعة فسَمّوه (الشريف Sheriff) لما علموه للكلمة من قيمةٍ وقدرٍ عند العرب الذين هم أحقُّ بتقديرها عن غيرهم.

إن بين شرف المسؤولية وسرفِ تضييعها بونٌ شاسع، وحقوقٌ ضائعة، فالمرءُ إن لم يعِ حدود المسؤولية وقدرها غابَ عنه الشرف لأنه استغل الأمانة، وآثرَ اتباع نفسه الأمانة بالسوء فلم يزرها عن الإتيان بالمعصية، ولم ينهها عن الانحراف والميل إلى الشهوات، وهكذا هي الفتاة التي ينفقُ عليها أهلها من مائهم ودمائهم لتتعلم ثم تهرق الشرفَ على أبوابِ جامعتها أو كليتها أو مدرستها فتتبعُ صوت الغواية والانحراف دون أن تكثرَ إلى أنها تلقي بنفسها في هاوية الحقارة، وهوان المصير، وغياهب المجهول...! كبتت صوت الحشمة، وتغافلت عن نداء الحياء فجلبت لنفسها ولأهلها عاراً...! أما الشرف الأصيل فهو لمن تحفظُ عفتها وطهارتها، وتصون شرفها.

وهكذا هو الفتى الذي يضيعُ شهامة الرجولة ويسكب ماء الحياء عن وجهه فيرضى على نفسه الإبتذال والتخنُّع والميوعة لكي يتصيدَ غمزةً، أو يتسكع لسفالة...! أسقطَ حزم الرجال من أطباعه، فإذا هو وضعٌ حقيرٌ في نفسه قبل الآخرين...! أما الشرف النبيل فهو لمن يعلو بنفسه عن مواطن الفاحشة، ويبعدها عن مثيرات الفتنة والضلال.

أما أولئك الذي يحسبون أن غاية العلم الخطوة بالشرف الاجتماعي والوجهة عند الناس ويسعون لجني الألقاب الجوفاء الفارغة فهم عالة على المجتمع، وهم أشرُّ من جهَّاله، إذ ما نفع الأمة بمن يحمل لقب «دكتور» أو «مهندس» أو «خبير» أو «مدرّب دولي» أو «مستشار عالمي» وهو كمن قال الله تعالى فيه «أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير» (النحل: ٧٦)...! أو كمن نصح المتنبي سيف الدولة منهم قائلاً:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً .. أن تحسبَ الشحم فيمن شحمه ورُمُ

فشرفُ العلمِ توظيفه لبناءِ الأمة، وتسخيرُه لنهضتها وعمرانها، وتقديمه، وليس شرفه في لقبٍ ينالُ بالتوسُّلِ أو شهادةٍ تحاز بالمال؛ فالمجتمعُ الذي يكثرُ فيه من لا يسعى لهذا الشرفِ الأصيلِ مجتمعٌ عليل، يحتاجُ إلى تقويم وإصلاح...! فبئست من ألقاب إن لم تكن وراءها أعمالٌ نافعة، وجهودٌ خلاقة، وأفكارٌ هادفة.

يقول الشاعر:

بالعلم تعلقو كل نفس حيث لم .. تنهض بها أنسابها أو مالها
والجهل يقعد بالشریف وإن سمت .. أحسابه إلى الهبوط مآلها

أما الغني الشريف، فذلك الذي يبذلُ ماله من أجل مساعدة محتاج ليسد حاجته، أو معاونة مضطّر ليتجاوز محتته، أو إسناد فقير ليقف على ساقيه. أما زاهق المال في المتع والتوافه فذلك صاحبُ الشرف المزيف الذي يحسبه الناس شريفاً وهو وضع النفس، خسيس الطبع. يقول الشاعر ابن معصوم المدني:

قوم يحلّون دون الناس قاطبةً .. بحُجوة المجد والباقون في طَرفِ
القائلون لدى المعروف لا سرفٌ .. في الخير يوماً كما لا خير في السرفِ

إن الشريف هو الذي يعلو بنفسه عن الدنيا، ويسمو بعقله عن التوافه والصغائر، ويرمي ببصره إلى كريم الغايات، ويُقدّم على نبيل الأعمال، ونزيه الأفعال، فلا تراه في مواقع الشبهة، ولا في مواضع الريبة، يخشى

ضميره إن أخلّ في واجب، ويخافُ على سمعته إن قصّر في مسؤولية..
ذلك هو الشريف الأصيل الذي يغمضُ جفنيه وهو مرتاحُ الضمير.

«لا يمكنك أن تنسى، وأنت في معسكر التعذيب، رفاقاً في المصيبة قدّموا
لك المواساة وآخر لقمة خبزٍ كانت لديهم. إنّ أناساً مثل هؤلاء قد يكونون
قلّة، لكنهم استطاعوا وبالبرهان الكافي، التأكيد على أنّه مهما مورسَ من
قمع وسلب على الإنسان، إلا أنّ أحداً لن يستطيع سلبه حرّية اختيار موقفه
واختيار طريقة ردّه على الأمور في كل الظروف. إنّ هذه الحرّية تبقى مع
الإنسان ولا تذهب إلا بذهابه»

كتاب «البحث عن معنى الحياة» للكاتب فيكتور فرانكل، وهو أحد
الناجين من معسكرات التعذيب.



المعيارية



إحدى إشكاليات نظامنا التربوي تتعلق بالقيمة الذاتية للفرد، ذلك لأن الثقافة السائدة تقدّر الفرد بحسب ما يملكه من منصب أو سلطة أو مال وقبيل ذلك..! ثقافة ذات مفاهيم عكسيّة؛ فإن كان ذا منصب فهو الذكيّ، الأريب، صاحب الرأي الصائب، والفكر الحاذق..! وإن خرج من منصبه فقدّ كل هذه الميزات -في نظر الكثرة- وكأنّ هذه الميزات كانت ضمن العلاوات الإضافية لراتبه..! وإن كان صاحب مال فهو الناجح صاحب القرارات الصائبة، الناضج في رؤيته للأمر، وتقديره لمتغيرات الأحوال، واقتناصه للفرص السانحة..! فإن قلّ ماله فهو الضحلّ الفكر، الفاشل في قراراته، الضعيف في تقديره للأمر..! وإن كان صاحب سلطة فهو مُهابّ الجنب، رفيق الصواب، جليّ الخطاب، فإن فقدّ سلطته فهو هزيل الرأي، ضعيف المقال، مهزوز الشخصية..! أمّا إن كان صاحب علم ولم يكن له منصب حكومي فكأنّما هو فاقّد لقوة النظرية العلميّة، مضيّعٌ لأسس العلم وبراهينه الدامغة، فإن حصل على المنصب فهو الأعلّم بالأمر، والأقوى بالحجّة، والأنفذ بالبرهان..! وإن كان صاحب علم وهو رجل أعمال له مؤسساته التي يديرها بكفاءة فهو يحظى بالتقدير ولكن ليس ذلك التقدير الذي يُضاهي المنصب الحكومي..! لهذا يعبر المثل المصري «إذا جالك الميري اتمرغ في ترابه» عن قيمة العمل الحكومي، والميري مشتقة من الأمير وهذا يرمز للحكومة..! وبالرغم من قدّم المثل إلا أن الثقافة التي يعبر عنها لا تزال هي السائدة إذ كشفت دراسة علمية حديثة حاولت التعرف على واقع العمل في مصر وعلاقته بالموروث الثقافي وإلى أي مدى لا يزال هذا الموروث يوجه سلوك الشباب نحو عملٍ دون غيره أن ٧٧٪ من الشباب المصري ينتظرون التعيين بالحكومة والهيئات التابعة لها. وقد

يبدو في السطح ميزات العمل الحكومي الظاهرة إلا أن الجانب المخفي في الانجذاب نحو العمل الحكومي هو ما يكتسبه الفرد من قيمة اجتماعية جرّاء تبوأه لوظيفة حكومية..! أمّا الأعمق من ذلك فهو امتلاكه للسلطة ومدى ما يمنحه المنصب من قدرة على استخدام السلطة سلباً أو إيجاباً..! وفي ظلّ هذا المفهوم فإن الإقبال على وظيفة ذات سلطة واسعة غير معرّضة للرقابة أو المحاسبة سيكون كبيراً لأن الموظف سيستمتع بالمزايا العظيمة التي تتيحها له وظيفته مع وجود حصانة تؤمن له جوانبه..! في حين فإن وجود الرقابة والمحاسبة من العوامل التي تنفر الغالبية - في ظل الثقافة السائدة في مجتمعاتنا - من قبول المناصب أيّاً كانت...!! قال لي أحدهم: أن هناك بروّ شائع، ونفورٌ واسع للترقي في المناصب في إحدى الجهات...! لا أحد يريد منصب مدير أو رئيس قسم أو غيره.. إذ بدأ مفهوم السلطة (في المفهوم السائد) يختلّ بالرقابة والمحاسبة وهذا ما يعتبره البعض تهديداً لمستقبلهم الوظيفي..!

إن القيمة الذاتية للفرد في حقيقتها لا ترتبط بمنصب أو وجاهة أو مال وإنما بما يملكه هذا الفرد إمكانيات عقلية، أو قدرات فكرية، أو إنجازات علمية، أو خبرات عملية، أو مهارات حياتية. يقول الحق سبحانه: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ» الزمر/ ٩، ويقول جلّ جلاله: «إِنْ أكرمكم عند الله أتقاكم» الحجرات/ ١٣. لكن النظام التربوي السائد في ثقافتنا لم يأبه لهذه الأسس الصلبة بل قرّن القيمة الذاتية للفرد بما يملكه من قوة المنصب، لهذا أصبح المنصب عند البعض بمثابة حياة أو موت لاقتران القيمة الذاتية به اجتماعياً في حين وجد فيه بعض العقلاء

حاجباً أمام الكثير من الحقائق ومنها معرفة طبائع الخلق الذين يتهاوون عليهم، وتحقيق الإصلاح من خلاله..!

إن ثقافتنا السائدة قد أسهمت في خسارة الأوطان لكفاءات عظيمة تعدُّ أئمن الثروات إمّا لأن أصحابها لم ينالوا حظاً من المناصب الرفيعة، أو لأنهم خرجوا منها..! يُحكى أن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران زار أنور السادات في مصر، ثم قال له: أنا ذاهبٌ للقاء محمد حسين هيكل، فعقّب السادات قائلاً: لكنني فصلته..! (يقصدُ فصله من رئاسة تحرير الأهرام) لم يفهم الرئيس الفرنسي معنى هذه الكلمة لاختلاف الثقافات فمضى إلى لقاء الرجل..! هذه الثقافة تعبر عن أن قيمة الإنسان العربي بحسب ما يشغله من منصب فإن خرج منه فإن هذه القيمة المعنوية تزول عنه وهذا ما يفسّر تكاثر الزوّار و(المسلمين) على الوزير ومن في مرتبته أثناء وجوده في منصبه، واختفائهم بصورة شبه تامة بعد خروجه من منصبه..!

كنتُ أقرأ لأحد (المتقاعدين) أصحاب الخبرات وبالمناسبة فإنني لا أحب كلمة (المتقاعدون) لأنها مرادفة في اللغة للتقاعس والإنسحاب والإعتزال وعدم الإهتمام..! وحتى المفردة الإنجليزية مرادفة هي الأخرى للنوم..! وهذا للأسف مفهومها في واقعنا..! أقول كنتُ أقرأ له آراءً تدلُّ على عمق التجربة، ونضوج الخبرة، فقلتُ في نفسي: كيف للأوطان أن تخسر مثل هذا فلا يملك إلا أن يغرّد بأفكاره، أو يكتبها في موقع من مواقع التواصل الحديثة..! أين بيوت الخبرة أو مراكز الدراسات التي تحتضنها الدولة والتي تمدّها بالأفكار والرؤى السديدة لتحتوي أصحاب الخبرات الذين أحيلوا للتقاعد وهم في أوج خبراتهم ونضج تجاربهم..؟! يقول لي أحد

الأصدقاء: شاركتُ في إحدى الدورات الخارجية فكان من ضمن برنامج الدورة الالتقاء بأحد (المتقاعدين) من أصحاب الخبرات للاستفادة من خبراته فكان اللقاء به من أفضل ما حصدناه من تلك الدورة..! أولئك المتقاعدون الذين كلّفهم دولهم بحمل رسائل أو عمل وساطات أو إجراء دراسات، أما في ثقافتنا فالمتقاعد يعني فاقداً للسلطة ومن يفتقد السلطة فقد النظر الحكيم، والرؤية المتعقّلة، والفكرة السديدة..!

وإذا كان لابد من تجديد الدماء -وهو أمرٌ ضروري- فإن من الخسارة بمكان فقدان الثروة التي يمثّلها من يمتلك الخبرات الطويلة. قال لي أحدهم: أرسل لي طلباً من أحد المجالس للاستفادة من خبراتي في المجال الذي كنتُ أعملُ فيه فقلتُ للمُرسل: أخبر من أرسلك بأنني لستُ بخيلاً بما أملكُ من رأي أو خبرة لكنني أسأل كم سيدفعون لي من مال نظير كل ساعة استشارة؟! يقول فنظر إليّ المرسل وفي وجهه استغراب، فقلتُ له: لا تستغرب من كلامي هذا فلو استعانوا ببيت خبرة خارجي لدفعوا له الأموال الطائلة مع احتفاظه رغم ذلك بملكيتِه الفكرية للدراسة التي سيقدمها لهم..! أمّا بالنسبة لي فلن يدفعوا لي شيئاً وفوق ذلك سينسبون الأفكار والمقترحات لمجلسهم الموقر..!. هذه ثقافة سائدة للأسف وقد خبرتها شخصياً في نقاشٍ عُقد في إحدى الجهات قُدّمت فيه دراسات حول القضية التي شكّلت محور النقاش وشارك فيها من شارك ثم حين خرجت الدراسة لم يذكر فيها شيئاً عن المشاركين ولم يتم التطرق لا إلى أسماءهم ولا إلى أوراقهم بل خرجت وهي تحملُ شعار تلك الجهة..!

إن الثقافة السائدة التي تضع القيمة الذاتية للفرد بحسب ما يشغله من منصب أو ما يملكه من سلطة قد أسهمت في تفرغ الذات من قيمتها المعنوية. قال لي أحد الأصدقاء أنه كان يشغل منصباً معيناً في جهة خدمية، فزاره أحدهم بحجة السلام عليه كما جرت أغلب عادة رواد مكاتب المسؤولين ..! وبعد تناول معه القهوة وطرح ما يطلبه من خدمات استأذن من المسؤول، فسأله كما جرت العادة: هل تأمر بشيء؟! فردّ عليه الرجل بصفاقة واضحة ودون موارد: نعم أحتاج لك ما دمت على ذلك الكرسي...!! يقول المسؤول فأتار غضبي ردّه الوقح الذي لم يراع فيه لباقة ولا أدباً فقلتُ له: إن كنت تقولها بصريح العبارة هكذا فأنا أريد عليك بالقول أن لا مرحباً بك في مكثي مرةً أخرى لأنك تزن الناس بمناصبهم وبحسب ما تنالهم منهم من منافع وخدمات، فبئس المقصد والخلق...!

في مجالس كالغزاء أو عقد القران تسمع بعض العبارات التي يهمسُ بها أحدهم للآخر: من ذلك الشخص؟! أين يعمل؟! ما منصبه؟! وبناءً على الإفادة التي سترد من الآخر سيتربُّ إمّا ملاقة (الشخص) بالترحيب الحار أو ببرودٍ وفطور...! وفي هذه المجالس ترى من يمرُّ على من لا يملكون المناصب مرور المدفور لمصافحة الناس، وهو كالحُ الوجه، زائغ النظر، لكنّ ما إن تلتقي عيناه بصاحب منصبٍ رفيع حتى تلمعان إشراقاً، وتحمرُّ وجنتاه احتراقاً، ويكاد أن يحتضن من لاقى، وكأنما نزلت عليه أنداء البشاشة وغشيتُه المسرة في لحظة صفاءٍ وتجلي...!!

يعود سبب المشكلة إلى النظام التربوي الذي يُنشأ الطفل في مجتمعاتنا على اكتساب قيمته الذاتية بما يضيفه عليه الآخرون من اهتمام...! حتى آمن

كل فرد بأن قيمته الذاتية هي (مِنَّة) و(عَطِيَّة) من الآخرين وليس بحسب ما يملكه من خصالٍ وسماتٍ وقدراتٍ وإمكاناتٍ فطرت نفسه عليه واكتسبها باجتهادٍ ومثابرة. هذا المفهوم الخاطيء أدى به إلى الإهتمام بالقشور وإهمال بناء الذات جوهرياً فحفظ لأجل النجاح، وغشٍّ من أجل الحصول على شهادة، ودلّس من أجل الحصول على لقب علمي، واستدان من أجل المظهر الإجتماعي، وتملّق من أجل المصلحة...!! هذا (الإنحراف) نحو المظهريات هو أحد عيوبنا الحضارية التي لا يمكن إصلاحها إلاّ بصلاح الجذور...! يقول الشاعر معروف الرصافي:

وَلَمْ أَرِ لِلخَلَائِقِ مِنْ مَحَلٍّ	يُهَذَّبُهَا كَحِضْنِ الأُمّهاتِ
فَحِضْنِ الأُمِّ مَدْرَسَةٌ تَسَامَتْ	بِتَرْبِيَةِ البَنِينَ أَوْ البَنَاتِ
وَإِخْلَاقُ الوَلِيدِ تَقَاسٌ حَسَنًا	بِإِخْلَاقِ النِّسَاءِ الوَالِدَاتِ

لهذا حين كنتُ أخاطبُ الطلاب والطالبات في إحدى كليات العلوم التطبيقية حول عيوب أنظمتنا التربوية والتعليمية قلتُ لهم: إنني لا أخاطبكم بصفّكم طلبة وطالبات وإنما أخاطبكم بصفّكم آباء وأمهات الأجيال القادمة.. وجديرٌ بكم أن تعووا عيوب النظام التربوي حتى تقوموا بالإصلاح والتغيير وأن لا تكررّوها في أبنائكم.

سؤال: أين هو الإنسان؟

يستوجب صناعة الإنسان

سؤالٌ مؤرّقٌ كهذا يبدو للوهلة الأولى مسطح الفكرة، إلّا أنه سؤالٌ جوهريٌّ تحتاج إلى الإجابة عنه كل أمةٍ تقصدُ التنوير، وترمي إلى التطوير.

ذلك لأن السؤال - بعيداً عن سياقه الفلسفي - سؤال تقييمٍ لفعالية القوى البشرية في أثر المجتمع.

هذه السؤال دفعني للحديث عن المشروع النهضوي الذي يُعدُّ أول أهداف الدولة بمفاهيمها العصرية ألا هو مشروع «صناعة الإنسان». هذا المشروع الذي يشكل عصب النهضة لأي مجتمع حديث، هو الذي ترتبط به وعليه مصائر الشعوب والأوطان.

أقول في البدء: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم» فإن المخرجات بقدر المدخلات، وأن الثمر بقدر الغرس، وعلى قدر الأهداف تحدّد نوعية الإنسان الذي يناط عليه مسؤولية التعاطي مع التطورات والمتغيرات التي ستمرّ بها الدولة في مختلف مراحلها التاريخية.

وعلى قياس المنظمات التي تحدد نوعية الوظيفة والفرد المناسب لها، فإن البناء الأشمل والأعم للدولة يعتمد على الرأس البشري الذي يعدُّ أهم رأس مال على الإطلاق في بناء أي مشروع على أي مستوى كان. لهذا ظهرت علوم إدارة وتنمية الموارد البشرية في جامعات العالم فأسست هذه العلوم لمشروع «صناعة الإنسان».

إن هكذا صناعة لتستوجب تأسيس دعائم لا غنى عنها في الأطر المختلفة؛ روحية، ونفسية، وتربوية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية. فعلى صعيد العلم المؤسس لصناعة الإنسان إدارياً تختزل علوم الموارد البشرية بتزويق لافتات تعلّق على أبواب المكاتب بعد أن انتزعت منها سابقاتها المعنونة بشؤون الموظفين، وكأن الأمر سيّان...! هذا يستبقي الحال

على وضعه؛ تغيّرت العناوين على الأبواب ولم تتغير العقليات التي ستظل تدير بذات الأفكار، وتتعاطى مع ذات القضايا الإدارية الرتيبة؛ إجازات الموظفين، عقوبات التأخير ربع ساعة عن الدوام، تصاريح الاستئذان الموقّعة من وكيل الوزارة، التقارير السنوية الباهتة، رفع المذكرات للوزير، التعديل في مسودات الرسائل المكرورة وهكذا...! في حين أن علم الموارد البشرية هو استراتيجي، تخطيطي يوائم بين الإستراتيجية العامة للدولة أو الوزارة وبين مستوى الكفاءة والقدرة التي يجب أن تكون عليها القوى البشرية لكي تضمن تحقيق الأهداف الإستراتيجية. لكن اختيار الكفاءات يعتمد على مستوى القيادات التي عُيّنّت لإدارة المؤسسات ويمكن قياس مستوياتها بنوعية القوى البشرية التي حققتها في أوردّة العمل المؤسسي، إلى جانب الأهداف الإستراتيجية، والثقافة التنظيمية السائدة، وطرق الإدارة المتبعة وأدواتها وما إلى ذلك. وما لم تهتم الدولة بوضع القيادات الكفوءة المنتقاة بعناية في المناصب القيادية المناسبة فلن ترتجى نتائجاً حقيقياً يسهم في تقدّمها وازدهارها. يقول مالك بن نبي في كتابه «شروط النهضة»: «المسألة هي أنه يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى» هي إذن صناعة الإنسان القائد الذي يمتلك العناصر اللازمة لكي «يمشي في التاريخ» لا أن يقف ويجمّد أمةً ووطناً معه..!

ويشكّل الابتكار أساساً في صناعة الإنسان كيف لا وهو العنصر الرائد الذي يُطلق القدرات الكامنة إلى فضاء لا نهاية له. إن الثقافة التي تعيق الإبداع هي ثقافة متقوقعة، ساكنة. منذ يومين دخل عليّ إبنني ذو الخمسة عشر عاماً قائلاً: أطلب منك أن تكتب في عدم اكتراث المدرسة بالإبداع، واسترسل

قائلاً: لا توفر المدرسة للطالب الوسائل التي تهيأ له إطلاق خياله، وممارسة إبداعاته. لم أجبهِ وإنما فتحتُ له محاضرةً ألقاها التربوي الإنجليزي السير كين روبنسون Ken Robinson وعنوانها: كيف تقتل المدارسُ الإبداع؟! أقول: لا يمكن لأية دولة أن تنمو، ولا لأي مجتمع أن يتطور دون إتاحة المجال للإبداع والابتكار كي يزدهر، وأن يصبح ثقافة مجتمعية. ولا غرابةً في أن يرفعَ مؤتمر القمة الحكومية الثالثة الذي عقد مؤخراً في دبي الابتكار شعاراً للتقدم والتطور العصري. قال كين روبنسون المشارك في المؤتمر: “نحن كائنات مختلفة وحاجتنا متنوعة ومن حق كل منا أن يحصل على التعليم الذي ينفعه ويمكنه من الإبداع بدلاً من التعليم الذي يضره ويجبره على الاتّباع”.

التعليم إذن قرينُ الإبداع وما لم يكن كذلك فلا نفع فيه، لأنه علمٌ يقيّد المواهب، ويعيق إطلاق الخيالات، والتصورات.

إن توجيه الإنسان ثقافياً ليس خطأً كما يحسبه البعض فالتوجيه في تعريف مالك بن نبي هو “بصفة عامة قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف” وما لم يكن هناك توجيهٌ مترابط العناصر فلن يتحرّك في مجرى التاريخ وإنما يروّاح مكانه. لكن إن لم يقوم التوجيه على عناصر ذات صلاية تعليمية، تربوية، نفسية، ثقافية، تنموية، إجتماعية، ويُقاسُ وفق معايير تقبل التقييم والمراجعة، كما يُتابع عن كثبٍ فلن يحقق أهدافه. فالتوجيه الإقتصادي لا يعودُ بنفعٍ إن تخلف عنه توجيه الوعي المجتمعي، وتوجيه التعليم.

إن الخلل الذي أصاب الإنسان في مجتمعاتنا هو الإزدواجية وهذا يعودُ إلى خلخلة في نظم صناعة الإنسان، فالإزدواجية تتجلى في مناحي الحياة المختلفة وعلى صُعدٍ مختلفة مما نتجَ اضمحلالٌ في الشعور بالمسؤولية، وتفوقٌ للتمظهر الزائف والإعتناء بالشكليات. هذا الخلل هو أحد نواتج صناعة الكلام التي تغلبت على صناعة الإنسان.

وصناعة الإنسان تركزُ على القيم لأنه لا يمكنُ صناعة إنسان دون قيم فاعلة ومؤثرة، تعمل على موائمة التوازنات النفسية والفكرية والأخلاقية والشهوانية في شخصيته. يقول الامام محمد الحسيني الشيرازي، في كتابه (فقه المستقبل): "القيم هي التي تسمو بالإنسان فوق الواقع، وتجعله متطلعاً، واعياً، مدركاً لمهام مستقبله، فالقيم تخرج الإنسان من أفقه الشخصي المحدود، بل تخرجه من نصفية نظره المحلية والموضعية وشبهها إلى إطلاقيه نظره الإنسانية، لتشمل العالم الذي يعيش فيه". وللقيم أثرها على الواقع لأنها النسغ الذي يمدّه بالمعاني الإنسانية السامية، يكملُ الإمام الشيرازي قوله: "عندما يتحقق التكامل بين الواقع والقيم تذوب الصراعات، وينتهي التنافس غير المشروع، وتعم العدالة، ويسود السلام، ويعلو صوت الحق، ويعيش الناس في طمأنينة وأمن، ويزدهر المستقبل يوماً بعد يوم"

في ظل المعطيات الإنسانية والواقعية التي تنبأ عن استفحال الإزدواجية فإن صناعة الإنسان تعاني من اختلالات يمكن تلمسها في التعليم إن أختزل السعي العلمي الدؤوب للشهادة والألقاب وليس لتحصيل المعرفة. إن كان ملء أوراق الإمتحانات، لا لإطلاق العنان للقدرات. وفي بيئات العمل إن

ساد فيها التواكل والمحسوبيات وانتشر الإهمال والرشوات، وفي تشدّد من ينظرُ إليهم كقدوات بالقيم دون تطبيقات. وفي العملية الشورية إن أصبحت من أجل الأموال والوجاهات لا من أجل العمل الوطني، وفي العمل التطوعي إن قام لأجل الظهور الإعلامي لا من أجل العمل الإنساني، وفي الدين إن رجحت كفة التمظهر على حساب التجوهر، وفي المناصب القيادية إن كانت لمجرّد ملء منصبٍ شاغر دون أن تكون لقيادة أصيلة لمنظومة عمل، وبناء استراتيجية وتحقيق أهداف. وفي الثقافة حين تنعدم فيها التوازنات وتحلُّ الأهواء كشعارات، وفي الحراك الأدبي إن كان أثره على الأرض ضئيلاً أو منعدماً، وفي الإعلام إن صادَرَ قيم الحق والخير والجمال وأحلَّ محلّها قيم السوق ومغريات الابتذال، وفي الندوات والمؤتمرات إن كانت مجرّد تظاهرات أكثر منها علاجات لمعضلات. وفي السياسات غير المثمرة، والخطب غير المؤثرة. وفي الألفاظ الخرقاء والسلوكيات الرعناء، وفي الأهداف الصغيرة المحدودة، وفي الأمنيات الحاملة المعدودة، في المذاهب المقيتة والطائفيات البغيضة، والعصبيات العتيقة، وفي كل فاشل مؤيّد يبتعث لنيل شهادة عليا، وفي كل مبدع مقيّد يُرى على أنه خطر محتمل...! وفي كل تكلفٍ وتحذلقٍ بالوطنية.

هذه وشبهها تناقضاتٌ إذا إتسع فيها الخرقُ على الراقع فإن السؤال: أين هو الإنسان؟ سيغدو مُشكلاً حضارياً لأن صناعة الإنسان تغدو حينها مجرّد صناعة كلام، وهدرٌ وقت، وإعاقةٌ أمّة عن الحضارة، لأنها تفتقدُ إلى عوامل الدافعية الأصيلة: الرؤية البعيدة، والنية السديدة، والإرادة العتيقة، والابتكارات المفيدة، والإبداعات المجيدة.



الانضباطية



دعوته في أحد المقاهي فلم يزد على طلب فنجان القهوة، وحين ألححت عليه أن يختار شيئاً ما إلى جانبها قال: إنني ملتزمٌ ببرنامج تخسيس الوزن وعلي أن أنضبط، وقد خسرتُ بضع كيلو جرامات خلال أيامٍ يسيرة.. في الحقيقة هو لم يخسر إنما ربح في خسارته الوزن بالانضباط.

إن لم يكن لنا من إنجازات مرموقة في الحياة وكان لنا إنجاز واحد فقط نفتخر به لأنفسنا وللجيل الحاضر هو: الانضباط..! أقول ذلك لأن الانضباط هو أساس كل شيء في الكون والوجود والتفكير والرغبات، فالكون مضبوط في كل حركاته، يسير وفق نوااميس دقيقة «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»^{٥٠}، والعبادات كلها أساسها الانضباط فإن جانبها ضلّ المسلم، كذلك التفكير الذي إن حاد عن الانضباط زاع، والرغبات إن تحايلت عن الانضباط انحرفت..! الإنسان بصورة عامة إن لم ينضبط أصبح كالذرة الضالة..! يقول ستيفن كوفي: «من يفتر إلى الانضباط يكون كالعبد الذي يخضع لمختلف الحالات المزاجية والشهوات والأهواء». ويعرف كاب ماير Kopmeyer الانضباط الذاتي بأنه: «أن تحمل نفسك على أن تفعل ما يجب عليك أن تفعله، عندما يجب عليك أن تفعله، سواء أعجبك ذلك أم لا».

هذه واحدة من أكبر الظواهر المرضية في مجتمعاتنا، فإن طعم الواحد منا أغرق نفسه بالطعام حتى يتخم..! وإن سهرَ أفرط في السهر، وإن لعبَ نسي نفسه، وإن جلسَ في مجلس مضى به الوقت ساهياً، وإن جلسَ أمام التلفاز غفل، وإن انفعَلَ أسرفَ في انفعالاته، وإن خاصمَ أصبحت الدنيا سواداً كثيباً في قلبه قبل عينيه، وهكذا كلما أقبل على أمرٍ يندر فيه

الانضباط، فيزيد ذلك من الضرر بالصحة، والتبديد في الوقت، والإضاعة للطاقة، والهدر في الموارد...!

ديننا أساس الانضباط لكننا لم نع جوهر الدين بل وعينا قشوره في أكثر المظاهر، فمما يذكر أن حواراً جرى بين طبيب ألماني وصحفي مسلم في أحد مستشفيات ألمانيا، قال الطبيب الألماني للصحفي المسلم: ما سبب تأخر المسلمين عن الحضارة والنهضة؟ فأجابه الصحفي المسلم - بالهوية فقط - : إن سبب تأخر المسلمين هو الإسلام، فأمسكه الطبيب من يده، وذهب به إلى جدار قد علقت عليه لوحة، فقال له: اقرأ الكلمات المكتوبة على هذه اللوحة، فإذا فيها الحديث الشريف الذي يقول فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - : «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه...»، وعند نهاية الحديث قد كتب، القائل: محمد بن عبد الله، فقال الطبيب الألماني للصحفي المسلم: أتعرف هذا؟ قال: نعم هذا نبينا، فقال له: نبيكم يقول هذا الكلام العظيم، وأنت تقول: إن سبب تأخركم هو الإسلام!! وختم الألماني الحوار بقوله: للأسف إن جسد محمد عندكم، وتعاليمه عندنا!!

ما الذي فهمناه من ديننا؟! وهو قائم في الأصل على الانضباط، كقوله تعالى: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك»^{٥١} وقول نبيه الكريم عليه السلام «مَنْ ضَمِنَ لِي مَا بَيْنَ حَيِّهِ وَرَجُلِهِ ضَمِنْتُ لَهُ الْجَنَّةَ»^{٥٢}، وكل أمر أو نهى فيه هو تعليم للانضباط، والانضباط هو القدرة على التوازن الواعي الحصيف بين تلبية رغبة وكبحها، وإصرار على تحقيق هدف مهما كانت المعوقات والمغريات، وحمل النفس على المشقة لأجل تحقيق أسباب السعادة.

٥١ هود/ ١١٢.

٥٢ رواه البيهقي.

كم حالم في مجتمعاتنا يغوصُ في أحلامه الوردية خيالاً...؟! وكم من حلو لسان إن سمعته لقلت إنه سيملك العالم بما يديه من حسن منطقٍ وبديع كلام؟! وكم من ينتقدُ وضعه ويتذمّر من حاله لكنّ هؤلاء جميعهم يفتقدون إلى الانضباط في حياتهم، ولذلك فهم يدورون في نطاقِ الأحلام والكلام...! يقول Jim Rohn: «الانضباط هو الجسر بين الأهداف والإنجاز».

انظر إلى المقاهي ستجدُ فيها كمّاً كبيراً من الشبابِ أدمنَ التسكّع فيها بصورةٍ يوميةٍ، وكأنّ الحياةَ ليستَ إلا مقهى...! وانظر إلى آخرين وقد أدمنوا شيئاً اسمه كرة القدم فهم بين لاعبٍ مسرفٍ، ومتابعٍ شغفٍ لا يمرُّ عليه ليلٌ أو نهارٌ إلاّ وقلبه منشغلٌ بها، وكأنّ الحياةَ ليستَ إلاّ ملعباً كبيراً...! وتمتّع فيمن يلعب بالحرية وينادي بها مطلقةً في كتابةٍ، أو سلوكٍ، أو رغبةٍ، أو تقليدٍ فتظنّ أن الحريةَ في أصلها ليست إلاّ انفلاتاً من كلّ القواعد البشرية، بل هي أضلُّ حتى من البهيمة...! يقول Mortimer J. Adler: «الحرية مستحيلةٌ دون عقلٍ منضبطٍ». وانظر إلى بعض الشبابِ العاملِ وهو لا يكثرُ بأدنى درجاتِ الانضباط فيه، ومع ذلك يتشكى ويتباكى...! وانظر إلى من لا يكبحُ جماحَ لسانه أو قلمه ليخوضَ في الأعراضِ، ويُصدّرَ التّهم، ويكيل الوشائيات، وهو يفتقدُ في ذاته لأقل درجاتِ الانضباط...! وانظر إلى مبتدئٍ في مشروعٍ لا يجدُ في نفسه من العزيمة والصبرِ والمثابرة ما يعينه على مواصلة مشروعِهِ والتطويرِ فيه. يقول توماس جيفرسون Thomas Jefferson: «كلما جهدت في عملك أكثر كلما صرت الأوفر حظاً». وانظر إلى المدخن الشره، وهو يملأ جسده دُخاناً أو الثمل النشوان وهو يعربدُ سكراناً يحسبان كلاهما أن في ذلك حلاً لجميع المشكلات...!! وانظر إلى ذلك الذي يحسبُ أنه ينتهك القانون وهو في الحقيقة ينتهك نفسه أمام القانون...! وانظر إلى دولٍ لا تعرفُ الانضباط

في حلّ مشكلات جوهرية في حياة شعوبها، فتحسب أن المشكلات تُنهي نفسها بنفسها مع مرور الزمن، في حين أنها تتفاقم حدةً واحتداماً!

وإذا كان الانضباط لغةً هو لزوم الأمر وعدم مفارقتِه وضبطه بالحزم^{٥٣} فهو أدباً وسلوكاً: الالتزام بالمبادئ القويمة التي لا غنى عنها للإنسان في تحقيق إنجازاته في الحياة، وهو التقيّد بالوجهة السليمة المرسومة للوصول إلى الغايات السامية، ينبع من احترام الإنسان وتقديره لنفسه فلا يرميه مرامي الهوى، ولا يلقيها في مواطن الضياع، ولا يتركها ترعى دون قيد.

لا يمكن لأي إنسان أن يصل إلى النجاح، وأن يحقق الإنجاز إلا بالانضباط الذي يستلزم التضحيات الجسام، والمشاق العظام، يقول أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها .. تُنال إلا على جسرٍ من التعبِ

كما لا يمكن لمجتمعاتنا أن تعي مسؤولياتها الحضارية، وتنافس في نهضتها التنموية، دون أن تعي معنى الانضباط وتجعله شعاراً لها في كل أمر من أمور حياتها، وإلا فقدت أسس نهضتها، وركائز تنميتها، فتصبح دائرةً في فلك الكلام، بديعةً في العتب والملام، واجترار البطولات الجسام، للماجدين العظام!

يقول محمد علي جناح مؤسس باكستان: « بالايمان والانضباط والتفاني ونكران الذات في أداء الواجب، لا يوجد شيء جدير بالاهتمام لا يمكن تحقيقه ».



النقد



أعظم جدار يحول بين الإنسان والمجتمعات عن النماء والتطوير، والبناء والتعمير هو الجدار الذي يصدُّ النقد...! ذلك الجدار الذي يقوم للدفاع عن عزّة الشموخ والكبرياء المزعومة...! وهو في الحقيقة جدار الظلام الذي يمنع شمس الحقيقة من السطوع في أعماق البصيرة...! إن الهدوء التام الذي يعمُّ في دواخل البصيرة يقيها طاقة راکدة لا يثيرها مثيرٌ مغاير، فالأفكار هي الأفكار لا جديد فيها، إلا أن تستثار بمواجهة أفكار لم تعدها من قبل، أفكار مخالفة في طرحها، ورؤاها، فتتحرك طاقة البصيرة من أجل التفكير في هذه النوازل الفكرية الجديدة، مستنفرة قدرتها الذكائية، ومحرّكة قواها الخاملة كي تتمعن فيها، وتتفاعل معها إيجاباً أو سلباً ولكن بما يتناسب مع الحجج والدلائل.

إننا نعيش في مجتمعات يضيق أفرادها بالنقد، لأن النقد في المنظور النفسي هو كسرٌ للعزّة، وإضعافٌ للشخصية، وهزيمةٌ للكبرياء وهذه أمورٌ لا يرضاها الشرقي بحكم طبيعته وتربيته!

أما في ديننا، فالنقد واجبٌ: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (آل عمران: ١١٠)، بل هو الوجه الآخر للدين «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» حديثٌ شريف. لكنك ما إن تُبدي وجهة نظر ناقدة لفكرة ما لدى أحد الأفراد حتى ينشغل ذهنه على الفور بالتحفّز للدّفاع عن فكرته، ورأيه، ووجهة نظره، لا أن يستمع لك بإنصات معن، ويوليكَ اهتماماً، ويفكر في معنى ما تقول...! يردُّ عليك فور ما تنتهي أو يقاطعك منفِعلاً قبل أن تكمل حديثك وهو لم يع ما قلت، ولم يعقل ما أبديت...! إنها بالنسبة إليه «معركة كرامة» لا مناص من النصر

فيها كما يقول الشاعر : «لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ»..! ونبيّ الأمة الكريم وصحابته الأجلّاء تقبّلوا النقدَ برحابةٍ دون امتعاضٍ وكبرياء. يقول فريد الأنصاري: «إن النقد هو أولى الخطوات لتبين الطريق السليم للفهم السليم والعمل السليم، ومن هنا كان الحفاظ على حاسة النقد في المجتمع المسلم واجبا شرعيا، وضرورة اجتماعية بكل المقاييس.

إن الذي يوصدُ بابَ عقله عن سماعِ النقدِ البناء الذي يصدرُ عن نفس عامرة لا هدامة لا يحيى إلا أعمى البصيرة، يرى رأيه وحسب، فهو متخبّطٌ في شتى السبل لا يستقرُّ له قرار، لأنه يمضي سادراً في الظلمات، تأخذه العزّة بالاثم قياساً لقول الكاتب المكسيكي الحائز على جائزة نوبل أو كتافيو باث إن: «أمة بلا نقد هي أمة عمياء». لقد وأدت هذه العزّة الآثمة النصيحة الناقدة وأقصتها بل وناصبتها العداء والخصومة الفاجرة، فإذا بالناس يتحاشون النقد لأن فيه خسراناً للقلوب وإن كان فيه ربحانٌ للمواقف.

فأصبح من ينتقدُ جهةً ما احتسبَ ذلك النقدُ موجّهاً بصورةٍ شخصية لرئيسها، وهنا تستنفر كل تلك المؤسسة طاقتها لمعاداة ذلك المنتقد، فيوضع في القائمة السوداء ممن لا يجوز التعامل معهم، بل ويعاقب من يتجاوز ذلك القانون غير المكتوب..! يقول أحدهم: «انتقدت ذات مرّة مسؤولاً فإذا بكلّ المشاريع القائمة تتوقف بيني وبين بقية الدوائر في تلك الجهة، ويوجّه لي اللوم بأنني قد انتهكت المحرّمات..!». ويقول مسؤول آخر: «أن الاختلاف مع المسؤول الأعلى ثمنه خسران الوظيفة، ذلك لأنني لم أَرْض بالتسليم والطاعة في ما ليس سليماً من الأوامر والقوانين، لكن

المسؤول الأعلى اعتبر ذلك امتهاناً له وانتقاصاً من مكانته، وزرابة بمنصبه فأقصاني ليدي من يقول له لبيك وسعديك...!))

إن سوء الظن هو الذي يقود ردّات الفعل، ويوجّهها الوجهات السلبية التي ليس من بينها التسامح، وقبول الرأي الآخر، واعتقاد وجود الخطأ، والنية الحسنة في الطرف الآخر. هذه العقدة مصدرها مبني على التراكمات الاجتماعية لمعتقدات الحسد والحقد والنوايا السيئة المبطنة. لا يمكن في مثل هذه الحالات إلا التخلص من المسلّمات والمعتقدات الراسخة في العقل الباطن واعتقاد النوايا الحسنة في الطرف الآخر حتى يسهل التهاور وقبول وجهات النظر.

سألني محاورٌ إعلامي عن سبب اختفاء النقد من الساحة فقلتُ له: لأن ثقافة النقد ليست سائدة في المجتمع، فالناقد سيعرض علاقاته للانصرام والقطيعة إن هو انتقد عملاً من الأعمال...! ثقافة النقد لا توجد في البيوت لتربى النشأ على أدبيات الاختلاف، وقبول الرأي الآخر، لأن السلطة الأبوية لا تقبل النقد الذي يعدّ عصياناً، وشقاً لعصا الطاعة...! فكيف تتوقع أن ينشأ الأبناء؟! هذا الأمر علاجه يكمن في خلق مساحة للنقد البناء يتيحها المربون لأبنائهم بصورة واعية لا تعني انتقادهم كأشخاص وإنما إبداء وجهات النظر في الأفكار والنظم والآليات والتقاليد.

حتى اللفظة «نقد» ذاتها تواجه بحساسية في المجتمع على اعتبار أنها اصطلاح تعني جلاء المعايير، بينما هي في الأصل بيان المحاسن والمعايير، هذا يعني أن النظرة التشاؤمية تجاه النقد صورة العملية ذات وجه واحد كالحج، يترصد الأخطاء، ويتصيد الزلات، ويبيّن العور.

الإشكالية التي وقع فيها الكثيرون منّا هي أن قيمة الأفكار لديهم بحسب العلاقة مع الأشخاص وليتها بحسب قيمتها..! فالأفكار المخالفة الصادرة عن أشخاص بينهم جفاء أو بُعد هي أفكارٌ مرفوضة وإن كانت على صواب..! أمّا إن صدرت من أشخاص تربطهم بهم علاقة ود فإنهم يقبلونها بود، وسماحة، وإن كانت غير واقعية، وهذا عكس مقولة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «عرفت الرجال بالحق ولم أعرف الحق بالرجال». أمّا الإشكالية الأخرى فهي أن البعض وحدة متضامنة فكرياً مع «شلتها» ضد الآخر، فإن أخطأت هذه «الشلة» وانتقدت بعض أقارب أعضائها تفككت عُراها، وبدأت الخصومة والخلافات تدبّ بينهم.

إن مجتمعاتنا -مؤسسات وأفراد- بحاجة إلى النقد التقييمي، التقويمي الذي لا يُبنى على نيات مبيتة، وأحكام جاهزة، وأسئلة خبيثة، وإنما يبنى من أجل المعرفة والحقيقة والموضوعية. مجتمعاتنا بحاجة إلى من يستطيعون التفريق بين «الذاتي» و«الموضوعي» فلا يتداخلان فيما بينهما حتى لا تختلط في الناقد «مهنية النقد» مع «ذاتية المشاعر»، ولا تمتزج في المنتقد «فكرة المؤامرة» مع «موضوعية النقد». تصف الكاتبة آن بنت سعيد الكندي المحاور الإعلامي البريطاني المخضرم تيم سباستيان Tim Sebastian بأنه المحاور الشرس على منصة الحوار، تراه شخصاً ودوداً خارج المنصة، فسألته: كيف استطاع أن يجمع بين الصفتين؟ فأجابها بالقول: إنه لا يخلط بين الأمور الشخصية والعمل. فتعقّب على إجابته قائلة: «قاعدة تبدو بسيطة، لكن هي بعيدة عن مجتمعاتنا ومن يتصف بها يصبح شخصية غير محبوبة».

إن الأب الذي يربي أبنائه على كلمة «أسكت» لا يمكن أن يسقي بذرة النقد وتقبل الرأي الآخر في أبنائه.

والمحاضر الجامعي الذي يقذف بأوراق البحث في وجوه طلابه لا يمكن أن يعلمهم موضوعية النقد، واحترام الاختلاف في طلابه، بل يزرع فيهم شخصانية الحق، والكرهية.

والمسؤول الذي يقصي كل من يعارضه، ويهدد ويتوعد من يخالفه لا يمكن أن يقود مجتمعات لنشر ثقافة النقد الحنيف.

والكاتب الذي يحشو في كتاباته هذراً فلان، وهرج علان لا يحق، له أن يطلب مساحةً للنقد.

وصاحب المصلحة التي يريد لها على خلاف القانون فلم تتحقق هو آخر من ينتقد لأن نقده مبني على انتقام وثار شخصي.

والمصلح الاجتماعي الذي لا تغاير أفعاله أقواله لا يجوز له الانتقاد لأنه من الذين يأمر الناس بالبر وينسون أنفسهم!

النقد إذن له أدبياته، وآلياته، وأخلاقياته، وطرقه الموضوعية، فكم من فكرة حسنة صيغت بأسلوب جارح تم اعتراضها، والتصدي لها، وكم من فكرة بسيطة صيغت بأسلوب لطيف لاقت قلوباً مرحة، وأنفساً مستقبلة، وعقولاً منفتحة.

وما لم تُسَدَّ ثقافة النقد الرّشيدِ الهادفِ إلى البناءِ الوطيد، فلن تتحرّك مجتمعاتنا إلى ما يعزّز مكانتها بين المجتمعات الحضارية، بخطى مكينة، وأنفس واثقة، يقول د. عبد الكريم بكار: «إن المراجعة والنقد الذاتي يسببان آلاما، ولكنهما يمثلان الخطوة الأولى على طريق إيقاف التدهور». ذلك لأن رفض النقد وعدم قبول الرأي الآخر وإقصاءه بل واحتقاره وتخوينه لا يتواءم مع المنهج الديمقراطي في إدارة الشعوب، وهو المنهج الذي لا حياد عنه لأجل الحراك الاجتماعي الواعي، وإدارة شؤون الدولة.



التلاميذ



بعد أن قضى مصلحته التي زارَ من أجلها المسؤول، وقال فيه ما قال منافقاً ومجاملاً، وقفَ على البابِ مودّعاً، فسألهُ المسؤولُ كما جرت عادة المودعة: هل تحتاجُ لشيء؟ فقال وقد كشفه مجبوء نواياه: نعم بالتأكيد ما دمت على هذا الكرسي!!

كل شكل من أشكال النفاق الاجتماعي أو التلميع أو الرياء إنما هو تعمية للعقل والفكر تجعله غير قادر على التمييز والإدراك. وهذه أمراضُ تفتشت في مجتمعاتنا فولدت نتيجةً لذلك أمراضاً بدورها..! المشكلة التي يحدثها عَور التلميع جسيمة وخطيرة لأنه يوهّم الشعوب والمجتمعات بأنها على الطريق الصحيح بينما تمشي في طريق التيه والضلال ليس لها من وجهة واضحة أو هدف مرسوم..! عندها «تعيش الحقيقة في خضم الخديعة» كما يقول Friedrich Schiller. فلا يمكن لأحد أن يميّز الخبيث من الطيب، ولا يعرف الصادق من الكاذب، وينطبق على هذا المشهد الحديث النبوي الشريف عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سُنُونُ خَدَاعَةٍ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْضَةُ»، قيل: وَمَا الرُّوَيْضَةُ؟ قَالَ «السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»^{٥٤}.

إن التلميع سرطان الشعوب إن استبدَّ بها، لأنه يقدم اللئيم على الكريم، ويرفع التافه على الشريف، فيكونُ حال المرءِ الحقير في المجتمع نظراً لما يتلقاه من تبجيل وتوقير لا يقارنُ في مقام الرفعة بمقام المرءِ الماجد الشريف..! يقول أبو الطيب المتنبي ناصحاً سيف الدولة عن هؤلاء: أعيذها نظراتٍ منك صادقةً .. أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورم

٥٤ [رواه أحمد].

شاعت في مجتمعاتنا ظاهرة التزلف والتملق والتلميع فتاهت حقائق، وطمس الواقع، والتبس الصواب، فأصبح البعض يستمروون المنافقين، ويطيّب للطبالين، ويسعد للامعين، وهو يعلم في قرارة نفسه أنّهم كاذبون...! وهذه مصيبة، يقول ابن سيرين: «إذا رأيت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك، فلا تأمن أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك». هذا ما يحدث فما إن تقلّب الأحداث، وتتغير الأحوال حتى يتبدّل معها هؤلاء الملمعون و«لا خير في ودّ امرئ متلون»، كما لا خير فيمن لم يسد كلمة الحق، ويبيّن الصواب، ولا خير فيمن لا يقبلها، يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كلمة الحق، لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها».

أضحى المجتمع يُطلق على محترف التلميع «شلاخ» وهي كلمة قد يكون مصدرها «جلخ» والتجليخ اصطلاحاً هو عملية سابقة للتلميع والرهافة والصقل...! إنسانٌ يمتهن هذه «الحرفة» الزائفة ليقضي بها مصالحه كالمعني في الشعر الدارج المتناقل: صلى اليهودي لأمرٍ كان يطلبه.. فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاماً!

ولقد رأيت أحدهم في مجلس من مجالس عليّة القوم، وهو يرفع عقيرته داعياً لصاحب المجلس وممجداً، ومستجمعاً كل طاقة من النفاق راكمتها الخبرة الطويلة في التلميع والتزويق فقلت للجالس بجانبني: أنظر إليه بعد قليل ماذا يفعل...! فلما انتهى من خطاب التمجيد والإطراء، والحمد والثناء، مال بجذعه إلى صاحب المجلس وبدأ يهمس في أذنه من المطالب ما شاء!!

أما آخر، فقد شطّح بالرياء شطْحاً حتى جاوزَ الحدَّ، إذ قال وهو ينتظرُ على مائدة الإفطار لمسؤولٍ سأل إن كان قد رُفِعَ الأذان أم لا؟ قال: يا سيدي حتى لو لم يرفع الأذان وأمرتنا بالإفطار لفطرنّا...!! لقد بلغ منزلةً من التلميع الزائف ما بلغها غيره وبهذا يحقُّ له أن يبلغَ العلياء، ويناطحَ الجوزاء!

إن الممارسَ للتلميع فردٌّ يشعرُ بالضَّعة والنقصان وهزالة الثقة في نفسه، وقلة الإيمان، فما من إنسانٍ حرٍّ شريفٍ يقبلُ أن يمارسَ الزيفَ، ويمتحن الرياءَ من أجل مالٍ أو جاهٍ مذؤوم...! وما من إنسانٍ عليٍّ الهمة، كريمٍ الحسبِ، صادق النفس يرضى هوانَ النفس بإطراءٍ من لا يستحق الإطراء، والثناءَ على من لا يستاهل الثناء!

إن الكلمةَ أمانة، فإذا سادَ في المجتمع التلميع والنفاق والتزويق والتزيين خربت أركانه، وفسد بنيانه، فهو بين مسؤولٍ لا يقبلُ إلا المداينة، ووجيهٍ لا يرحبُ إلا بالمجاملة، وغنيٍّ لا يستطيعُ إلا للتملُّق...! فجميعُ هؤلاءٍ مخدّرون بالكلام المعسول، من مرأى جهول، غيَّبوا النصّاح الخالص، وأبعدوا خيرة الأصدقاء لأنهم ما ارتضوا لأنفسهم أن يخونوا أمانة الكلمة فيقول للباطل حقاً، وللحق باطلاً!

وكثرَت في المجتمع مصطلحات مثل «نافق تنجح»، و«ادهن السير» ويقصدُ به الحزام كنايةً عن التملُّق والمداينة...! فعلى شأن صنّاع الكلام المبهرج، وارتفعَ قدر التزويق، في الوقت الذي قلَّ فيه قدرُ الصادقِ الحاذق، والنبيلِ المرافق، فقلبت المفاهيم إذ صارَ الذكي هو الذي يتقن فنَّ التملُّق، والغبي هو الذي لا يحسنُ المديح...! وصارَ الناجحُ هو الذي يعرفُ كيفَ

يُدهن والفاشل هو الذي لا تسمح له نفسه بالمجاملة، وأمسى الطريق إلى القمّة بالتجهيل والاستغناء والتعمية وليس بالتنوير والتبصير والتجلية.

أقول دائماً بأنني لا أوافق على المثل القائل «المدح في وجوه الرجال مذمّة» ففي يقيني أن المديح الصادق واجب للتحفيز، ودفع النفوس إلى المكارم، إنّما المديح الزائف، والثناء المرائي هو المذمّة المنبوذة، ففي الناس من هو قمينٌ بالثناء، وجديرٌ بالإطراء وهؤلاء قدوات الأمة، وقادة المجتمع، لكن أن يكون المديح درجاً للمصالح، والثناء جسراً للمنافع فذلك طريق الفساد وسبيل الخراب.

لا يجوز للمسؤول أن يلمّع وضعاً لا يقبل التلميع والمدارة والموارة، فهو مؤتمنٌ على وظيفته، فإن أبان لمّع وضعاً مزرياً، وزين حالاً قبيحاً أساء إلى وطنه وإلى الأمانة التي أوتمنَ عليها لغرض استدامة منصبه، وإطالة أمد مكانته... فالوطنُ أسمى وأعظم وأكبر من منصبٍ مسؤولٍ لا يؤدي الأمانة التي كلّفَ بها، فكم ضاعت حقوق، وأهدرت ثروات، وتبددت موارد، وغابت مصالح، وعطلت كفاءات في الوقت الذي لا يطالُ المسؤول طائلاً وهو مفرطٌ في أمانته يستلذُّ بالنفاق، ويخدر بالتملق...! هذا شأن بعض المسؤولين الذين يُطربون للنفاق، ويأنسونه للتلميع، فيمارسونه بدورهم لوجاهة مذمومة، وبجاجة مذمومة، والضحية هو الوطن...! فإن ناصحهم أحدٌ من نظرائهم أو أقلّ منهم كادوا له، ونكلوا به لأنه زلزل قناعاتهم، وهزّ مكانتهم...! لا يمكن أن يكون مثل هؤلاء المسؤولين حريصين على الوطن، فيدعوا ولاه وإخلاصه وهم يتغولون فيه من الجانب الآخر!

والإعلام عينُ المجتمع، ومُعينُهُ على التطوير، وميدانه للتنوير، ومنبره للديمقراطية، والإعلاميُّ مؤتمِنٌ على مهنته، فإما أن يكون نزيهاً في نقل الواقع بشفافيةٍ أو ملمّعا يسهم في ترسيخ التعمية، وممارسة التضليل الاجتماعي لأجل مصالحٍ يروجوها، فإذا به قلب المعايير رأساً على عقب؛ فيشيدُ ويمدح ويررُ فيشطح، أمّا الحقيقة فهي زيغٌ وبهتان. الإعلام الموضوعي النزيه هو الذي ليس همّه البحث عن مواضيع للإثارة، أو الفضائح، إنّما كشف العيوب وتقديم الحلول، هو الإعلام الذي يكشفُ التجاوزات، ويفضحُ الفساد، واستغلال السلطة حتى يصبحَ بحق سلطةً رابعةً مسؤولة، وليس إعلاماً مدجّناً!

إن مجتمعاتنا لا يمكنُ لها أن تتطوّر دون ممارسة الشفافية بأصولها، فإن الاجتهادات الإنسانية حافلة بالمعاييب والنقائص وما لم تصحح فلن تبارح مكانها. هذا الأمر يقتضي قول الحقّ في مقامه، وتعديل الخطأ في حينه، يقول سيدنا الفاروق رضي الله عنه: «لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي، قولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق». وليس من شك أن أحد العوامل التي تُنشئ النفاق الاجتماعي : المقاييس المغلوطة، والمعايير المعكوسة التي تصبح ثقافة مسلماً بها في المجتمع..! فالجاهل محترمٌ والعالمٌ محقر...! والوضيعُ مكرّمٌ والوجيهُ مستصغر!

ثقافة المفاهيم المعكوسة تنشئ المسارات المتقاطعة، والتوجهات المتلوية، والمصالح الضيقة، وهذا وضع اجتماعي سقيم. يقول د. عبد الكريم بكار: «إذا كان قانون الفيزياء يقول: إن الضغط يولد الانفجار، فقانون الاجتماع يقول: إن الضغط يولد النفاق الاجتماعي».

النظرة نحو الفرد يجب أن تصحّح، بمعنى أن يُنظر للفرد بحسب كفاءته وإمكانياته وعلمه وقدراته لا بحسب علاقاته وقبيلته ونسبه..! والنظرة نحو القانون يجب أن تصوّب؛ فإنّ تعقيده لأحد وتطويعه لآخر يدفع للفساد..! فإذا نال المجتهد حقّه بالترقية، وحصل المثابر على نصيبه بالتحفيز، وساوى القانون بين الجميع بالإنصاف؛ ففي ذلك وضعٌ للحق في نصابه، وتنزيهٌ للناس من رذيلة النفاق والتلميع.



التبرير



«الإعترافُ بالخطأ فضيلة» يُدركُ ذلك الغالبية في مجتمعاتنا، ولكنها تبقى نظريةً عصيةً على التطبيق...! ذلك لأن الكبرياء الواهم يحول بين الأفراد وبين انتقاد ذواتهم، والاعتراف بالنقص، أو الخلل، لأن في ذلك «عيبٌ» يخلُ بالشخصية، وانتقاصاً من السمعة، وعوراً في الواجهة!!

لهذا يسهل على الإنسان منهم أن يُررر كل خطأ، صانعاً بذلك دائرةً مفرغةً من المعاذير الواهية التي لا تكشفُ معضلةً، ولا ترسي على حل...! وفي التبرير إلقاءً بالتهمة على الظروف أو الآدمي الآخر.. ذلك سهلٌ لأنه يُخلي النفس من المسؤولية، ويجنبها التبعات والملاحقات، ويعددها عن المساءلات، ويريحها من التوبيخ واللوم والتقريع والنظرة غير الملائمة!

تحدث الأخطاء، وتقعُ المصائب، وتتسعُ المعايب، ولا يدفعُ الحسُ الأخلاقي، والضمير الأدبي أحداً للإعتراف إلا إذا غلقت الأبواب عليه وقيل له: هيت لك...! أو مضى عليه زمنٌ طويلٌ ضمنَ فيه أنه لن يحاسبَ بما اقترفت يميناً من شنيعِ الفعل، أو خرجَ من دائرةِ السلطة التنفيذية...!

يقول د. عبد الجبار الرفاعي: «تجلت الآثار التربوية لذلك، في أن للمرء في مجتمعاتنا شخصيةً مستعارة، يرتدي بها قناعاً في كل موقف نيابة عن غيره، وعجز المرء عن أن يكون ذاته، لا كما تريد له التقاليد والقيم الاجتماعية أن يكون. كما تجلت في تفتيش الشخص البشري على الدوام عن عوامل خارجية لفشله، والتنكر لأي سبب للفشل من داخله. فهو يعتذر مثلاً عن رسوبه؛ بأن: «المعلم عدوه»، وليس كسله وإهماله هو ما تسبب برسوبه. وعن تأخره عن السفر؛ بأن «الطائرة غادرت وتركته»، وليس هو من تأخر عن موعدها إلخ»^{٥٥}.

* * *

٥٥ حوار منشور في الموقع الإلكتروني لمؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر. <http://www.islammoasser.org>

يأنف المسؤول العربي عن الاستقالة، أو الاعتراف بالتقصير، أو وقوع الخطأ، أو تحميله المسؤولية، ويرر بأقصى ما يملك من تبريرات، متشبهاً بالمركز الذي يتبوأه ولا يريد إسقاط نفسه منه، إلا من استثناءات فريدة وباعثة على الإعجاب، كما حدث حين استقال أحد وزراء التربية والتعليم بعد وفاة طفلة في دولة خليجية قائلاً: «أنا مسؤول عن كل طالب وطالبة في المدارس، وأتحمل مسؤوليتي السياسية بعد وفاة الطالبة وأقدم استقالتي» ..! هذه من النوادر التي يحق أن يُحتفى بها!

لكن الأغلبية الساحقة تعتمد «ثقافة التبرير» في وقوع المصائب، والأخطاء الجسيمة؛ فوزير النقل يرر بشراسة إن وقع حادث وأودى بحياة بشر بسبب الإهمال والتقصير، ويرفض الاستقالة! ووزير الصحة لا يرى في الأخطاء الطبية إلا أموراً اعتيادية تحصل في كل مهنة، ولا يفكر مطلقاً في الاعتراف بالتقصير، أو وقوع الخطأ نفسه!

يحدث ما يحدث من تقصير وإهمال فلا اعتراف ولا إقرار!

يقول الكاتب علي الجحلي: «يستغرب البعض عندما يقرأون خبراً عن استقالة وزير بريطاني بسبب استخدامه الورق الرسمي للوزارة في كتابة خطاب وساطة لصديقه له، باعتباره استغلالاً للسلطة. فأين نصنف كل خطابات الوساطة التي تستخدم كل الأوراق الرسمية للوزارات والهيئات والمؤسسات التي تعج بها مكاتب التوظيف والمشتريات.. إلخ»^{٥٦}.

٥٦ موقع العربية الإلكتروني، ثقافة الاستقالة .. والنظرية الإدارية، ١١ مايو ٢٠١٢م

إن الشعور بالذنب عند وقوع كارثة من الكوارث لهو دليل على الشجاعة والجرأة في تحمّل المسؤولية، كما أنّه خلق أدبي رفيع، ولعلّ من أغرب ما قرأت عن انتحار معلّم كوري بعد أن غرقت السفينة التي أقلّت طلابه في رحلتهم المدرسية البحرية لأنه «شعر بذنب لم يحتمله لكونه هو من أصرّ على تنظيم هذه الرحلة المدرسية البحرية، وأوصى أن ينثر رماده في مكان غرق طلابه»، وكتب في رسالته: «إن البقاء على قيد الحياة وحيداً أمر مؤلم جداً. أن أنجو وحدي.. أمر لا يحتمل، في حين أن ٢٠٠ من تلاميذي في عداد المفقودين، أنا أحمّل المسؤولية كاملة. أنا الذي أصررت على هذه الرحلة المدرسية».

* * *

هي ثقافة تستبدّ بالمجتمعات العربية لأنها ترتبط - بصورة مزعومة - بالعزة والكرامة والكبرياء، تبدأ من البيت حيث تحلّ ثقافة التبرير محل ثقافة الاعتذار، فتسمع العذر لا الاعتذار، والعذر أقبح من الذنب عند المكابرة...! يُخطئ الزوج بحق زوجته، فيبرر أنها هي من استفزته فأغضبه...! ويخطأ الأب على ابنه ويبرر بأنه هو الذي دفعه لذلك...! ثم تتمدد هذه الثقافة إلى البيئة الاجتماعية فتسمعُ التهمة مُلقاةً على الظروف...! وفي الحقيقة فإن الإنسان لا يضار بما تحدّثه الظروف ولكن برّد فعله على الظروف!

وفي بيئة العمل، تُلقى كل أخطاء الرئيس على المرؤوسين وتقصيرهم وإهمالهم لأن الموظف «كبش الفداء» الذي يقدم ضحية لخطأ المسؤول...!

ويلقي المجتمع في قضايا تخلفه، وتراجعته، وجموده، وتقاعسه، وكل مصائبه على الآخر المتآمر عليه.. يقول د. عبد الجبار الرفاعي: «وهكذا ترسّخت ظاهرة تبرير كل تخلف في مجتمعاتنا، بوصفه مؤامرات كونية تستهدفنا على الدوام. الآخر سبب تخلفنا، الآخر سبب فشلنا، الآخر سبب هزيمتنا في معاركنا، الآخر سبب ظهور الجماعات المتطرفة الإرهابية في مجتمعاتنا، الآخر سبب صراعاتنا الطائفية، الآخر سبب كل ما لا سبب له، الآخر سبب يغذي نرجسيتنا المزمنة»^{٥٧}.

لقد أصابنا طغيان التبرير بعمى البصيرة والتواكل والخدر؛ فلم نعد نستسيغ نقد الذات، أو الاعتراف بمشكلاتنا، أو البحث عما يصلح أنفسنا فيوفر لها عوامل القوة، والحيوية، والنتاج. نُحسنُ «تعليق الأخطاء على شَماعة الآخر» والآخر يبدو كأنه الشبح الذي يتخيل لنا، فإن مرض أحد قُلنا أصابته عينٌ، وإن رسب طالب قُلنا الامتحان صعبٌ، وإن اتخذ أحدنا قراره قال: الظروف دفعنتي لهذا القرار، وإن أسرع في الطريق قال: الوقت سرقني!.. ومن كانت معيشته فقراً مدقعاً يبرر محتجاً بالقدر: هذا قدرتي!.. ومن لم يتوفق في أمر قصّر فيه يقول: هذا حظي!.. حتى وإن لم يجد أحدنا إلا الاعتذار عن خطأ قال للآخر: أنا آسف.. لكن!.. التبرير حاضرٌ دائماً!

* * *

ذات مرّة سألتُ شخصاً عن أحوال بلاده، وقال: إن أمريكا لا تتركنا في حالنا أبداً، فهي تزرعُ الفتن، وتنشر العيون، وتناور القيادات، وهكذا لا ننعمُ بسلام!.. فسألتها: هل تظن أن الفيروسات قادرة على الجسد إن كان

٥٧ المرجع السابق.

ذا مناعة قويّة؟! قال ليس لها من قدرة عليه. قلت: فإن ضعفت مناعته،
وقلّت حصانته انقضّت عليه انقضاء الوحوش على الفريسة، وحال
الدّول كحال الجسد والفيروسات!

* * *

الغريبُ أننا أتباعُ دينٍ حكيمٍ أوجد للمسلم تشريعات هي عبارة عن
اعتذارات تُقِيلُ عثراته، وتصلح أخطاءه بالاعتذار من خلالها.. عن أبي
هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصلاة الخمس والجمعة
إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر»^{٥٨}، ويبين القرآن الكريم
اعتذار النبي صلى الله عليه وسلم من الرجل الكفيف عبد الله بن أم مكتوم
وذلك في أول عشر آيات من سورة عبس.

وأمر المسلمين بقول الحق وعدم التدليس فيه والتزويق بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا
وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (النساء: ١٣٥).

ولا يقبل الله سبحانه وتعالى التبرير من الذين وصفهم بظلم أنفسهم، وقد
كانوا يمتلكون الحل لرفع الظلم عنه، يقول عزّ من قائل: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا
أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا» (النساء: ٩٧)

لكننا نجد في الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالذنب، ثقلاً ما بعده ثقل لهذا
نعمدُ إلى التبرير بقدر ما تسمحُ قدراتنا ومواهبنا وأخيلتنا !

* * *

إن التربية التي تقومُ على تحمّل المسؤولية، وإنصاف النفس، وإصلاح
الذات هي التي يصبح معها «الاعتراف بالحق فضيلة»؛ لأنها تعلّمت أن
الراقي يكمنُ في تقبّل الخطأ لا في الدفاع عنه، والتبرير له...! ف «الاعتراف
يهدم الاقتراف» كما يقول أحد الحكماء، وأن تُدرك أن النمو الإنساني لا
يتم إلا بالاعتراف بالنقص لا بالمكابرة والمعادنة...! الاعتراف بالخطأ هو
أساسُ العلم، ومعين البصيرة الحكيمة «ومما لا ريب فيه أن كل من لا يعترف
بأخطائه؛ سيرغمه التاريخُ على استئناف تجرّع كؤوس هزائمه في الماضي،
من لا يعترف بأخطائه لا يتعلم، التاريخ لا يُعلم إلا من يعترف بأخطائه»^{٥٩}.

وما جَنّت المجتمعات من الويلات إلا بسبب المكابرة التي إما يكون مصدرها
قاداتها المستبدون، أو أفرادها الذين تأخذهم العزّة بالإثم...! لا حلّ إلا أن تعلّم
الأجيال أن الاعتراف بالخطأ رفعة، والتبرير الواهي منقصة، ومدارة النقص
إجحافٌ في حق النفس، وتمويهٌ للعقل. وأن تعي جيداً أن المروءة الإنسانية
لا يحني عودها الاعتراف بالزلات، ولا يذل جناحها الإقرار بالهفوات.
وأن تدرك أن الإنسان ليس كائناً معصوماً من الخطأ، وليس مخلوقاً كاملاً
دون نقائص، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «والذي نفسي بيده
لو لم تذنبوا فستغفروا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر
لهم»^{٦٠}، لهذا فإن التبرير يصبحُ تضليلاً لا تعليلًا!



٥٩. د. عبد الجبار الرفاعي - المرجع السابق.

٦٠. رواه مسلم عن أبي هريرة.

القفز



قفز إلى الاستنتاج بقوله: إن رئيس الدولة الفلانية قد تراجع عن استقالته بعدما قدّمها، وأن تراجع هذا إنما يجسّد صورةً من صور الديكتاتورية، وحبّ السلطة، فردّ عليه رجلٌ حكيمٌ بقوله: هل اطلعت على ما ينصّ عليه دستورُ تلك البلاد؟ قال: لا، ماذا ينصّ؟ أجابه: ينصّ الدستور على أنه يتوجّب على الرئيس أن يقدّم استقالته لمجلس الشعب، وعلى المجلس أن يجتمع ويصوّت على الاستقالة، فإن وافق اعتبرت الاستقالة سارية المفعول، لكن المجلس لم يجتمع للظروف المضطربة التي مرّت بها بلاده، ولهذا فإن الاستقالة تعدّ غير نافذة، ردّ عليه: لم أكن أعلم ذلك !!

القفز إلى الاستنتاجات ظاهرة واسعة في مجتمعاتنا وهي من أهم أخطاء التفكير لدينا لأنها تُهمل أمرين مهمّين للوصول إلى الإستنتاجات الواعية، ألا وهما: المعطيات والتحليل؛ إذ لا يمكن للاستنتاجات أن تتبلور بصورة ناضجة، ومنطقية دون معطيات معيّنة، وتحليل لهذه المعطيات، إذن فهي معادلة متصلة ببعضها من أجل تكوين عملية تفكير ذات مراحل متدرجة، تصل بالعقل الإنساني إلى إنتاج الصورة المناسبة منطقياً.

أخبرني عميد إحدى الكليات التطبيقية بأن كثيراً من الطلاب يشكون إليه من بعض الأمور، فيسألهم: هل قرأتم دليل الطالب؟ فيأتيه الجواب في الغالب: لا..! وعقب قائلاً لي: إنهم لا يقرؤون، فقلت له: إن السبب هو النظام التعليمي المدرسي الذي لم يعلمهم القراءة منذ نعومة أظفارهم في المراحل الدراسية الأولى، أقول ذلك لأن اثنين من أبنائي بدأ حياتهما الدراسية في إنجلترا وكانا يأتیان بقصص نقرأها معهما، تزداد حجماً وثراء لغوياً مع تقدّمهما الدراسي، حتى وجدت ابني يكتب الشعر بالإنجليزية

وابنتي تكتب القصة باللغة نفسها..! لكننا حين عدنا إلى الوطن انقطعت هذه العادة الرائعة التي توسّع مداركهما، وتنمي خيالاتهما، وتزيّد من ثقتهما بنفسيهما..!.. لذلك لا غرابة أن ينفر الطالب الجامعي لدينا من التفاصيل المنصوص عليها في دليل الطالب، لأنه يضيق ذرعاً بالقراءة، ويريد اللقم الجاهزة التي لا يتعب فيها..! يتلون هذا الطبع ويتشكّل فتجده في الرجل الذي يسأل الفتوى حتى في أفقه الأمور كمثل البخور إن كان ينقض الصوم أم لا..!! أو تراه يتلقّى كل ما يفتى له بقلب خاضع، وعقل مشلول لا يتمعن في الفتوى، ولا يريد أن يحللها في عقله بحسب المعطيات المتوفرة (الظروف، العواطف، الأسباب).

الأمر الآخر المتعلّق بالتعليم والذي سبب وجود إشكالية «القفز إلى الاستنتاجات» هو التعاطي مع العلم على أنه «بنك» من المعلومات، وليس مختبراً تحليلياً يخضع للتجارب والأبحاث والمراقبة. وطبيعة البنك كما هو معروف أشبه بالمخزن الذي بقدر ما تملأه بقدر ما تسحب منه..! تعامل التعليم (منهجاً ومعلماً) مع العقل على أنه مخزن معلومات، يتمّ تفرغها في أوراق الامتحان..! مغيباً بذلك أهم قيمة للعلم وهي إخضاعه للتحليل والتعليل من أجل تحقيق الفهم، وترسخ الفكرة، وتكوّن السبل الأولى للإبداع والاستقلالية الفكرية والإنتاج العقلي. إن من أهم الركائز التي يستند إليها التفكير العلمي هي تحديد نظرية المعرفة Epistemology التي يتبناها الباحث، فلا يقفز في بحثه إلى الاستنتاجات دون أن يحدّد موقفه المتوافق مع نظره المعرفي، وذلك من خلال اختيار الفلسفات المتعلقة بنظرية المعرفة وهي كالتالي^{٦١}:

٦١ ويكيبيديا - نظرية المعرفة.

الفلسفة الوضعية (Positivism) وهي فلسفة تعتمد على الأرقام لأن الأرقام لا تكذب بنظرهم.

الفلسفة التفسيرية (Interpretivism) أو الفينومينولوجيا (Phenomenology) وهي فلسفة تعتمد على الشرح.

الفلسفة الواقعية (Realism) وهي فلسفة تقع بين الفلسفة الوضعية والتفسيرية.

كما لا يمكن للمتعلّم كذلك أن يمضي قدماً في بحثه العلمي قافراً إلى الاستنتاجات دون أن يُحدد موقفه المتلائم مع نظرية علم الوجود (الأنطولوجيا ontology).

وتنقسم الأنطولوجيا^{٦٢} إلى:

— نظرية الموضوعانية (Objectivism)

— نظرية الذاتية (Subjectivism)

— نظرية الواقعية (Pragmatism)

أضربُ هنا أمثالاً للتعامل مع المعطيات التي يتطلب التعامل معها تحديد الأطر المعرفية والوجودية للفكر الإنساني؛ وذلك كي يستطيع أن يتّبع الطرق المثالية في نظراته للمُعطيات، ومن ثم ممارسة عملية التحليل لهذه المعطيات، فلا يخلطُ في الطُرُق كما قد يخلطُ قارئ بين مقامٍ ومقام أو شاعرٍ بين بحرٍ عروضيٍّ وآخر..!

أمّا السبب التربوي لإشكالية «القفز إلى الاستنتاجات» فهو المتعلق بالتنشئة وما يصاحبها من فرض وإملاء، فإن أصدر الأبُ أمراً أو قال قولاً

٦٢ ويكيبيديا - علم الوجود.

فمن «العيب» أن يناقشه الابن في أسبابه؛ إذ يأتيه الجواب القاطع: نفذ واسكت...! فترسخ هذه النزعة القمعية فيه أينما ذهب، وترافقه في مراحل عمره المتقدمه...! يمارسها على الآخرين، وينفر هو بدوره من التفاصيل والتحليلات، فتجده سريع القفز إلى النتائج إما سلباً أو إيجاباً.

هذا الأمر أدى بالكثير إلى الوقوع في أفخاخ الغشاشين القادرين على نصب الفخاخ لأصحاب الطباع التي تقفز إلى الاستنتاجات، فيمارسون ضغطاً عاطفياً، أو إغواءً نفسياً ليتحايلوا عليهم، ويوقعوهم في شرك الوهم فلا يستفيق الواحد منهم إلا بعد أن يكون قد قفز قفزة كبيرة في استنتاجاته الساذجة السطحية فلم يحلل المواقف الشخصية للطرف الآخر، ولم يكلف نفسه عناء التفكير العميق في طرق التعامل التي تمارسها الشخصية الأخرى حتى أوقعته في شركها وحينها لا ينفع الندم!!

كما سببت نزعة «القفز إلى الاستنتاجات» ضيق الصدر...! إذ لا يتسع صدر الإنسان الذي نشأ على هذه النزعة لتقبل الرأي المعارض، ولا يتسامح مع الفكر المخالف، فصدره يضيق إلا بما يتوافق مع ما يشتهي سماعه وقوله، أما لماذا يضيق صدره فلأنه قد نشأ على طبيعة الاستعجال في الحصول على النتيجة، وكأنما المعطيات وتحليلها ليسا إلا قشرة زائدة يُستغنى عنها عند الحصول على النتيجة النهائية...!! لقد تعلم أن كل فهم للمعلومات لا ينفعه بشيء طالما يستطيع أن يحشو ذهنه بالحفظ قدر الإمكان، فلا فائدة من معرفة التفاصيل، ولا منفعة من المقدمات، لهذا جرى في المجتمع قول: «قل لي من الآخر» أي أوصلني إلى النتيجة النهائية فلا تهتم التفاصيل التي قد لا يكون للنتيجة من قيمة دونها...!!

كما كان من نتائج نزعة «القفز إلى الاستنتاجات» سرعة اتهام الآخر، وإساءة الظن به، وتضخيم المؤامرة التي يحكيها الآخر. فإن ضاع غرض قفز ظن الإنسان إلى أن فلاناً قد سرقه..! وإن قال كلمة قفز المتلقي إلى تحويلها إلى استنتاج متعجل لمعنى بعيد عن مقصدها..! وإن حدثت حادثة توجه بأصابع اتهامه إلى جهة ما دون أن يملك معطيات معينة..! فإذا بكل هذه التخرّصات وهمية لا أصل لها سوى أنها فضحت الفراغ الناتج عن فقدان المعطيات وضعف القدرة على تحليلها.

هذه النزعة أسهمت في:

- ضعف الاجتهاد الفقهي - إن لم نقل جموده - واستغناؤه بالجاهز القديم المتوارث دون إنتاج حديث يتلاءم مع صيغة العصر نظراً ولغة وسبباً..!
- جاهزية الأحكام المختلفة في كل منحى من مناحي الحياة؛ فإذا وقع أمر انتشرت شائعات دون مصدر موثوق يُطلقها هؤلاء الذي يقفزون إلى الاستنتاجات لكي يسابقوا بها المختصين الذين يملكون المعطيات ويعملون على تحليلها بصورة منهجية دقيقة حتى يصلوا إلى الاستنتاجات.
- التواكل والتراخي للحصول على الحقيقة وتقبل الواقع على أنه عصي على التغيير والتبديل، فجرت الأمثال «قص صبع، ولا تبدل طبع» و«اصبر على مجنونك حتى لا يأتيك من هو أجن منه» و«العين بصيرة واليد قصيرة»، كل هذه سببها عدم وجود الدافعية الذاتية والالتزام النفسي لأجل التغيير ودفع الخطى إلى الأمام.

• تعميم الحالات النفسية والصحية والاجتماعية على الجميع وكأنها حالات متطابقة تماماً تجري على البشر في مجرى واحد، وكأننا هم آلات وليسوا حالات...! فإذا بك تسمع أقوالاً عن تعميم صفات للمرأة أو للرجل وكأننا هم/ هن إنسانٌ واحدٌ متكرر على ظهر هذه الأرض...! وإن فشل أحد في عمله أو في علاقاته سمعته يقول «النساء كلهن كذا...» أو «الرجال طبعهم كذا»!!

• التفكير الذي يتراوح بين طرفي الخيط فيما أسود أو أبيض ولا شيء بينهما، وكأننا الألوان الأخرى لا وجود لها في الحياة؛ إذ التفكير فيها يسبب إرهاقاً للنفس التي تهناً بالسرعة في القفز إلى الاستنتاج فأنت إما معه أو ضده.. هذا هو الوضع المريح لصاحب النزعة...! بدل أن يرى في معطيات الحالات والظروف والنفسيات فيحللها تحليلًا عقلياً سليماً ثم يخرج باستنتاجات ذات مصداقية، فهو يرى أن هذه العمليات تحتاج منه إلى جهدٍ شاقٍ وصبر وسعة صدر وهو لا يملك هذه الخصائص...! في حين يوصيه الخالق عز وجل بقوله: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (الحجرات: ٦)». ويحثه على عدم اتباع ما ليس له فيه علم بقول الحق سبحانه: «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» (ص: ٢٠٠). وينهاه عن الظن لأنه «قفز إلى الاستنتاجات» دون معطيات واقعية، ودون براهين وأدلة في قوله سبحانه: «وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون» (يونس: ٣٦).

إن معالجة إشكالية «القفز إلى الاستنتاجات» تحتاج إلى العودة إلى الأسس في التنشئة والتعليم والتنمية الاجتماعية؛ وذلك من خلال:

١- إعداد المربين ليكونوا قدوات في النظر إلى الأمور نظرات متفحصة، متأنية، لا يدفعها تهور، ولا تجرّها عجلة؛ وذلك من خلال إعمالها للتفكير وجعلها الوسيلة الفاعلة في ربط الأسباب بالمسببات.

٢- تغيير منهجية التربية على قيم الصبر وسعة الصدر، والتسامح وقبول الرأي المخالف، وعدم تبرئة النفس من الأخطاء، والإيمان بالتعددية الطبيعية في التفكير والطباع والتوجهات والميول... وغيرها.

٣- تأسيس مناهج علمية قوامها التحليل والتعليل والفهم والبحث والتجربة، وإعمال العقل في الحصول على المعطيات، وربطها بطرق منطقية عقلانية بالاستنتاجات النهائية.

٤- تغيير المنهجية العلمية للتعليم التقليدي لتصبح «التعلم الذاتي» القائم على الإرشاد والتوجيه.

٥- بناء الإستراتيجيات الوطنية على يد متخصصين لا متخرّصين يستطيعون الحصول على المعطيات الفعلية التي تمثّل لهم قواعد تقوم عليها تحليلاتهم ومن ثم النتائج التي يصلون إلى إنتاجها.

إن المجتمعات التي يكثر فيها «القفز إلى الاستنتاجات» هي مجتمعات واهية مريضة، لا تتكأ على حقائق ولا تقوم على ركائز، وإنما على فرضيات واحتمالات وتخيلات وأوهام...! وإن الأوطان التي لا تُعنى بالتفاصيل

الدقيقة جمعاً وتحليلاً وتدقيقاً لا تعرفُ كيف تديرُ مواردها، ولا تقود
تنميتها، ولا تدفع عجلتها، وإن الإنسان الذي لا يتحلّى بالحنكة والعقل
والتدبّر والتفكر في الأمور إنما هو متهور تقوده انفعالاته ومشاعره التي
لا تستند إلى رؤية واضحة، ولا يمكنُ لمثل هذا الإنسان الذي لا تسعفه
بصيرته الحكيمة أن يذوق طعم الإنجاز؛ لأنّه كمن يرمي حجراً على ثمرٍ
فيرتدّ ساقطاً على رأسه!



التعصب



يبدو التعصّب في أشكاله وأنواعه المختلفة مشكلاً أساسياً من مشكلات العقل العربي عبر أزمنة طويلة، بل إنه زاد حدّةً، ونما قسوة في العصر الراهن مع توسّعه ليشمل العصبية الدينية والفكرية بل وحتى الرياضية، وهذه مفارقة غريبة لا يكادُ العاقلُ يصدّقها في عصر التنوير والعلم والعولمة والانفتاح على الثقافات المختلفة!

وليست الإشكاليات في المختلف فيه، بل في المختلف معهم أغلب الأحيان...! بمعنى أن التعصّب لا ينشأ بسبب القضية المطروحة، أو الموقف الحادث في أحيان كثيرة، بل لأن الشخص الآخر هو مناوئ وخصم بسبب مذهبه، أو وجهة نظره، أو انتمائه، أو ميوله!!

إن عصبية الإنسان العربي في الجاهلية ونصرته لقبيلته وقومه - أكانوا ظالمين أو مظلومين - لأمرٌ معلوم يمثّل ذلك قول الشاعر دريد بن الصمّة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت .. غويت، وإن ترشد غزية أرشد...!

ويروي الطبري في تاريخه أن طلحة النميري قال لمسيلمة: «أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر»^{٦٣}!

فانظر لهذه العزة والحمية التي توقع الإنسان في الإثم والهلاك!!

لقد بات من الواضح تسبّب التعصّب في وقوع الكثير من مآسي الأمة الإسلامية، والمجتمعات العربية، حتى يقع المئات ضحايا لتعصّب رياضي

٦٣ - تاريخ الطبري (٢/٢٧٧).

كان يفترض أن يكون تجمّعاً ترفيهياً، تأنّس فيه النفوس، وتسود فيه المودّات، ولكن اتسعت الميادين وضافت النفوس...!! وإنك لتسمع عن المشاجرات المحتدمة، والمعارك التي تسفك فيها الدماء والسبب: مباراة في كرة القدم تقام بين بلدين عربيين...!! بل الأدهى من ذلك التّعصّب الناشئ بين ناديين من مدينة واحدة، يجمع أفرادهما أنساب وأصهار وعلاقة رحم!!

أما التعصّب الفكري، فلك أن تشاهد من تحسب فيهم عقلاء الأمة، ومفكرينها بل وعلمائها، فتجد التعصّب سيّد الموقف، والتشنّج زعيم الحوار، والقذف قائد الجدال...!! فيغنيك هذا الموقف عن مشاهدة الجهال في حواراتهم لأن التعصّب قد استحكم بالنفوس، واستبدّ بالعقول، فأعمى البصر، وأغشى البصائر، وأمسى كل مدّع ينسب الحق لنفسه، والضلال لغيره.

ومع الثورة التقنية واستخدام وسائل التواصل الاجتماعي اتّسعت دائرة التعصّب، وتلوّنت أشكاله وأنماطه؛ حتى إن أحدهم يقول: أجد من يهاجمني حتى في لهجتي فأصبحت أستخدم مفردات معيّنة حتى لا أثير هجوم المتعصبين عليّ...!! كما ظهر التعصّب القومي والوطني والعنصري والجهوي والطائفي بأفزع أشكاله، وأقسى لغاته...!! ترك المتعصبون المضمون الفكري، والفائدة العلمية، والإثراء المعرفي، والنفاس النافع واتجهوا إلى العصبية التي لا توغر صدورهم إلا شحناء وبغضاء وضغائن، فتلقوها في الهموم، وترديها في الأسقام!!

التعصب المذهبي سكين في خاصرة الأمة

من المفارقة العجيبة أن الإسلام دين الرحمة واللفظ والسماحة، ولكن المتعصبين للمذاهب التي نشأت في ظلاله دعاة فتنة، ومحرضو قطيعة، وباعثو أحقاد...!! نسي هؤلاء المتعصبون أركان الإسلام الجامعة التي توحد عُرَاهم، وتؤلف صفهم، وانشغلت أنفسهم بالتوافه من الأمور. يقول الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه القيم «إسلام بلا مذاهب»: كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيئ خطير على الإسلام والمسلمين؛ فالإسلام الموسوم بالسماحة، الداعي إلى السلام، قد تخضبت دماء أبنائه بدماء بعض نتيجة للخلافات المذهبية وضيق الأفق الذي حلّ بهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم، وانتهى الأمر في كثير من الأحيان -ولفترات طويلة من الزمان- إلى القتال الدامي الذي ترك رواسب كثيرة في نفوس المسلمين من أبناء الطوائف المختلفة!!

لكنني أعتقد بأن الإسلام واسع، يتسع للاختلاف، إنما ينبذ العصبية والتنطع؛ فليست القضية في نظري قضية مذاهب اجتهد أصحابها فنقل عنهم اجتهادهم ولكن المشكلة تقع في أمرين: الأول فيما نسب لهذه المذاهب من أحكام وفتاوى وتفسيرات ليس لها أصل في الدين غلوّاً أو تساهلاً. أمّا الأمر الثاني فهو التعصب للمذاهب وعلمائها تعصب المقدس الذي لا يحق لأحد أن يمسه بحق أو بباطل!

وإذا كان الاختلاف في الإسلام رحمة فإن «المتعصبين للمذاهب أبوا أن يكون الاختلاف رحمة، وتشدد كل منهم في تحميم تقليد مذهبه، وحرّم على المنتمين إليه أن يقلّدوا غيرهم ولو لحاجة فيها مصلحتهم»^{٦٤}.

٦٤ المسلمون قوة الوحدة في عالم القوى، للمؤلف/ عبد القادر الإدريسي السوداني

التعصب مرض في حد ذاته لأنه ينتصر للذات وللجماعة بغطرسة وعنفوان ونعرة، لا يكثرُ لحق، ولا لبشر، ولا لفكر.. فألغى التسامح تجاه الرأي المخالف، ونأى عن النقاش والتحاور لما يتضمنه الرأي الآخر، واعتقد جازماً بأن رأيه هو الحق الدامغ، وأن رأي غيره ليس إلا ضلالة عقل، وانحراف نفس..! ولقد كانت نتيجة ذلك التعصب الإرهاب الفكري الذي يهاجم بشراسة كل رأي مغاير، ونتيجته الصراع بين مكونات المجتمع وطوائفه المختلفة، هذا فضلاً عن تسببه في تحجر الفكر بما أنتجه من تبعية عمياء دون مراجعة لموروث، أو تهذيب لفقهِ، فكثر القلاقل في المجتمع، وتخلخل بناؤه، وتقصضت أركانه.

ويجدرُ بالعاقل هنا أن يسأل: هل يمكن للعقل العربي أن «يتحرر» من سلطة التعصب لكي يعيش التجربة الديمقراطية في الدولة المعاصرة؟ أم أن التعصب قد أصبح فطرة لاصقة فيه لا يحد ولا يتخلى عنها؟!!

دين الإسلام لا دين المذهب

أعجبتني عبارة قالها شابٌ عماني في أحد البرامج الإعلامية: نحن ندين بدين الإسلام لا بدين المذهب، وأعتقد أنه بهذه العبارة قد لخص الفكرة السائدة عن التعايش السلمي للعمانيين، كما أنه لامس بها لب الإشكالية المستفحلة في الذهنيات المتعصبة التي أنتجت العنف والتمزق في مكونات المجتمع المسلم..! نعم ندين بدين الإسلام لا بدين المذهب؛ فالمذهب فقه لا دين، أما الإسلام فهو الدين «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (آل عمران: ١٩)

ولورّد كل مسلم الأمر إلى منهج الدين، واستمع إلى صوته، ونهل من معين حكيمته لسلم نفساً، وهناً عيشاً، وأمن قلباً؛ لأن الإسلام براءة روحية، وفطرة إلهية، وليس غايات بشرية، وصناعات آدمية يشوبها الهوى، ويمارزها التعصب، ويخالطها الباطل..! الإسلام منبع زلال، صافي المشرب لكل من شرب من موره، وفتح عقله لمقاصده الرفيعة. وما كان من إشكاليات ابتدعها بعض من زعم، وادّعى إلا لأنه أسلم نفسه لهوى النفس وهو يعلم أنها على باطل كعتاوتة قريش وهم يخالسون غيرهم ليتلذذوا بالقرآن وهم يعلمون في دواخلهم أن النزعة الجاهلية والعصبية القبلية هي التي تحول دون اعترافهم بالحق المنزل على الأمة جمعاء وهي جامعة وهم ضد الاجتماع!

أما ما مزق شأن الأمة تناحراً وتقتيلاً وتباغضاً وتشتيتاً هو اعتبار بعض طوائفها وفئاتها المذاهب أدياناً فصاروا يدينون بدين المذهب، ونسوا دين الإسلام، كما تجاهلوا أن المذهب فقه إسلامي له صوابه وخطأه، ومرّد الأمر إلى الله والرسول أي إلى روح الإسلام الذي تضمنهما..! إن القيم العليا في الإسلام هي التي يجب أن تسود فوق كل مذهب آخر، فإن لم يستوعبها فقد تعصّب لبشريته..! وإن قبلها سما به أفقاً، وعلا بها مكانة.

إن مرجع الأمر هنا لعنصرين: أولهما: سياسة الحكومة، وثانيهما: عقلية العلماء. فهذان العنصران يقودان المجتمع بحكم تأثيرهما القانوني والتشريعي والديني إلى الوجهة التي يجب أن يمضي عليها، فقد وضع الثقة فيهما، وأسلم القياد إليهما، فإن أحسنا ذلك كان من أعظم نتائجهما السلم والتسامح والتآخي والتوافق، وإن هما انحرفا إلى مسارات لا تخدم

المعاني السامية التي أراد الله تحقيقها للبشر أسفرت مساعيها أو مساعي أحدهما إلى التناحر الطائفي، والاعتراك الطائفي، والنزعات العصبية، والنعرات القومية.

لقد باتت الأمة تلعق جراحاتها، وتئن من أوجاعها، في الوقت الذي جسّد فيه بعض من يتسمون بالعلماء مثلاً سيئاً في العصبية الطائفية والمذهبية والفكرية والفقهية، فألهبوا الشياطين على أجساد بعضهم البعض لا ليتصروا للحق وإنما ليتصروا لأنفسهم...! وأوغروا صدور الناس بالأحقاد والأضغان لجهلهم الاختلاف، مع ادّعائهم الظاهري باتباعهم النهج المحمّدي وهم أبعد الناس عنه خلقاً ومسلِكاً في الاختلاف والتسامح والتغاضي ونشدان الوحدة وتغليب المصلحة العليا للمسلمين. فرأيانهم يتقاذفون بالألفاظ الشنيعة، وسمعناهم يتبادلون الاتهامات الفظيعة، يكفّر بعضهم بعضاً، ويطعنون قلوب بعضهم بأشدّ ما تفعل الرماح المسنّنة...! كيف بهؤلاء أن يكونوا قادةً للأمة، ومرجعاً لأفرادها؟! كيف يوصفون بأنهم «أهل الذكر» الذين يعلمون ما لا يعلمه عامّة الناس عن دينهم وهم رهناء عواطفهم، وأسراى أهوائهم، ينافحون عن فهمهم المعوّج، وفكرهم المنحرف، الذي ما أدّت نتائجه إلّا إلى وقوع الأمة في براثن التخلف والإرهاب والتطرّف...! فإذا بهم يلتفون على حقيقة أنفسهم فيلقون التّهمة على الآخر، ويلصقون المؤامرة به، فيبرّؤون أنفسهم من كل خطيئة، وينزّهونها عن كل رذيلة...! نشروا التطرّف والتشدد وأغروا العقول، وأضلّوا النفوس فعاشوا هم في سلامٍ وعاش من أضلوهم في سعيّر التناحر، وأتون القتاتل!

كيف يمكن أن يوحد هؤلاء العلماء الأمة وكل تفكيرهم وتديرهم في إحلال مذهبهم محل المذهب الإسلامي الآخر، وليس نشر الإسلام في بلاد لم تنل نعمة التعرف عليه..؟! كيف يكون هؤلاء مسلمين وكل همهم أن يبدل صاحب مذهب مذهب ليفاخروا به، لا أن يعتنق فرد الإسلام..!! هؤلاء يدينون بدين المذهب لا دين الإسلام؛ لأن من يدين بالإسلام إنما هم أن يجمع لا أن يفرق، أن يتطوع لخدمة الإسلام لا لخدمة المذهب إن كان المذهب يحض على التعصب والتطرف..! هؤلاء يعيشون بأقنعة مزيفة فهم يظهرون للناس أنهم دعاة سلم وحق وسلام فلا تسمع منهم إلا دعوة التسامح والتعايش السلمي ويطنون أعمالاً تخالف كل ذلك الذي يتشدقون به أمام العامة!

إنني أحترم وأقدر كل من يصحح مسار المذاهب، وينتقد ما شابها من عصبية غيضة وأهواء بشرية محدودة البصر والبصيرة، أحترم هؤلاء على الرغم مما يلاقونه من عنت من قبل بعض علماء المذاهب الذين وضعوا أنفسهم أوصياء على إرثها، وحرّاساً على كل ما أنتجه السلف من حق وباطل..! أحترمهم لأنهم أعملوا عقولهم، وأمعنوا تفكيرهم في الإرث المذهبي، فقبلوا ما رأوه متوافقاً مع مقاصد الشريعة، ورفضوا ما وجدوه متعارضاً مع المنطق والعقل والوحي. فعالم الدين محدود النظر في جوانب معينة لا يستطيع أن يحيط بكل شيء، فهو في حاجة إلى من يقدم إليه المشورة والرأي في جوانب خارج تخصصه، وعلمه. لهذا لا يمكنه أن يملئ على الناس ما يجهل تفاصيله وأبعاده فيكون كلامه أشبه بالمنهج الذي يحسبه الكثير هو الدين ذاته، وقد يكون الدين أبعد مقصداً، وأسمى غاية مما يرى ويفتي..! يقول الفقيه المجدد عبدالله العلايلي رحمه الله: «لَيْسَ

مُحَافَظَةُ التَّقْلِيدِ مَعَ الْخَطَا؛ وَلَيْسَ خُرُوجًا إِلَى التَّصْحِيحِ الَّذِي يُحَقِّقُ الْمَعْرِفَةَ».

أما الساسة الذين اتخذوا من الأتباع مطيةً لأهدافهم، ووسيلةً لأطماعهم، فقد وظّفوا الذين بتوظيف علمائهم كي يكونوا أدواتهم لتحقيق مآربهم، حتى ساقوا رعايا الناس إلى التصنيفات الطائفية، وقادوا الأوطان إلى التجزئة والشتات، فصاروا أعداءً للأمة أشدّ من أعدائها المجاهرين، وكشفوا عن استبدادهم وطغيانهم بأفزع ما يفعل العدو الغاشم..! يقول سماحة السيد محمد حسين فضل الله رحمه الله: «إن الإنسان الذي لم يستطع أن يبصر الشعاع السامع وهو يقبض من روح الله على هذا الوجود، لا يمكن أن يعيش معاني الرحمة والمحبة والتسامح والمعرفة؛ لذا فلا يمكن أن يتسلم قيادة البشرية لأنه لا يستطيع أن يقودها إلى الجانب الخير من الحياة».

إن كثيراً من مجتمعاتنا تتخللها أفكارٌ سقيمة، ونوايا مبطنّة غير ظاهرة، ودسائس خفية سامّة، تنتظر الظروف كي تكشف أستارها، وتترقب الفرص كي تظهر عن نفسها، وما لم تتخلص المجتمعات من هذه الوباءات العقيمة، والبلاءات العظيمة بالتعليم والقيم السامية والرؤى الحضارية وفتح العقول للآفاق الرحبة فستظلّ عرضةً للخراب، وهدفاً للتدمير في أي لحظة!

نعم ندين بالإسلام لا ندين بالمذهب، لكن المذهب الفقهي الذي نوسم به هو مذهب سلام ووفاق وتآخ، فإن شدّ فيه شاذّ نبذناه، وإن حادّ عن وسطيته متطرفٌ سفهناه، فلا غلبةً لأحد على اعتدال الدين، ولا عنجهيةً لأحد على سموّ قامة الإسلام. وقفنا صفّاً واحداً: أباضياً وسنياً

وشيعياً، توجَّهنا لقبله واحدة، وكَبَرنا بتكبيره واحدة، وأدَّينا الفروض وشهدنا بالله ربَّاً ومحمَّداً رسولاً، فهل بقي بيننا ما هو أعظم جامع، وأسدى شامل سوى ذلك؟!..! تشرَّفْتُ بأن كتبتُ نشيد «واعتصموا» فأدَّاه شيعةٌ وسنةٌ وأباضيَّةٌ.. لأقلَّ أدَّاه مسلمون شربوا حليب الإخاء من ضرع عمان الماجدة.

إنَّ أساس بلاء المسلمين اليوم أنَّهم لم يستمعوا نصيحة قائدهم ومعلمهم وقدوتهم الذي وصَّاهم بترك العنصرية قائلاً لهم: «دعوها فإنها منتنة»، ولم يطبقوا قوله -عليه أفضل الصلاة والسلام- في صحيح مسلم: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية».. فما أكثر من يدعو إلى عصبية من علماء وجهلة وساسة، والنتائج لا تحتاج إلى برهان..!! فرقُ إذن بين من يدينُ بالإسلام وبين من يدينُ بالمدَّهَب، ذاك المنبع وهذا مجرى من مجاريه، ذاك الجذع وهذا فرعٌ من فروعه.. وما لم يظهر في الأمَّة رجالٌ يعترفون بجرأة بالأخطاء، ويقرُّون جهرًا بالعترات والزلات فلن تقوم للأمَّة قائمة، ولن يصلح لها شأن، لا بد من التحلِّي بالشجاعة فهي أسمى الفضائل.. ما أحوجنا إلى الشجاعة في الاعتراف بالأخطاء، والشجاعة في الإصلاح، والنظر السامي إلى عظمة الدِّين الذي ننتمي إليه.

وفي الأخير نقول: إنَّ ما يحرِّر التعصُّب ثلاثة أمور جليلة: الإيمان والعلم والقيم الرفيعة؛ أمَّا الإيمان فيعني الفهم الجوهرى لمعنى المسلم، ومنهجه، وسلوكه، وطريقة تفكيره، وأخلاقه، وتعامله. أمَّا العلم فهو الذي ينيِّر للعقل منافع الاختلاف، وفائدة النظر إلى الأمور من جوانب مختلفة، كما

يقنعه بأن الحقيقة ليس لها دائماً وجه واحد، وأن رأي الإنسان فيه نقص يحتاج إلى تكملة من غيره. أما القيم الرفيعة فهي القيم التي تُعلي شأن الإنسان مقاماً، وتجعل لكرامته معنى قيماً كقيمة التسامح والحلم والعفو وسعة الصدر والنخوة والكرامة وتقدير البشر واحترامهم، وأهمية التضامن والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد والأمة الواحدة، وأن تكون كل هذه المفاهيم والمبادئ والقيم فاعلة في حياة الإنسان، ملموسة في أفعاله وأقواله.

الخاتمة

مضامينُ هذا الكتابِ تشخيصاتٌ للعيوبِ الثقافيةِ التي أوهنت قوانا الاجتماعية، وعرقلت قدراتنا الفكرية، وأعادت طاقاتنا الخيالية، وأنهكت إمكانياتنا النفسية، وما كان انشغالي بها أياماً وليالي - منهمكاً في تتبع جذورها، متأملاً انزلاقاتها، وتغلغلها، واعتلالاتها - إلا لأنني رأيتُ من أحوالِ مجتمعاتنا العربية المسلمة ما يدفعُ إلى البحثِ المعمقِ في أسباب ربكته، وعدم انتظامها في سلم التطور الحضاري، بل وتيهانها في حلقات ما تلبثُ أن تعيدها إلى منطلقها الأول !!

وإذا كان معلوماً أن « تشخيص المشكلة نصف العلاج » فإن ما شكّل تحدياً بالنسبة لي هو عرضُ المشكلة وبسطها بطريقة يمكنُ تلمس الحلّ في ثناياها، وهذا ما يؤكّده برتراند راسل^{٦٥} في قوله: « أكبر تحدي يواجهه أيُّ مفكرٍ هو طرح المشكلة بطريقة تسمح بالوصول إلى حل»، مُدركاً أن القضية عميقة، ومعقدة في كثيرٍ من الجوانب، وأكثر من ذلك ما يقصده الفيلسوف مالك بن نبي^{٦٦} في قوله: « ليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي»^{٦٧}. لكن أهمية الوعي في نظري ذات فاعلية عظيمة لا تضاهيها قيمة..! وللوعي أقيته وأبنيته ومنها ما يقوله أيزنهاور: « إن كانت المشكلة غير قابلة للحل فضخّمها. »!

٦٥ فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني (١٨٧٢-١٩٧٠) (ويكيبيديا).

٦٦ مالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣ م) الموافق لـ (١٣٢٣ هـ-١٣٩٣ هـ) من أعلام الفكر الإسلامي العربي في القرن العشرين (ويكيبيديا).

٦٧ دوايت ديفيد أيزنهاور (١٤ أكتوبر ١٨٩٠ - ٢٨ مارس ١٩٦٩)، سياسي وعسكري أمريكي والرئيس رقم ٣٤، تولى حكم الولايات المتحدة في الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٦١ (ويكيبيديا).

إنما تواجه الأمم المتقدمة مشكلاتها التي تُعيق تطورها ونمائها بعقولٍ منفتحة، وعزائم متحفزة من أجل إحداث الإصلاح الجذري لا الترقيع الذي تطرقت إليه في أحد جوانب الكتاب؛ فبعض الدول تقوم بتدريس أخطائها في المدارس كي تتقي الأجيال مغبة الوقوع في المثل ذاتها. أما المجتمعات التي تتجاهل المشكلات فهي التي تتناسلها بصور أكثر تعقيداً في كل جيل، بل إنها تصبح عُرفاً من الأعراف المتوارثة!

إن الوعي بالمشكلة بعرضها هو أقرب وأسهل عامل للتغيير، فضلاً عن أنه لا يكلف الدول موازنات للبرامج والمؤسسات التي لسنا - مع ذلك - في غنى عنها، إنما يشكل الوعي طريقاً ممهداً للعمل المؤسسي الممنهج؛ فلا يمكن أن تقوم مؤسسة يديرها من لا يعي رسالتها، ورويتها، وأهدافها، ووجودها!

إن «سلسلة نقد الحال الراهن» التي شكّلت عقداً منتظماً من التشخيصات المبنية على رؤيتي الواقعية، منطلقة من النية الخالصة في تعيين الاختلالات الثقافية التي يتلمس الناظر في ثناياها قبسات الإضاءة في تضعيفها. يقول د. على أسعد وطفة في كتابه «الجمود والتجديد في العقلية العربية»: «إننا عندما نقدم على رصد مظاهر الحياة السلبية في حياتنا الثقافية، فإن هذا لا يعبر عن رغبة ماسوشية^{٦٨} تسعى إلى قهر الذات أو جلدتها؛ لأن البداية الحقيقية لكل حادثة تكمن في تفكيك أسس ومناهج تفكيرنا، والكشف عن العوائق الإبيستيمولوجية^{٦٩} التي تحجب عنا عيوبنا المنهجية والنظرية،

٦٨ اللذة والمتعة في التعذيب - المؤلف.

٦٩ المعرفية

ومن ثم دراسة وتحليل مخيالنا المشحون بالمقدس وبتراث من التعاليم والتوجيهات».

إن المسؤولية التاريخية والأخلاقية تتطلب منا أن نتحلّى بالشجاعة في الاعتراف بمشكلاتنا؛ فنحن لا نعيش في عالم ملائكي لا نخطئ، كما أن دفن الرؤوس في الرمال وصم الآذان عن سماع ما «ينغص» علينا الأحلام الجميلة لن يكون مصدر سعادة، وإنما هو أشبه بـ «مسكن» و«مخدر»!!

ووفقاً لهذا المسعى، فإنني آمل أن لا يقف هذا الجهد محله، وإنما أن يكون للمؤسسات التي تُعنى بالتربية والتعليم – وغيرها من المؤسسات الاجتماعية – دور في دفعه للوعي الإنساني فكراً وعملاً. إن الرهان الذي بأيادينا هو عرض شخصيات العيوب والمثالب من أجل الوعي بها، ومن ثم العمل على تصحيح المسار.

ولكي يرتقي الوعي إلى المفاهيم العليا، ويسمو الإدراك إلى قيمة المبادئ النبيلة، فإن هذه المقاصد تستوجب العمل على المؤسسات الآتية:

أولاً: تشخيص العيوب، وتحديد المثالب، وتدريبها للأجيال كي تعي آثارها، والنتائج المترتبة عليها فتحيط بها معرفةً، وتعتقلها إدراكاً، وهذه خطوات تمهيدية أولى للتغيير.

ثانياً: التركيز على المقومات الرئيسية، والأسس الجوهرية للإسلام، وإبرازها لكي ترسخ في الضمير، وتبلور في السلوك. على سبيل المثال: أن مقاصد العبادات هي الأخلاق السامية التي تحقق شرط الإنسانية النقية.

إلى جانب ذلك تقوية الفضائل التي عُرفت بها الشخصية العربية كالشهادة والنخوة وإسعاف الملهوف والكرم، وإبرازها بالصورة العصرية المناسبة من أجل التأكيد على إضافتها الحسنة للشخصية.

ثالثاً: تبني مشاريع اجتماعية واقتصادية وفكرية وإعلامية هدفها «صناعة شخصيات مؤثرة» ذات توجه إيجابي، إصلاحية، معتدل مستنير، تكون بمثابة القدوات الحسنة في المجتمع. كما يكون هدفها تأسيس ثقافة سليمة ابتداءً من الانتقاء الدقيق للألفاظ المستخدمة وانتهاءً بالنتائج المتوقعة.

رابعاً: الإهتمام بالجوانب النفسية والاجتماعية للأفراد؛ وذلك بتضمين المناهج مواد من علم النفس والاجتماع لأجل نشأة جيلٍ يُدرك أثر هذه الجوانب في الثقافة الإنسانية.

خامساً: الاعتناء بالقيم الفاضلة في جميع المجالات: الأخلاقية والجمالية والفنية والمهنية؛ من أجل ترسيخها لكي تكون مناهج حياةٍ للفرد.

هذه أفكارٌ يضيفُ إليها كل طامح إلى إحداث تغيير ثقافي في مجتمعه ما يراه مناسباً في ضوء تجاربه وخبراته.

هذا والله الموفق ،،،

رقم الإيداع المحلي: ٢٠١٥/٢٦٣
رقم الإيداع الدولي: ٧-٣٧٤-١-٩٩٩٦٩-٩٧٨
الناشر : الرؤيا للصحافة والنشر
ص.ب : ٣٤٣ الرمز البريدي : ١١٨
مسقط - سلطنة عمان



salehAlfahdi

Printed by

alanan
PRINTING PRESS

Al-Anan Printing Press

www.alananprinting.com

«نقد الحال الراهن» منظومة تحليلية لحجم تعامل المجتمع مع القيم، عميقة المضامين، تلفت الانتباه إلى الاتجاه الذي تحدده بوصلة السلوك الحسن والتمط الأفضل للعيش.

ولا عجب أن يتصدى الدكتور صالح الفهدي لأعداد مثل هذا العمل القيم الذي أحسبه الأول من نوعه، وقد سكب في قوالب من اللغة لا تتطلب مجهودا للفهم، تحدد معالم الهوية الأخلاقية بمنتهى السهولة، وترسم علامات استفهام على أشكال من السلوك في إطار «ما لا ينبغي» لأجل «ما ينبغي».

يسد هذا العمل فراغا في الكتابات التي ترصد المجتمع سلوكيا وتنقد الواقع ببراعة لأجل تعامل متناغم مع الهوية والذي أرجو أن لا تفوت فرصة قراءته بإمعان كل مهتم بتطوير الحياة إلى حيث الأفضل والأكمل.

